هذا والدي

القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله بجميع محامده كلها ، ما علمنا منها وما لم نعلم ، على نعمه وآلائه كلها ، ما علمنا منها وما لا نعلم . وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم ألهمني سبيل الرشد ، وجنبني مزالق الردى ، وطهر قلبي من الشوائب ، حتى يكون عملي كله سعياً إلى مرضاتك ، إنك على كل شيء قدير .

مقدمة الطبعة الجديدة

شاء الله عز وجل أن يحظى هذا الكتاب بقبول متميز عن كتبي الأخرى لدى عامة الناس وخوّاصهم . بل لقد استأنس به وركن إليه كثير من التائهين والشاردين الذين ليس لهم حظ من الإقبال على الدراسات أو الكتب الإسلامية قطّ .

ولا شك في أن سرّ هذا الانتشار والقبول المتميزين ، إنما يتمثل في موضوع هذا الكتاب الذي هو والدي ، وما كان ينطوي عليه من شؤون وأحوال ، ولا يتمثل في أي سبب آخر مما يتعلق بشخص المؤلف والكاتب .. وإذا قبلني الله عز وجل سمساراً أو دلاّلاً على تلك الشؤون والأحوال التي توقظ السادر وتعيد الشارد وتذكر الناسي والغافل ، فأعظم بذلك من ربح جزيل تصغر وتذوب أمامه سائر كنوز الدنيا وخيراتها .

قال لي بعض القارئين : ليت أنك أوردت طائفة من فتاواه وآرائه العلمية التي تكشف عن ملكته الفقهية الواسعة التي كان معروفاً بها .

قلت له : إن هذا العمل لا يعتمد إلاّ على مبرر واحد ، هو التنوية بعلمه الغزير ودقة معلوماته الفقهية . وإني لأعلم أنها دعاية دنيوية لم يكن يُسَرُّ بها والدي في حياته ، ولا يرضا بها قط بعد مماته .

وليعلم كل من قرأ أو سيقرأ هذا الكتاب أنني لم أنطلق إلى ترجمة حياة والدي والحديث عن حاله وشؤونه من قرار قداسة أضفيها عليه أو من مناقب له أعتزّ بها وألفت النظر إليها . وإنما أنا مؤرخ لواقع ومعلن عن حقيقة ومترجم لحياة إنسان .. ولذا فإني لست معنياً بأكثر من أن أكون صادقاً ودقيقاً فيما أتحدث عنه وأخبر به . ومن ثم فلست مسؤولاً عن التوافق أو عدم التوافق الذي قد يتم بين واقع هذه الترجمة والأحوال والشؤون ، وبين أمزجة بعض أو كثير من الناس .

ولكني أسأل الله عز وجل أن يكرمنا جميعاً بمعرفة الحق والتعلق به ، وبمعرفة الباطل والتنزه عنه . وأن يسيرنا جميعاً في طريق مرضاته إنه أكرم مسؤول .

دمشق ٢٧ شوال ١٤١٥هـ **محمد سعيد رمضان البوطي**
٢٨ آذار ١٩٩٥م

مقدمة

ترددت كثيراً في الإقدام على إخراج هذا الكتاب . وتساءلت طويلاً عن جدواه . وعن الدافع الخفي الذي يدفعني إلى كتابته وإخراجه . بل ربما تساءلت لمدة من الزمن عن مدى رضا والدي رحمه الله عن إقدامي على هذا العمل .

لقد مضى اليوم على وفاة والدي أربعة أعوام ونصف ، حسب التاريخ الهجري ، ولم يتكامل لديّ العزم على كتابة تعريف به وترجمة لحياته ، إلاّ صبيحة هذا اليوم .

وأهم أسباب هذا التردد الذي طال أمده ، أنني رأيت في الناس اليوم من يحرصون على إبراز مآثر موتاهم ، ويتعمدون تضخيمها والمبالغة في وصفها ، ويتفننون في إخراجها ، ابتغاء تحقيق كسب دنيوي مُقنَّع بعمل ديني ، كما رأيت فيهم من يجعلون مما يبرزونه من مآثر موتاهم ، ميراثاً من المكانة والفخار يجنون قطوفه بعد رحليهم .. وبالجملة ، فقد رأيت أن كتابة الأبناء عن الآباء ، غدت اليوم - على الغالب - فناً متميزاً من فنون الدعاية والاهتمام بالذات . يؤسَّسُ على اسم الآباء أو الشيوخ الذين رحلوا ، وينال مغانمه وأرباحه الأبناء أو المريدون الذين ورثوا ... فهي أشبه ما تكون بالقبور الباذخة التي تشاد - في الظاهر - إكراماً للموتى الذين يرقدون في داخلها ، بينما هي في الحقيقة عنوان أبهة وفخار لوراثهم وأهليهم الذين لا يزالون يتقلبون في رغد الحياة ونعيمها .

فلقد بدّدت هذه الظاهرة التي لمستها ، قدراً كبيراً من الرغبة التي كانت لدي ، في أن أقدّم سيرة مفصلة عن حياة والدي للناس . وحامت في نفسي - من هذا التصور - وساوس توحي إليّ أنني ربما كنت أبغي من هذا العمل الهدف ذاته .. وإذن ، فلن

يكون والدي - وهو الذي عرفته زاهداً في الشهرة راغباً عن المديح والإطراء - راضياً عن عملي هذا ، بل ربما تسببت بهذا لألمه أو غضبه . وأنا أعلم أن الموتى ، كالأحياء ، يتعرضون لأسباب الرضا والغضب ، كما يتعرضون لعوامل الراحة والألم .

وعلى الرغم من أن كثيراً من الأصدقاء الذين يعرفون والدي ، كانوا يقترحون ، بل يلحون عليّ ، أن أكتب للناس فصولاً عن حياته رحمه الله ، ويدفعونني إلى ذلك بالمؤيدات الكثيرة ، فقد ظلت مخاوفي من الإقدام على هذا العمل أقوى من الرَّغبة في الإقدام عليه .. إلى أن تذكرت ذات يوم حديث والدي عن بعض الصالحين من علماء الأكراد الذين تميزوا بالعلم الغزير وعرفوا بشدة الصلاح والتقوى ، فقد كان رحمه الله يحدثني عن بعض أخبارهم ومناقبهم ، ثم يبدي أسفه من أن مناقب هؤلاء العظام تذوب وتمّحي في تلافيف النسيان ، وكان الجدير بها أن تقيّد وتسطر ، دروساً للأجيال .

قلت في نفسي : لا أظن أن والدي أولى مني بهذا الأسف !.. فكما يحق له أن يشعر بضرورة الكتابة عن أولئك العلماء الصالحين ليستفيد الناس من مناقبهم ويتخذوهم أسوة في حياتهم ، فإنه ليحق لي بالدافع ذاته أن أشعر بالضرورة ذاتها ، تجاه أولئك العلماء ، ولا شك أنه هو واحد منهم . ولئن لم يتح لي أن أكتب عن أولئك السابقين لعدم إدراكي لهم وعلمي بهم ، فإن بوسعي أن أكتب عنه وعن حياته لأنني على علم به وبها ، بل لأنني أكثر الناس علماً بحياته وسلوكه ودخائل أمره .

وهكذا ، فقد لمست فيما تذكرته من حديث والدي عن أولئك العلماء الصالحين ، إذناً بالكتابة عن حياته ، بل دعوة لي إلى ذلك ، لا بوصفه والداً لي ولكن بوصفه واحداً من أولئك العلماء الذين تمنى أن تسطر مناقبهم ذكرى وموعظة للأجيال . ولا شك أن قراري بكونه واحداً من أولئك العلماء ، إنما هو عن يقيني أنا ، بقطع النظر عما كان يراه من نفسه وحاله ، إذ لم يكن هو عند نفسه وفي قناعته بذاته إلا واحداً من عامة الناس .

ثم إني استشرت بعض من أحسب أنهم من أهل الصلاح والتقوى في هذه البلدة . في إقدامي على هذا الأمر ، موضحاً أن والدي رحمه الله كان يمنعني من أن أحدث الناس عن خفايا شؤونه وخصوصيات أحواله مع الله . فكان الرأي الذي لديهم أنه عمل مبرور ومفيد إن ابتغي به وجه الله عز وجل ، على أن يكون كل من البيان والوصف طبقاً للواقع دون نقص أو زيادة أو تضخيم أو مبالغة ، وكان جوابهم عن تحذيره لي من أن أحدث الناس عن خفايا أمره ، أن ذلك كان في حال حياته ، يوم كان يخشى على دينه من النفس وغوائلها . أما الآن وقد خرج من دنيا التكليف إلى ما هو مقبل عليه من وراء ذلك ، فلم يعد في الحديث عنه أي خطر عليه .

فمنذ ذلك الحين ، اتجهت مني الرغبة مرة أخرى إلى أن أعكف على كتابة سيرة حياته رحمه الله تعالى طبق ما أعلم ، وضمن حدود الواقع ، بعيداً عن منطق التبجيل والتفخيم ، وأخيلة الألقاب المصطنعة . مستعيضاً عن ذلك كله بإطلاع القارئ على واقع حياته الشخصية وعلاقاته الاجتماعية وسيرته الذاتية ، كما هي ، ودون أي صقل أو تحوير ، فإن ذلك أحرى أن ينسج في ذهن القارئ المكانة الحقيقية التي كان يتبوؤها . على أن الهدف من مثل هذا العمل ما ينبغي أن يكون تنبيهاً للناس إلى مزية أو مزايا دينية أو علمية كان يتميز بها ربما على كثير من الأقران ، للتباهي والتفاخر بها من بعده ، فإن هذا القصد لو وجد - والعياذ بالله - لن يكون إلا مصدر ألم وأذى لوالدي رحمه الله . وإنما القصد الذي ينبغي أن يكون وحده القائد إلى هذا العمل ، هو العظة بحال من غبر ، والتنبه ، من خلال تراجم الصالحين الذين عاشوا في الدنيا غرباء عنها ، إلى ضرورة أخذ الإنسان المؤمن حذره من مكر الليالي والأيام ، وضرورة الإقبال إلى ما قد خلق من أجله ، معرضاً عما قد تكفل الله له به . وخلاصة القول أن المبتغى من تراجم الصالحين أن نصغي منها إلى النداء الرباني القائل : ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصّافات : ٣٧/٦١] .



الشَّيخ مُلَّا رمَضَان البُوطي
في السِّتِّينات

إذن ، فقد عاودتني الرغبة إلى وضع سيرة واقعية دقيقة لحياة والدي بين يدي الناس . للقصد الذي ذكرت ، لا لأي شيء آخر ... ومع ذلك فإنني لم أستسلم لهذه الرغبة وحدها ، بل هرعت أخيراً إلى الاستخارة التي علمنا إياها رسول الله ﷺ ، فصليت ، ودعوت .. واستنجدت .. وسألت الله أن يوجهني إلى الخير وأن يلهمني ويسيرني فيما يرضيه . وها أنا أجدني اليوم متجهاً بكامل الانشراح إلى هذا العمل الذي أسأل الله ، كما شرح صدري للبدء به ، أن يوفقني لإتمامه على النهج الذي يرضيه .

والله من وراء القصد ، وبيده الخير كله ، وعليه وحده الاتكال . .

دمشق في ٢١ ربيع الثاني ١٤١٥
٢٦ إيلول ١٩٩٤

ولادته ونشأته وطلبه العلم

كانت ولادة أبي عام ١٨٨٨ حسب سجلات قيد النفوس ، في قرية صغيرة اسمها (جيلكا) تابعة لجزيرة بوطان ، التي يطلق عليها بالعربية اسم جزيرة ابن عمر ، وهي داخلة في حدود تركيا ، على مرمى النظر من بلدة عين ديوار السُّورية[١] .

ولد من أبوين كرديين . اسم أبيه عمر واسم جده مراد ، ولست أعلم أي تفصيل آخر عن نسبنا والأرومة التي ننتهي إليها ، ولقد كنت أسأله عن بعض التفاصيل في ذلك ، فكان يظهر لي عدم الاهتمام بهذا الأمر ، مشيراً إلى أن من العسير أن يبين الإنسان مسار نسبه في ظلمات الماضي دون الوقوع في أخطاء .. وكان يطيب له أن يعرض عن التحقيق في هذا البحث الذي ربما بدا عويصاً ، مستشهداً بقول ابن الوردي في لاميته المشهورة :

لا تقل أصلي وفصلي أبداً   إنما أصل الفتى ما قد حصل

مرحلة الطفولة :

كان جدّ والدي فلاحاً يمضي جل وقته في الحقول وأعمال الزراعة وأسبابها ، ولم يكن أمام أولاده وأحفاده عملٌ خيرٌ لهم من ذلك ، فما إن بلغ حفيده الصغير هذا مرحلة الصبا ، وغدا ينشط مستقلاً ببعض شؤون نفسه ، حتى بدأ يوجهه إلى مساعدته فيما يستطيع من أعمال الفلاحة وخدمة الأرض . وكان أبي يرى في ذلك فرصة لأنشطته

---

(١) اسمه الأصلي ، رمضان . ولكنه اشتهر بملا رمضان ، حتى ظن كثير من الناس أن اسمه : ملاّ ، وأن رمضان كنيته . فكانوا يقولون عنه : شيخ ملا .

اللاهية التي يتعلق بها الأطفال في تلك المرحلة ... غير أن والدته التي كانت كثيرة الصلاح والتقوى ، كانت تصر على أن يوجَّه نحو الدراسة وطلب العلم ، وقد استطاعت أن تقنع أخيراً زوجها بذلك .

يقول والدي رحمه الله : فبقيت مدة من الزمن أتقلب بين رغبة جدي في العمل معه في الحقل وخدمة الأرض ، وإصرار أبوي على الدراسة والسير إلى طلب العلم ، غير أني كنت أجد متعتي تلك الفترة في أن أُفْلَتَ من قيود الدرس والكتابة ، وأنطلق لأعبث وألهو بين الحقول مع أمثالي من الصغار بحجة تلبية جدي في أن أعينه في أعمال الفلاحة . وكان مما يزيدني تبرماً بالدراسة التي أرغمت عليها أن السبيل إليها كانت بدائية غير ميسرة ، وأسباب الترغيب فيها معدومة .. لقد أرسل أبي إلى الجزيرة من يشتري لي قلماً وحبراً وأوراق كتابة ، ولبثت أنتظر دون جدوى .. ولما فوجئت بمن جاء يحمل إليّ قلم قصب ودواة حبر وشيئاً من الورق ، داخلتني الفرحة وتملكني سرور كبير من وصول هذه الأدوات النادرة إليّ ، ودخولها ، وأنا في سن الطفولة ، في حوزتي .

☆ ☆ ☆

كانت القرى الكردية في منطقة الأناضول تعاني من انتشار الجهل ، والحاجة الماسة إلى الثقافة والمعرفة . وكانت المدارس الرسمية فيها قليلة جداً . غير أن الأكراد كانوا بمقابل ذلك تواقين إلى معرفة اللغة العربية والتزود من علوم الشريعة الإسلامية . فكانوا يتعاونون فيما بينهم على إنشاء سلسلة حجرات تكون على الأغلب تابعة لمسجد ، يسمونها مدرسة ، وهي أشبه ما تكون بهذا الذي يسميه الإيرانيون بالحوزات . وكانت هذه الحجرات تستقبل من يرغب أن ينقطع إلى طلب العلم ودراسة علوم اللغة العربية والدين . ويقوم بتدريس هؤلاء الطلاب علماء متطوعون يمارسون عملهم التعليمي المرهق بسعادة تامة ، طبق نظام الحلقات التي تتتابع على شيخ واحد . ويتكفل أهالي القرية بتقديم وجبات الطعام اللازمة إلى هؤلاء الطلاب وغسل ثيابهم وتقديم الخدمات

اللازمة لهم ، بسائق من الشعور بأنهم يقومون بواجب منوط بأعناقهم ، دون أن يطوف بأذهانهم أي تصور لتفضل أو تمنن .

كانت قرى جزيرة ابن عمر تفيض بهذا النوع من المدارس ، وكانت تعج بطلاب العلم ، وكان على رأس تلك المدارس وأولئك الطلاب علماء أعلام ، خرجتهم تلك المدارس وأمثالها .

☆ ☆ ☆

وهكذا ، فقد شاء الله تعالى أن ينفك أبي ، منذ نعومة أظفاره ، عن الفلاحة والعمل مع أبيه وجده في الأرض ، وأن يتجه إلى تعلم الكتابة وقراءة القرآن ، ثم يلتحق بإحدى تلك المدارس التي أشرت إليها .

ولست على علم بتفصيل وقائع حياته الدراسية هذه ، ولكني أعلم مما حدثني به أكثر من مرة ، أنه تنقل في قرى متعددة ينتجع العلم في مدارسها ، وأنه تتلمذ على أكثر من شيخ في أكثر من مدرسة .. إذ كان يأخذ من كلٍ ، حاجته التي يشعر بها . وتلك هي طريقة التلقي عن الشيوخ فيما مضى ، قبل أن تحلّ الأنظمة الجامعية المقيَّدة محلّ الدراسة العلمية الطليقة .

وإني لأذكر الآن أسماء ثلاثة من الشيوخ الذين تلقى عليهم والدي رحمه الله ، وكانت أماكنهم متفرقة . أحدهم : الشيخ محمد سعيد سيدا ، وكان مشهوراً باسم : شيخ سيدا ، ثانيهم سيد محمد الفنذكي ، وكان والدي ينعته بالعلم والتواضع ، وقد أتيح لي أن أراه في أواخر الأربعينات ، وكان ماراً بدمشق متجهاً للحج إلى بيت الله الحرام ، وثالثهم الملا عبد السلام ، وكان يدعوه دائماً بـ : سيداي ملا عبد السلام ، أي أستاذي ملا عبد السلام .

منهج الأكراد في دراسة العلوم الشرعية :

يهتم الأعاجم عامة والأكراد خاصة من علوم الإسلام ، بما يسمونه بعلوم الآلة .. وهي تعني علوم العربية بما فيها من صرف ونحو وبلاغة ، والمنطقَ ، وعلم الوضع ، والمقولات العشر .. فالمقبل على طلب العلم في أي من مدارس الأكراد ، لا بدّ أن يبدأ أولاً فيتعلم تصريف الأفعال ، وهو الجزء الأساسي الأول والأهم من علم الصرف ، ثم يتوغل في معرفة المسائل الأخرى من هذا الفن ، ويتلقى بعد ذلك علم النحو في سلسلة من الكتب المعقدة التي قلما يتعاطاها أو يرجع إليها غير الأكراد ، وآخر ما ينبغي أن يقرأه الطالب من هذه السلسلة كتاب الجامي[1] على الكافية لابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

أما علوم الشريعة الإسلامية فيهتمون منها بالعقائد ، وآخر ما يدرسونه فيها كتاب العقائد النسفية ، ثم بالتفسير ، وأجلّ ما يهتمون به من كتبه ، تفسير القاضي البيضاوي[2] يلي ذلك علم الفقه ، والمعتمد الأول لديهم هو الإمام المحقق ابن حجر الهيتمي[3] ، وكتابه تحفة المحتاج في شرح المنهاج للإمام النووي يعدّ الغاية التي تنتهي عندها رحلة الطلاب في هذا الفن . أما أصول الفقه فمرجعهم فيه ، شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لابن السبكي أما ما وراء ذلك من علوم الحديث ومصطلحه ، والسيرة ، وعلوم القرآن ، والفقه المقارن ، والتصوف والأدب ، فقلما يحفلون بشيء منه . بل إن بضاعة أكثر علمائهم في الحديث وعلومه والسيرة مزجاة أو معدومة .

ويرجع سبب اهتمامهم بعلوم الآلة أكثر من غيرها ، إلى شعورهم بعائق العجمة ، ولا يتغلب على هذا العائق في قناعتهم إلا البدء بعلوم العربية ، لاسيا علم الصرف ،

---

(١) هو نور الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي المتوفى سنة ٨٩٨هـ المعروف بملاجامي .

(٢) هو القاضي عبد الله بن عمر البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ .

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر المكي المتوفى ٩٧٤ هـ .

الذي يتضمن ما يعدّ في نظرهم مفتاح النطق بالعربية ، ألا وهو تصريف الأفعال .. ولا شك أن فن المعاني والبيان والبديع ، يعد من مكملات القضاء على عائق العجمة . أما المنطق وعلم المناظرة والوضع ، فمرد اهتمامهم بها أن الكتب المرغوبة لديهم في علوم العقائد والتفسير مشبعة بالبراهين المنطقية وأساليب علم المناظرة والوضع .

وقد كان من المفروض أن يلازم أبي هذا النهج ذاته ، فيجعل اهتمامه الأكبر بعلوم الآلة ، ويكتفي من علوم الشريعة بذلك النهج التقليدي المحصور في دراسة كتاب واحد من كل علم . غير أنه مالبث ـ بعد أن درس علوم الآلة من مصادرها المعتمدة ـ أن خرج على ذلك النهج التقليدي المتبع .

لقد قال لي أكثر من مرة ، عندما كان يذكر لي أيام طلبه العلم ، ورحلته إلى الشيوخ لأخذ العلم عنهم : كان جلّ الطلبة يهتمون من علوم الشريعة بشقاشقها ، وكان أكبر اهتمامهم التفاخر على الأقران في حلّ عقد المسائل وفكّ الألغاز المستعصية ! .. غير أن اهتمامي كان منصرفاً بالإضافة إلى حفظ المتون المعتمدة ودراسة الكتب المقررة ، إلى غير ذلك أيضاً .. كان جل اهتمامي منصرفاً إلى ترتيل القرآن وتجويد تلاوته ، وكنت أمني نفسي بحفظه غيباً وبدأت أحفظه فعلاً في سنّ مبكرة . وكنت أهتم من علم الفقه بعباداته وأحكامه التي تخصني في سلوكي .. وكانت تستهويني كتب التصوف ، وكان كتاب إحياء علوم الدين للغزالي من أوائل الكتب التي اقتنيتها وعكفت على قراءتها ، كما كنت شغوفاً بدراسة السيرة النبوية .. وتنامت لديّ الرغبة في الإكثار من نوافل الطاعات والعبادات . وكانت أمنيةً كبيرة لي أن أقتني ساعة ، كي أستعين بها في القيام إلى صلاة الليل ، ولما تحققت لي هذه الأمنية كان فرحي بذلك لا يعدله شيء !..

قال : وكان أكثر الطلبة يسخرون من شأني هذا ، وينسبونني إلى التقعر والتكلف وربما إلى تقليد كبار الشيوخ . وربما اعتبروا انصرافي إلى هذا النهج نتيجة عجز عن مجاراتهم في حفظ المتون والتوغل معهم في تحقيق المسائل العلمية وحلّ المعضلات والرموز .

ويقول أبي : الحق أنني كنت أنفق كثيراً من وقتي في تلاوة القرآن وحفظ الأذكار والأوراد ونوافل العبادات وقيام الليل بالإضافة إلى واجباتي الأخرى ، بينما كان الطلبة يصرفون أوقاتهم كلها إلى حفظ المتون وإعداد الدروس أو تكرارها .. ولقد كان مقتضى ذلك أن أتخلف عنهم في الملكة العلمية وحفظ المسائل والأحكام .. ويقول : أعتقد أنني بقيت إلى مدة من الزمن كذلك فعلاً ، لقد كنت في نظر كل من الشيوخ والطلاب محدود الملكة والقدرات .. وذات يوم أقبل إلينا الشيخ[1] يسألنا ويمتحننا واحداً إثر آخر ، ولما انتهى إليّ ووجه إليّ ما شاء من الأسئلة عن معضلات النصوص ، ألهمني الله السداد في الإجابة ، فنظر إليّ قائلاً : الحق أنك لم تكن عالماً ، ولكن الله قال لك كن عالماً ، فكنت !..

لقد حدثني أبي عن شأنه هذا في طلب العلم أكثر من مرة ، ليضعني من ذلك أمام معنى قول الله عزّ وجل ﴿ وَٱتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ .. ﴾ [البقرة : ٢٨٢/٢] وليحذرني من الهبوط بطلب العلوم الشرعية إلى مستوى الاحتراف ، كما هو شأن كثير من طلاب العلم اليوم . وكم كان يكرر قائلاً : كانت ليلة الجمعة هي ليلة الراحة من عناء الدراسة طوال الأسبوع ، إذ كانت تطل على يوم الجمعة الذي هو يوم إجازة وراحة ، فكان الطلاب يسهرون تلك الليلة ويمضونها باللعب والرقص والأهازيج ، حتى إذا نال منهم التعب استسلموا لرقاد ثقيل فوّت عليهم صلاة الصبح ، وظلوا في رقادهم إلى وقت متأخر بعد طلوع الشمس .. كان يقول هذا ، مبدياً أسفه المرير من أن ينفق طلاب الشريعة أفضل ليالي الأسبوع في اللعب واللهو ثم لا يبالوا أن تفوتهم صلاة صبح الجمعة في ميقاتها !..

(١) لقد سمى والدي شيخه هذا ، ولكني نسيت اسمه وياللأسف .

مرض عضال .. ورؤية عجيبة :

أصيب أبي رحمه الله خلال هذه المرحلة من حياته بمرض عضال أودى به إلى شفير الموت ، وأغلب الظن أنه كان مرض الجدري . ولم أعد أذكر في أي سنة من عمره فاجأه هذا المرض ، ولكني على يقين أنه لم يكن آنذاك ناهز العشرين .

يقول أبي رحمه الله : لقد رأيت ملك الموت بعيني رأسي ، خلال شدة هذا المرض !..

وها أنا أروي عن لسانه الخبر العجيب الذي حدثنا به أكثر من مرة ، وسمعه من فمه عدد من الإخوة والأصدقاء الذين كانوا يغشون مجلسه بين الحين والآخر .

قال رحمه الله : « اشتدّ بي المرض حتى يئس الأهل من شفائي ، وبينما أنا في الفراش وحولي ثلّة من الأقارب والعائدين ، إذا برجل مهيب يدخل الغرفة ووراءه شخص آخر يبدو كأنه معين أو خادم له ، فحاولت أن أقوم إليه لأقبل يده معتقداً صلاحه وفضله ، ولكنه رجع قائلاً : ليس لنا غرض بك ، وإنما جئنا نطلب جاركم ياسين[1] ولما غاب عن عيني ، نظر إليّ الجالسون قائلين : ما الذي دهاك ، وما الذي حملك على ما صنعت من تقبيل الأرض ؟.. فقلت : إنني لم أقبل الأرض ، ولكني حاولت أن أقبل يد الشيخ الذي دخل علينا ، غير أنه رجع قائلاً إنه يريد ياسين . فصاحوا قائلين : لقد مات ياسين الآن ، وها هي ذي أصوات البكاء ترتفع من الدار »!..

قال والدي : « ثم إن الشيخ المهيب عاد إليّ ثانية ، ومعه الشخص الآخر يحمل على كتفه شيئاً يشبه جلد حيوان ، واتجه إليّ هذه المرة وأمسك بي بقبضة يده ، فداخلني رعب كبير وصحت مستنجداً بأبي . ونظرت ، فإذا بأبي يجذبني إليه ليمنعني

(١) كان شاباً يعاني هو الآخر من مرض عضال ، وكانت داره مجاورة للدار التي كان فيها والدي .

منه .. ثم إن الشخصين غابا ، ونظرت فإذا بالناس الـذين من حولي في هلع من أمري . وقال لي أحدهم : فما الذي عراك الآن ؟ فحدثتهم بما رأيت .. وعلمت عندئذ أن والـدي لما سمع صياحي ورأى هلعي ، نذر قائلاً : « لئن شفى الله ولدي هذا ، لأتصدقن بكـذا رأس من الأغنام » . وقد أكرمه الله ، فشفاه من ذلك المرض الوبيل .

فأذكر أنني سألته عندما قصّ عليّ هذا الخبر لأول مرة : إن مجيء ملك الموت دليل على حلول الأجل ، وإذا جاء الأجل ، لم ينفع لتأخيره نذر ولا دعاء !..

فقـال لي : إن الأجل الثـابت في علم الله لم يكن قـد حـان بعـد ، ولكن لعـل الله جعل في مجيء ملـك الموت إليّ وظهوره أمـام عيني سببـاً لترسيخ معنى الموت في نفسي ، وباعثاً لحوافز الاستعداد له في كل سـاعـة من حيـاتي . ثم قـال : والأجل أجلان ، أجلٌ مبرم وأجلٌ معلق . أما المبرم فلا يعلمه إلا الله ، وأما المعلق فعرضة للتبدل والتغير لما قد يشاؤه الله من الأسباب . وهو مما يمكن أن يطلع الله عليه الخواصّ من عباده .

اشتراكه في الحرب العالمية الأولى

زواجه وحجه إلى البيت الحرام

الحرب العالمية الأولى واشتراكه فيها :

عندما قامت الحرب العالمية الأولى عـام ١٩١٤ ، كان قـد عـاد أبي من رحلـة طلب العلم ، واستقر به المقام في مسقط رأسه ، قريـة جيلكا ، إمـامـاً في مسجـدهـا ومـدرسـاً لطلاب العلوم الشرعية في المدرسة التابعة له .

أخـذ يفكر طـويـلاً في تلـك الحرب التي اشتعـل أوارهـا ، والتي كانت تهـدف إلى القضاء على الخلافة الإسلامية التي كانت تلفظ أنفـاسهـا الأخيرة .. ونظر فرأى أنهـا على تشعّبها وتعدد الأخطاء فيهـا ، إنمـا يتجـه الخطر الأكبر فيهـا إلى العـالم الإسلامي ، من جهة روسيا التي كانت تهدف إلى التهام أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية ، ومدّ سلطان الحكم القيصري عليها .. فتأكد له من ذلك أن المسلمين يواجهون في شتى أقطارهم ، تلك الحالة التي تستوجب النفير العام للذود عن حمى الإسلام وبلاد المسلمين .

وما لبث أن تطوع مجاهداً في تلك الحرب ، وكان عليه أن يتكلف معظم نفقاتها .. وبعـد تـدريب سطحي سريع في بعض المعسكرات القريبـة ، تم الاتجـاه بمجموعتـه إلى جهات من حدود روسيا مما يلي (وان) و (بتليس) ومناطق البحر الأسود .

كان اشتراكه في تلك الحرب تجربة فاشلة وقاسية ، فيما كان يحدثنا به .

قال لي : كنت أظن أنني بخروجي إلى تلك الحرب ، أحقق عملاً جهـاديـاً يؤجرني الله عليـه ، ولكني رأيتني أتعرض بـدلاً عن ذلـك لتقصير في أهم الـواجبـات وأصـول العبادات . كان الضابط المسؤول عنا يضيق ذرعاً بقيامي إلى الصلاة ، وحـاول أكثر من

مرة أن يمنعني من القيام بهذا الركن الأساسي في الدين . مما اضطرني أن أقول له : إنني لست جندياً موظفاً في معسكرك ، إنني متطوع للقيام بواجبي الجهادي هذا ، ومتحمل تكاليف ذلك ، دون أي منّة منكم ، ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، فبأي حق تمنعني من أن أؤدي أوامر الله الذي لم أشترك معكم في المجيء إلى هذا المكان إلا لمرضاته ؟!

ويصف أخلاق كثير من الجنود والضباط ، بالابتعاد عن الاستقامة والانهماك في المعاصي ، وربما الفواحش .. يقول : وربما سألت أحدهم عن اسم رسوله المرسل من قبل الله إليه ، فلا يعلم !..

لست أدري المدة التي أمضاها متطوعاً في تلك الحرب ، ولكنّ الذي أعلم أنه مُنِيَ من تلك الحرب بخيبة أمل مريرة ، وأيقن أن مصير الخلافة الإسلامية إلى زوال ؛ ذلك لأن العناوين الكبيرة لم تكن يوماً لتشكل حصوناً للأمة بدلاً من الاستقامة على الرشد والتحلي بمكارم الأخلاق .

أما القسوة التي عاناها في تلك الحرب ، فيقول والدي رحمه الله : كان توجهنا إلى وان وبتليس في قُرّ الشتاء ، ولم يكن الجيش يمدّنا بأغطية كافية ، حتى ولا غير كافية ، للتوقي من شدة البرد والصقيع المتجمد من تراكم الثلوج ، لقد كان عليّ أن أعتمد على ردائي الثقيل وحده في الليل والنهار ، وربما اضطررت أحياناً إلى أن أعيره لغيري من ذوي الضرورات الأشد . فأبقى دون رداء ولا غطاء ... ويقول رحمه الله : إن روماتيزم الأعصاب الذي لا أزال أعاني منه منذ أمد طويل ، إنما اهتاجت أسبابه لديّ منذ تلك الأيام التي كان يلفحني فيها برد قارس شديد ، وسط الثلوج التي كانت تغوص فيها قدماي لمدى ساعات طويلة أثناء المسير .

الانتقال إلى الحياة الزوجية :

لست أدري أكان زواج أبي قبل خروجه مشتركاً في هذه الحرب ، أم كان بعد عودته منها .

المهم أنه في هذه الفترة تحول من العزوبة إلى الحياة الزوجية ، وخطب فتاة من قريباته ، هي والدتي التي اسمها مَنْجِى . ولست أعلم إلا النزر القليل من أخبار خطبته وزواجه . ولكن أمّي كانت تحدثني عن مظهره وأناقته في شبابه ، ويبدو أن من أهم ما كان يزيدها إعجاباً به ، أيام الخطبة ، اهتماماته الدينية المتميزة . فلقد كانت مصدر رضاً وغبطة لها .. كانت ترمقه بإعجاب ، وهو يجلس طويلاً أمام ما يشبه متنزهاً مجاوراً للدار ، يتلو القرآن ويكرر محفوظاته منه .

وعلى كل فإن الحياة الزوجية لم تصفُ لهما عن الشوائب ، فقد كان رحمه الله منصرفاً بجلّ اهتماماته إلى العلم ودروسه ورعاية حال الطلاب . وقد كنت أوضحت أن نظام التدريس عند الأكراد يقوم على الحلقات الكثيرة المتوالية ، التي يتعاقب عليها الجماعات من الطلاب ، وربما لم يكن في الحلقة الواحدة إلا طالب واحد .

لعل من أهم الأمور التي شغلت بال والدي وأزعج أمي ، أنه لم يكن يعيش لهما طفل . فما يرزقان طفلاً حتى يتخطفه الموت منهما بعد حين . ولما ولد لهما آخر طفل - لا أدري بعد كم سنة من الزواج - وهو كاتب هذه الأسطر ، حمله أبي ومضى به إلى واحد من شيوخه ، كان كثير الإجلال له والاعتقاد بصلاحه ، وهو الشيخ سعيد المشهور بلقب : شيخ سيدا . ويبدو أنه دعا لي وحنكني ، وطلب من أبي أن أكون سميّه ، فسماني محمد سعيد وكانت رغبته أن يسميني : محمد فضيل .

رحلة الحج إلى البيت الحرام :

لم تكد تمرّ سنة على ولادتي حتى اهتاج بين جوانح أبي الشوق إلى الحج وزيارة سيدنا رسول الله ﷺ . فأخذ يعدّ لذلك العدّة مبكراً .. ورحلة الحج من جزيرة بوطان ذهاباً وإياباً كانت تستنفد ما لا يقلّ عن خمسة أشهر ، يقطعها الحاج بالبحر وعلى ظهور الجمال .

وتحققت رغبة والدي في أداء مناسك الحج إلى بيت الله الحرام في ذلك العام ، على الرغم من رجاء والدتي واستعطافها إياه ، أن يبقى إلى جانبها في تلك الفترة ، وأن لا يتركها للأقدار الخفية تجاه مصير ولدها الوحيد ، والحديث العهد بالولادة .

ويبدو أنها كانت رحلة شاقة جداً ، ومن جملة المشاق التي عانى الوالد منها ، أن الجمّال الذي اتفق معه على أن يحمله إلى مكة ، وأعطاه المبلغ الذي اشترطه لذلك سلفاً ، هرب بجمله منه قبل الوصول إلى مكة بمسافة طويلة ، فاضطر إلى أن يقطع معظم تلك المسافة ماشياً !... غير أن أبي عندما كان يروي لنا هذا الخبر ، يعبر عن رضاه وسعادته بما قد تم ، إذ كان من أمنياته التي يحلم بها أن يدخل الحرم المكي إلى بيت الله الحرام راجلاً . فكان يقول : إن الله تعالى أكرمني بما كنت أحلم به دون اختيار مني ولا تخطيط له .

وخلال أداء أبي لمناسك الحج ، أو بعده ـ لم أعد أذكر ـ رأى في المنام أن طفله الصغير الذي لا يزيد عمره على العام الواحد قد مات !.. ولما استيقظ ، نالت منه هذه الرؤيا منالاً كبيراً ، وخيل إليه أنها رؤيا صادقة ، وأن عادية الموت قد أدركت هذا الطفل كما أدركت إخوته من قبل . وأهمه الأمر وأحزنه .. فجال بخاطره أن يهجر وطنه الذي أتى منه ، وأن يترك الزوجة والأهل ، وأن يقيم مجاوراً في مكة أو المدينة . والذي فهمته من أبي رحمه الله أن هذا الخاطر كاد أن يتحول إلى عزم وقرار . ولكن الله عز وجل أنقذه من وساوس رؤياه ، وعدل عن الخاطر الذي كاد أن يهيمن على نفسه ، فأتم حجه وزيارته واتجه عائداً إلى الوطن . وفي الطريق ضاعت أمتعته كلها بما فيها الهدايا التي اصطحبها معه إلى الأقارب والأصحاب ، فقد أُلْقِيَ بها خطأ في سفينة أخرى كانت تبحر إلى الهند .

ووصل أبي عائداً إلى قرية جيلكا ليرى أن طفله بخير ، وأن كل شيء على ما يرام ، ولكنه عاد لا يحمل بيديه ، بعد غياب خمسة أشهر ، إلى الأهل والأقربين شيئاً !..

المرض الذي حمله على تأليف كتاب :

لم يكد يستقر به المقام ، مستريحاً من وعثاء السفر وعناء الرحلة الشاقة ، حتى وقع في براثن مرض شديد ألمّ به وأقعده في الفراش مدة طويلة من الزمن .

وكان الهم الكبير الذي يتقلب فيه أثناء مرضه ، خوفه من أن يتخطفه الموت ، ويبقى طفله الصغير هذا من ورائه ، ينشأ في تلك القرية التي تفيض بالجهل والبعد عن ضوابط الدين والأخلاق ، فقيراً إلى من يربيه ويعلمه ويهذبه .

ولمّا أبلّ من مرضه وعادت إليه العافية ، كان هدفه الأكبر وهمه الأول أن يفرغ من كتابة مجموع ما يريد أن يوجهه إلى ابنه الصغير من النصائح والوصايا التي يجب أن يأخذ بها نفسه إذا فتح عينيه على الدنيا وبدأ يتعامل مع الحياة . وذلك خوفاً من أن يعاوده المرض ثم لا يُفْلتُ منه هذه المرة .. لقد كان يرى أنه إن توفر على كتابة المبادئ التربوية التي كان يحلم أن ينشئ ابنه الوحيد هذا عليها ، فلسوف يكون له من ذلك عزاء ، إن استبدّ به الأجل وحيل بينه وبين أن يرعى ابنه شيئاً فشيئاً على أساسها .

. ولقد عكف والدي فعلاً ـ كما حدثني فيما بعد ـ على كتابة وصاياه ونصائحه التربوية التي راح يخاطب بها طفله الصغير الذي لم يكن يعي آنذاك شيئاً .. أملاً في أن يراها أمامه عندما يكبر إذا لم ير أمامه أباه ، فيقرأها فيتأثر ويأخذ نفسه بها .. ولقد أنجز بحمد الله هذا العمل ، فسجل كل ما كان يحرص أن يقوله لابنه ، آمراً ومرغباً ومحذراً وناصحاً ، في كتيب كتبه بخط يده . ثم إن الله عز وجل تفضل أيضاً فأبقاه لابنه ذاك حتى كبر وبلغ الرشد ، وقصّ عليه أبوه قصة مرضه الذي دفعه إلى كتابة وصاياه تلك ، وجلس الولد يتلقى من أبيه ما كان قد كتبه له بخط يده ، ثم يتلقى معه مزيداً من الشرح والتفصيل والبيان .

ثم إن أبي رحمه الله ، زاد على تلك النصائح والوصايا التي كانت خاصة بي ، ما يقارب مثلها ، وصاغها نصائح عامة خاطب بها الناس عموماً ، وقد طبعت في كتيب من بعد . ولعلها تطبع من جديد طباعة متميزة حديثة .

التوجه العارم إلى العبادة والتبتل :

علمت مما أخبرتني به أمي ، من بعد ، أن رحلة الحج التي خاض أبي غمارها ، هيجت مزيداً من مشاعر الهيبة والتعظيم بين جوانحه لله عز وجل ، وزادته توجهاً إلى التبتل بين يدي الله ، وإقبالاً إلى ذكر الله وتلاوة القرآن ، بالإضافة إلى ما ظل مثابراً عليه من دروس العلم ورعاية الطلاب .

ولقد حدثتني عن بعض خلواته الطويلة التي كان يتجرد فيها لما قد ينتابه من أحوال عجيبة مع الله عز وجل . كما أخبرتني عن الفزع الذي انتابها ذات يوم عندما خرج من الدار لا يكلم أحداً ولا يلوي على شيء ، وقد ألمت به حال لم تشهدها فيه من قبل ، وأتْبعته بصرها لتنظر أين يريد ، وإذا هو يسرع متجهاً إلى شعاب تلك الجبال . فما كان منها إلا أن أرسلت إلى الطلبة في المسجد أن يسرعوا فيلحقوا شيخهم الذي ألمت به حالة أشبه بالجنون !..

ولقد سألت أبي عن حقيقة هذه القصة ، فضحك قائلاً : أجل ، فإن أمّك أبت إلا أن تشيع عني أني قد جننت !.. وقال : إن الأمر لم يكن أكثر من أن حالاً من الشعور ببعض صفات الله تعالى ملأت جوانب نفسي نشوة وطرباً ، وخشيت أن يشغلني عن ذلك أو يعكر عليّ صفو تلك النشوة شيء من حديث الدنيا ومشاغل الأهل والأولاد ، فخرجت بعيداً عن تلك العوائق والمشاغل ، لأستبقي لديّ تلك الحال أطول مدة ممكنة . فكان أن اتُّهمتُ ، بسبب ذلك ، بالجنون !..

وإني لأستطيع الآن أن أسترجع إلى مخيلتي صورة أربعة جدران خربة دون سقف ، لبناء قديم ، بقيت منها أطلال ، كانت وسط أرض عراء لا تحيط بها أي أبنية . كان أبي يصحبني معه إليها في بعض الأحيان ، وكان يتركني ألهو من حوله بينما ينهمك هو في تلاوة القرآن جالساً فوق بساط صغير على تلك الأرض البلقع داخل تلك الجدران .. ولم أكن بحيث أدرك شيئاً عن الحالات التي تنتابه في خلوته تلك ، فقد

كنتُ - كما علمتُ من بعد - بين الثانية والثالثة من العمر .. غير أن الذي كان يلفت نظري ، فيما أذكر ، ساعة الجيب التي كان يعود فينظر إليها ، يسترجع فيها الوقت بين الحين والآخر . لقد رأيته مرة يدير مفتاحها اللولبي ليملأها من جديد ، فسألته عما يفعل ، فقال لي : إنها جائعة ، وإن عليه أن يقدم لها عشاءها بهذا الشكل . ولقد استقر في ذهني هذا الجواب إلى هذا اليوم ، دون أن أدرك حينئذ شيئاً من معناه !..

وإني لأتساءل الآن : ما هي نقطة التحول في حياة والدي رحمه الله إلى الانغماس في شفافية شعورية عالية لم يكن له بها عهد من قبل ؟ على أنه كان منذ أيام الدراسة والطلاب متميزاً عن سائر الطلبة بركونه إلى العبادات وميله إلى الرقائق ودراسة التصوف واهتمامه بحفظ القرآن ، كما سبق أن أوضحت . غير أن حالات غريبة من نشوة الحضور مع الله كانت تعروه بين الحين والآخر ، لم تظهر في حياته إلا بعد رجوعه من الحج ، فيما أحسب أو أذكر .

فهل كان حجه هو نقطة هذا التحول لديه ؟

لعل الجواب الدقيق عن هذا التساؤل ، ينبثق من الخبر الذي قصّه علي والدي أكثر من مرة .

قال : كنت أدرّس أحد الطلاب ذات يوم . وفجأة انتابتني حالة ، هي الأولى في حياتي من نوعها ، أفقدتني القدرة على متابعة الدرس . بل على النطق والكلام ، وبعد قليل شعرت بأن شيئاً كالماء البارد انسكب في داخل قلبي . ومنذ ذلك اليوم أصبحت عرضة لوهج رباني ينتاب مشاعري ويؤثر على قلبي بين الحين والآخر . وربما أعقب ذلك ألم أو مرض يلزمني الفراش بضعة أيام .

أقول : وقد كان هذا المرض الخفي يعاوده فعلاً بين الحين والآخر ، ولا سيما عندما تعتريه اضطرابات شعورية من جراء خشية بالغة أو خشوع يهيمن على كيانه . وأذكر

أنه راجع بعض الأطباء ، بعد استقراره في دمشق ، فأنبأه أن لا علاج لمرضه الذي لم يستطع أن يتبينه أو يذكر له اسمه ، إلا الحمية القاسية من أكثر أنواع الأطعمة ، وأكد له مع ذلك أنه سيصحبه إلى الموت[١] !..

والواقع أن والدي عوفي من هذا المرض الذي كان يعاوده بين حين وآخر ، قبل وفاته بما لا يقل عن ثلاثين عاماً ، دون أن تفارقه الحالات الشعورية التي كانت تبدو وكأنها السبب الذي يهيج فيه ذلك المرض . وهكذا فقد أقام ذلك المرض الخفي في كيانه مدة طويلة من الزمن دون معرفة السبب ، ثم فارقه إلى غير رجعة دون معرفة السبب أيضاً .

(١) هو طبيب كردي اسمه الدكتور نافذ .

الهجرة إلى الشام

أسباب الهجرة :

كان بين الطلاب الذين يدرسون على أبي رحمه الله ، شاب صالح اسمه (ملا يوسف) جاء ذات يوم يخبر والدي ـ والتأثر الشديد إلى درجة البكاء باد على وجهه ـ أنه رأى رسول الله ﷺ في الرؤيا ، يقول له : إذهب وقل لشيخك أن يأتي ويلحق بي . قال فأخبرتك ، ورأيتك تمضي معه إلى حيث لا أعلم . وقد حاولت جاهداً أن ألحق بكما فلم أتمكن ، وبقيت وحدي حيث أنا .

لست أدري أكانت هذه الرؤيا ـ وهي ذات دلالة واضحة ـ هي التي نبهت أبي إلى فكرة الهجرة ، وهيجت في نفسه عوامل الرغبة في أن يترك وطنه ذاك إلى غير رجعة .

مهما يكن فإن أسباباً كثيرة أخرى كرّهت إليه الإقامة في تلك الديار .

من أهمها سلسلة الإساءات المتعمدة الحاقدة التي وجهها أتاتورك إلى الإسلام ، وابتغى من ورائها تجفيف ينابيع الإسلام ثم القضاء عليه كلياً في آخر دار للخلافة الإسلامية . ومن المعلوم أنها بدأت بالقضاء على الخلافة الإسلامية ، ثم إلغاء الأذان باللغة العربية ، ثم استبدال الأحرف اللاتينية بالأحرف العربية ، ثم منع تلاوة القرآن في الأماكن العامة عموماً ، وإحلال القرآن المترجم إلى اللغة التركية محله ، ثم إجبار الرجال على لبس القبعة الغربية ، وإجبار النساء على رفع كل من النقاب والحجاب .

ومن المعلوم أن هذه السلسلة من التخريبات الخطيرة ، التي التزم بها أتاتورك في معاهدة لوزان تجاه بريطانيا ، تم إنجازها خلال أقل من أربع سنوات ، فلم يدخل عام ١٩٣٤ إلا وكانت مدن تركيا وقراها ترزح تحت وطأة هذا العدوان على الإسلام .

كانت قرية جيلكا المزدانة بمسجدها والعدد الكبير من طلاب العلم فيها ، لا بدّ أن تنغمس بظلام الكآبة وسواد الحزن ، فجأة ، بين كل فترة وأخرى . وذلك عندما تغشاها على حين غرة دوريات كثيفة من الجنود والشرطة الأتراك ، جاؤوا مدججين بالأسلحة متهيئين للقتال .

يجب حينئذ اختفاء أصوات المؤذنين بالأذان العربي المشروع ، ويجب خلوّ المساجد من المصاحف وسائر الكتب العربية والدينية ، ويجب تفرق الطلاب كل إلى داره أو قريته . وعلى الرجال جميعاً أن يذلّوا رؤوسهم للقبعة الغربية ، فلا عمامة ولا قلنسوة .

كان هؤلاء الجنود يحتلون ما يشاؤون من البيوت ليقيموا فيها مدة بقائهم في القرية وكانوا يتعقبون المخالفين للتعليمات بأشرس أنواع العقوبات الكيفية .

فكيف تتصور أن يكون مقام والدي في هذا الجو ، وسط هذا القتام الذي يبدو السواد إلى جانبه ضياء ساطعاً ؟!..

كان كثيراً ما يعتصم بالمسجد الذي يصلي ويدرس فيه ، بعد أن يأمر الطلبة فيطووا كل ما فرش على أرضه من بسط وحصر ، إذ كان دأب العسكر أن يقتحموا المسجد بأحذيتهم !.. كان ينتحي جانباً من المسجد ، ثم يمضي منهمكاً في تلاوة القرآن ، أو فصول من دلائل الخيرات ، غير ملتفت إلى يمين أو شمال ، وغير عابئ بأي حديث أو صوت يسمعه .. وربما عكف في المنزل فلم يخرج منه حتى تنجاب الغاشية وتزول المحنة .

هذا هو السبب الرئيس الأول الذي كرّه إلى أبي ـ فيما أعتقد ـ البقاء في تلك البلاد .

على أن هنالك أسباباً أخرى ، فقد كانت الجهالة متفشية في القرية ، وكانت الأهواء تتحكم برؤوس كثير من رجالها وأولي النفوذ فيها ، فكان ذلك يدفعهم إلى خدمة رجال أتاتورك ، وإطلاعهم على كل ما يريدون التوصل إليه أو إلى معرفته من شؤون

القرية وأحوالها وأنشطة المتدينين فيها . ولقد حدثني أبي رحمه الله عن واحد من هؤلاء المتنفذين ، كان يلقب بالآغا . وكان كثير التكبر شديد الاعتداد بنفسه ، وقد بلغ به الاعتداد بالذات أنه كان يترك قلنسوته (طاقيته) تميل بطرفها إلى عينيه وقد سترت جبينه كله ، فكان يرسل نظره إلى الناس من خلال قلنسوته المائلة على عينيه في تعاظم عجيب . قال رحمه الله : فرآني ذات يوم وكان جالساً على هذه الهيئة من التجبر والتعاظم ، فناداني قائلاً : فقيه .. فقيه[1] .. أعطني كأساً من الماء . فقلت له : الماء أمامك وبوسعك أن تقوم فتشرب !.. فغضب قائلاً : حسناً ، سأجعل منك هدفاً لنيران البندقيات .. قال أبي : ولم يطل به الأجل من بعد ، فقد وقصته دابته بقدمها فأردته قتيلاً .

ثم إن من عادات أهل تلك القرية ، ككثير من القرى الأخرى ، أن تخرج النساء إلى ظاهر القرية لحمل الماء إلى الدار ، وأن يخرجن في أيام محددة إلى الأنهر أو ينابيع المياه فيغسلن الثياب ثم يتغسّلن ، ويمضين في ذلك نهاراً كاملاً امتزج فيه الجد بالعبث ، والعمل المجهد باللهو الصاخب .. ولا يخلو المكان من شباب يمرون به أو يراقبونهن من قريب أو بعيد .

لقد كان أبي رحمه الله شديد الكراهية والمقاومة لهذه العادات وأمثالها ، ومع ذلك فلم يستطع أكثر من أن يلزم زوجته بما يريد ، وَضَعَ بين يديها خادماً تغنيها عن الاندماج في تلك العادات . وكفاها مؤونة أي عمل قد يضطرها إلى سلوك لا يتفق مع آداب الشرع .

ومن أهم الأسباب التي حدثني عنها ، أن بعض شيوخ الطرق الصوفية ، الذين كانوا يعرفون أبي كفقيه شاب ، وكانت لهم صولة وشهرة في جزيرة بوطان ، كانوا يرسلون

---

(١) هي منادى ، أي يافقيه ، ولفظها بالكردية : فَقَه ، وتستعمل على ألسنة كثير من الناس للازدراء والتحقير .

إليه من قراهم القريبة والبعيدة ، يكلفونه أن يجمع لهم من مريديهم الذين من حوله ، ما يحتاجون إليه من حطب للوقود في موسم الشتاء ، ثم أن يبعث به إليهم بالوسائل الممكنة . ولم يكن بوسع أبي - وهو في وضعه ذاك - إلا أن يتأدب معهم ويستجيب لهم . قال : فكنت أشتري حاجتهم من الحطب بمالي الخاص ثم أرسله على دواب إليهم ، دون أن أعلمهم بشيء !..

التشاور ، والمعاهدة :

قال أبي : لما فكرت في الهجرة ، ساورتني من ذلك مخاوف كثيرة . فليس يسيراً أن يقتلع الإنسان نفسه من وطنه وينهي سائر علاقاته به إلى غير رجعة .. وبينا كنت أتلو القرآن ذات يوم ، وصلت إلى آية استوقفتني كثيراً ، وبددت سائر المخاوف التي كانت تساورني ، وزادتني رغبة في الهجرة من وطني ذاك في أسرع وقت ممكن ، وهي قوله الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [النساء : ٤/١٠٠] .

فلقد رأيتني من هذه الآية ، إن هاجرت ، أمام إحدى نتيجتين لا ثالثة لهما ، كلاهما مغنم وخير وسعادة . وعزمت عندئذ على إعداد العدّة للهجرة ، بنفس راضية مطمئنة .

قال : وأخبرت أمك بما قد عزمت عليه ، واستشرتها في ذلك ، فكان من توفيق الله أن شرح صدرها على خلاف ما كنت أتوقع ، وأخذت تستعجلني في التنفيذ .

قلت لها : الأمر أصعب مما تتصورين ، يجب أن تفترضي أننا قد نقع بين براثن العدم والفقر ، وأن كل نعمة مما نتمتع به هنا قد تتحول إلى حرمان ، لذا فلن أكتفي بموافقتك هذه حتى تعطيني العهود والمواثيق بأنك ستظلين راضية صابرة ، ولن تواجهيني بأي ضجر أو ندامة .

قالت لي : إن الله يرزق الفاسق والكافر ، أفلا يرزقك أنت ؟

قلت لها : قد يبتلينا الله بما شاء من المصائب ، ولا ضمانة لما تقولين .. وعلينا أن نفرض أسوأ الاحتمالات .

وتعاهدنا وتواثقنا على الهجرة إلى الشام ، أي إلى دمشق[1] ، راضين ومستعدين لقبول كل ما قد يواجهنا من خير وشر .

ولكن لماذا إلى الشام ، لا إلى غيرها كالحجاز مثلاً ؟

لم يخطر ببالي أن أسأل أبي رحمه الله هذا السؤال ، ولكن أعتقد أنني تبينت الجواب فيما بعد . فالذي أعرفه أنه رحمه الله كان يُجلّ الشام . وينعتها بالأرض المقدسة . وكان يحفظ أحاديث كثيرة في فضل الشام ، قد يكون فيها أحاديث ضعيفة ، ولكن فيها الصحيح أيضاً . ولعل من أصحها ما قد رواه أحمد والحاكم في مستدركه وصحّحه ، وأقرّه الذهبي ، من حديث أبي الدرداء في فضل دمشق وغوطتها بالذات . ولفظه : « فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى ، بأرض يقال لها الغوطة ، وفيها مدينة يقال لها دمشق ، خير منازل المسلمين يومئذ » .

وكان يرى أن التردد إلى الحجاز ، زائراً ومعتمراً ، خير من الاستيطان والمجاورة ، في مكة أو المدينة . إذ إن طول المقام من شأنه أن يُنسّي ضوابط الأدب والالتزام .

ولقد تجلت لي حقيقة تعلق أبي بالشام ، وبدمشق منها بالذات ، ومدى حبه لها ، فيما بعد ، يوم زاره ثلة من علماء هذه البلدة وشبابها ، في أوائل الثمانينات ، أثناء فتنة الإخوان ، فقد قال له أحدهم : بلغنا أنكم تفكرون في الهجرة إلى المدينة المنورة . فأجابه قائلاً : إن تعلقي بالشام كتعلق الصخرة الراسخة في تخوم جبل ، لا أتحرك عنها إلا اقتلاعاً .

---

(١) الأعاجم ، إذا أطلقوا كلمة الشام أرادوا بها في أكثر الأحيان دمشق . فكأن دمشق عندهم لباب الشام ، فلا تنصرف الكلمة عند الإطلاق إلا إليها .

سيراً إلى الله بغير زاد :

كان لأبي بستان وحديقة صغيرة .. هذا ماأذكره ، ولا أدري ما الذي كان يملك من البيوت . المهم أنه رحمه الله نفض يديه من ذلك كله وتركه لإخوته وأقاربه من بعده ، وتجهز للرحيل سراً ، ولم يكن جهازه إلا ثماني ليرات ذهبية ، إن صح حفظي ولم تخنّي الذاكرة .

كان على أبي أن يجتاز بأهله نهر دجلة إلى الحدود التركية السورية ، في ظلام الليل خفية ، إذ كانت الرقابة التركية تترصد وتراقب المتسللين خارج الحدود ، لتحيلهم إلى الشنق مباشرة .. وكانت المغامرة مخيفة وخطيرة ، واحتمال النجاح فيها ضئيلاً .

كانت الأسرة مؤلفة من أبويّ ، وابنهما الوحيد محمد سعيد ، وأخته الكبرى زينب ، والصغيرة رقية . وكنت آنذاك قد دخلت الرابعة من عمري حسب ماأكده أبي رحمه الله .

وها أنا أتصور الآن مشهداً بقيت منه في ذاكرتي خطوط تلوح لرسم مهترئ تقادم عليه العهد : نساء من قريباتنا يجلسن على شاطئ دجلة ، بينهن امرأة تبكي بعويل يكاد يشق صدرها وقد علمت من بعدها أنها خالتي سينم رحمها الله ، كانت تودع أختها الوداع الذي لا لقاء بعده ، لتفارقها مع زوجها وصغارها إلى مصير لا تدري أهو الموت أم النجاة .

كما أستطيع أن أتصور رجالاً كانوا يقرّبون إلى الشاطئ الذي اجتمعنا جالسين في طرفه ، لوحاً خشبياً كبيراً مربّع الأبعاد ، يطفو على وجه الماء ، وأذكر كيف رأيته مؤلفاً من عمدان متراصّة ضم بعضها إلى بعض ، ويسمونه باللغة الكردية (كلك) تنقل عليه البضائع والأشخاص ، لمسافات محددة ، داخل نهر دجلة ... وهكذا بدأت رحلتنا فوق ذلك الكلك الذي عبر بنا نهر دجلة ، وفصلنا عن الأهل والأقربين والوطن ، في ساعة ارتسمت مشاهدها في مخيلتي ، ولكني لم أتبين آلامها المذيبة إلا فيما بعد .

لم أسمع من أبي شيئاً عن كيفية اختراقنا ، بعد ذلك ، ساعة الخطر ، واجتيازنا الحدود إلى الأراضي السورية بسلام ، على الرغم من وعورة الطريق وشدة الخطر .. ولكني أعلم أن الوقاية العظمى التي التجأ إليها بنفسه وأهله وأولاده ، هي قراآته وأوراده التي لم يكن يغفل عنها قط .

حط بنا والدي الرحل في أول قرية سورية واجهتنا بعد اجتياز الحدود ، هي قرية (عين ديوار) وأقام فيها بضعة أيام ، أكرم فيها مختار القرية مجيء أبي واحتفى بمقدمه وتأثر بمغامرته وأكْبَرَ الهدف الذي هاجر من أجله ، ولم يكن رجال الشرطة السورية أقل اهتماماً واحتفاء به ، على أنه ليس فيهم من يعرف أبي أو يعرف شيئاً عنه .

كانت ولادتنا (الرسمية) جميعاً ، في تلك القرية ، فقد سجلت أسماؤنا ، مواطنين سوريين ، مولودين في قرية عين ديوار ، وأُعْطِيَ أبي الوثائق التي واصل رحلته بموجبها ، على هذا الأساس . وكان قد نزل ضيفاً في الأيام التي قضيناها هناك ، على رجل فاضل من أهل العلم ، أصبح فيما بعد مفتياً لمدينة القامشلي ، اسمه : ملا أحمد عين ديواري .

الفتنة التي لا تعني أصحابها :

حدثني أبي رحمه الله أن رجلاً من الأكراد ، تعرف عليه داخل الحافلة (الباص) التي تقلّ ركابها نحو دمشق ، وسأله عن سبب تركه لوطنه وممتلكاته ، وخوضه غمار هذه السفرة الطويلة المضنية بهؤلاء الصغار ، قال : وكانت أمي تسمع حديثه . وكنا نحن الصغار نعاني من بعض الأوجاع أو الأمراض في الحافلة .

فأجابه أبي عن سؤاله باختصار .

ولكن الرجل واصل حديثه ، فحذّر أبي من أن الحياة في دمشق ليست من السهولة كما قد يتصور ، وأن من لم يكن من ذوي المهارات الفكرية والتجارية

وأصحاب الأموال الكثيرة ، هيهات أن يجد لنفسه مستقراً فيها . وقال له : ثم إنك لا تعلم اللغة العربية ، فمع من تتفاهم[1] ؟ ومع من تتعاون في أمور معاشك ؟

قال له : الله لن يتخلى عني .. دمشق كبيرة ، والأعمال فيها كثيرة ، ولن أعدم عملاً يدرّ عليّ رزقاً .

أجابه قائلاً : الأعمال كثيرة ، والعمال المهرة أكثر منها ، ولن يكون لك من مكان بينهم .

قال له : سأحمل فأساً وأشتغل بكسر الحطب[2] .

أجابه : ستجد وراء سلسلة الجمال التي تحمل على ظهورها الحطب للبيع ، عشرين رجلاً قد سبقوك ، كلهمُ يحملون فؤوسهم على عواتقهم ليفوزوا بأجر تكسيره !..

قال لي أبي : وكانت أمك تسمع .. فهيج حديث الرجل مخاوفها . وأثار الندامة في نفسها ، فأقبلت إليّ ترجوني أن نعود .. وتحذرني من بؤس ينتظرنا قد لا نقوى على تحمله .

قلت لها : لقد أعطيتني العهد والميثاق أننا لن نرجع عن قرارنا مهما عظمت المخاوف والأخطار .. على أننا لم نجد إلى الآن إلاّ العون والتوفيق .

ويبدو أن أبي كان يرى في حديث ذلك الرجل الذي فرض نفسه عليه معلماً وناصحاً ، أكبر ابتلاء واجهه أثناء هجرته إلى دمشق ، فلقد ألّب عليه أفكار زوجته وتحولت من الموافقة التامة له والتعاون الكلي معه إلى عنصر معارض ، وراحت تلح

(١) كان أبي إذذاك يتكلم اللغة العربية الفصحى ، كما عرفها من الكتب التي تلقاها ودرسها أثناء الطلب ، مع لكنة أعجمية . وكان العوام من العرب يضيقون ذرعاً بفهمها . وكانت لأبي معهم في تلك المدة أخبار وحوادث طريفة .

(٢) كان الحطب في تلك العهود كوقود المازوت اليوم ، يدخرونه في بيوتهم لمواسم الشتاء .

عليه بالرجوع .. غير أنه كان يرى في ذلك ابتلاء ربانياً كشف عن مدى ثقة أبي برحمة الله وفضله ، تلك الثقة التي لا قيمة لها إن لم تخترق سائر المخاوف والتوقعات المحتملة .

ولا بدّ أنه ، رحمه الله ، قد شرح لزوجته هذه الحقيقة ، وأعادها بالذاكرة إلى الضمانة الإلهية العظمى لكل من ترك داره ووطنه مهاجراً في سبيل الله .. تلك الضمانة التي كان قد عثر عليها في قول الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ، وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [النساء : ٤/١٠٠] .

الاستقرار في دمشق والكدح في سبيل الرزق :

لا أذكر شيئاً عن رحلة ما بين عين ديوار ودمشق ، ولكن أبي يقول إنها كانت شاقة ، وأن الصغار الثلاثة اجتاحتهم موجة أمراض .. ولا شك أنه كان المتحمل الأول لأعباء ذلك كله .

والمهم أننا وصلنا إلى دمشق بسلام .. استقر بنا المقام بادئ ذي بدء في غرفة واحدة من دار عربية ذات غرف عدّة ، في أواخر حي الأكراد . وأعتقد أن الدار لا تزال قائمة كما هي .

بدأ أبي رحمه الله يشتري لنا الضروري من الفرش والأمتعة ، ومؤونة الطعام . وما كاد يتعرف على أهل الحي وبعض أهل العلم فيه ، ويطمئن إلى خلق واستقامة أصحاب الدار التي نساكنهم فيها ، حتى بدأ يبحث عن عمل ما للكسب .. وسرعان ما هدي إلى سبيل لذلك .

كانت الخطة التي لا بديل عنها ولا يعرف سواها ، أن يشتري الكتب الرائجة بين الأكراد ، مما قد يتضمن علوم الآلة وعلوم الشريعة الإسلامية ، ثم يمضي بها إلى مناطق الأكراد في الجزيرة داخل الحدود السورية ، ويبيعها بما يتيسر له من الربح . والواقع

أن أصحاب المكتبات في دمشق لم يكونوا على علم بالكتب التي يعنى بها الأكراد في بلادهم . وكان أكثر تلك الكتب مما لا يدخل في اهتمامات العرب ، فكانت ذات أسعار زهيدة .

تعرف أبي على المكتبات الكبرى التي تعنى بالعلوم والمعارف الإسلامية ، وعلى أصحابها . وكانت ثلاثَ مكتبات فقط . هي مكتبة المرحوم أحمد عبيد ، ومكتبة القصيباتي ، ومكتبة الشيخ إسماعيل الصباغ ، رحمهم الله جميعاً ، وتقع كلها في سوق الحميدية ، في الطريق إلى الجامع الأموي ... زار أبي لأول مرة هذه المكتبات وتعرف على أكثر ما فيها ثم انتقى من مجموعها الكتب التي تهمه ، وأعتقد أنها بلغت ملء كيس كبير .

يقول أبي رحمه الله : فلما عزمت على السفر إلى الجزيرة وأطرافها ، لبيع هذه الكتب هناك ، ساور أمّك ، من عملي هذا خوف كبير ، وأقبلت إليّ تقول : ليس في حوزتك في هذا المُنْقَطَع الذي انتهينا إليه إلا بضع ليرات ، أفتريد أن تمحقها هي الأخرى بهذه المغامرة ، وأنت الذي يعرف الجميع بأنك لا تحسن عملية بيع ولا شراء ؟.. غامرت ، واشتريت بهذه البلغة الباقية من المال هذه الكتب ، فلمن تتركني وتترك هؤلاء الصغار إن خسرت الصفقة وذهبت البقية الباقية من المال ؟

قال : فلم يكن أمامي إلا أن أعيدها إلى الثقة بالله ، وبأنه لن يضيعنا وقد خرجنا مهاجرين في سبيله . ووضعت بين يديها حاجتها من النفقة مدة غيابي ، وأوصيت بكم الجيران ، وسافرت بالكتب التي اشتريتها إلى الجزيرة .

أقول : عرفت فيما بعد ، أن والدي نزل ضيفاً في تلك السفرة على الشيخ إبراهيم حقي شيخ الطريقة النقشبندية في الجزيرة ، وكان جلّ مقامه في قرية حلوا التابعة لمدينة القامشلي . وكان بين والدي وبينه صداقة ومحبة تنامت واشتدت فيما بعد .

وأقبل العلماء والطلبة من كل صوب فابتاعوا منه خلال أيام ، كل ما قد حمله إليهم من الكتب التي كانوا يرونها ، في عرفهم ، من أندر الكتب المفيدة والثمينة . وربح ما لا يقل عن ثلاثة أضعاف رأس ماله ، وعاد إلى دمشق بعد أيام وهو يحمل إلى أهله من الجزيرة أصنافاً من المؤونة اللازمة كالسمن والجبن وبعض الحبوب التي ابتاعها من هناك .

واستكمل لدى عودته شراء بقية الأمتعة اللازمة . واطمأنت أمي إلى أن الله لم يضيعنا ، ولن يضيعنا ، ولن يتخلى عنا .

ثم إن أبي رحمه الله اتخذ من هذا العمل مهنة له . كانت له في العام سفرة أو سفرتان إلى شتى مناطق الجزيرة ، يأخذ معه من هنا الكتب المرغوبة والمطلوبة ، ويصطحب بقيمتها من هناك ما يمكن أن يبيعه هنا ، كالسمن وأصناف من الحبوب كالعدس والحمص .. وكان توفيق الله يحالفه في الذهاب والإياب .

ولكنهما كانتا سفرتين موسميتين فقط . إذ كان ينفق جل وقته بعد ذلك في العلم ودروسه فلقد قيض الله له هنا طلبة كالذين كان يدرسهم ويرعاهم في قريته التي هاجر منها .

ولهذه الحياة الجديدة تفاصيل متشعبة ، سنأتي على ذكرها بعون الله وتوفيقه في الفصل الآتي .

الحياة الجديدة في دمشق

الشخصية المزدوجة :

جل معلوماتي عن والدي ، إذ كان يعيش في تركيا ، أخذتها تلقياً عنه .

أما جل معلوماتي عنه بعد أن استقر به المقام في دمشق ، فنتيجة اطلاع مباشر مني على أحواله التي كان يمرّ بها . فلقد أصبحت سني عندئذ تسمح باستيعاب المشاهد وفهم الأحداث .

في دمشق .. وفي حي الأكراد ، الذي استقر مقامه فيه ، تعرف على ثلة من العلماء المتميزين المعروفين بسعة العلم والتقوى ، أذكر منهم ملاعبد المجيد ، وملا علي ، والشيخ محمد جزو ، وملاسعيد ، وملاعبد الجليل ، وملاخالد .. وإنما تم التعارف بينه وبينهم في مناسبات عابرة ، كتلاقٍ في مسجد ، أو مصادفة في طريق أو دكان أو طرح مسألة علمية . والذي أعنيه من هذا أنه لم يكن في وضع أبي عند أول مجيئه إلى دمشق ما يلفت النظر إليه عالماً من علماء الدين ، لا سيا وقد باشر عند أول وصوله مهنة البيع والشراء والتعامل مع الأسواق .

لقد كان كل شيء في مظهر أبي يدلّ على أنه إنسان من عامة الناس ، له صلةٌ ما بأهل العلم وله مشاركة معهم في المظهر .. على أنه اتجه في أيامه الأولى إلى أن لا يتزيّى بزيّ العلماء من عمامة وجبة ونحو ذلك ، ولكنه تذكر أن الفقهاء يرون كراهة ظهور التاجر أو الصانع أو الفلاح مثلاً بمظهر العلماء ، كما يرون كراهة ظهور العالم المتمكن من معرفة الدين وأحكامه ، بمظهر أيّ من هؤلاء الآخرين .

غير أن الذي لفت أنظار هؤلاء العلماء إلى أبي بالاهتمام والإعجاب ، هو ما بدى لهم من دقة معلوماته الفقهية واتساعها ، وكان ذلك في مناسبات عابرة لا داعي لذكرها .

إذن ، فقد قامت من جراء ذلك علاقة صداقة ومودة بين أبي وأولئك العلماء .. وسرعان ما عُرف أبي في حيّ الأكراد بالفقيه الشافعي الأول بين علماء الأكراد ، فاتجه إليه الطلاب الأكراد الذين من حوله أولاً ، ثم أقبل إليه كثير من طلاب العلوم الشرعية الذين كانوا يدرسون في المعاهد أو على أيدي المشايخ .. في عامة أحياء دمشق .

وهكذا فقد شاء الله أن يعود إلى أبي وضعه الذي كان فيه ، قبل الهجرة إلى دمشق ، من الاشتغال بالعلم ورعاية الطلاب وتدريسهم . كان يدرس الفقه والتفسير والأصول وعلوم الآلة على اختلافها .

ولكنه كان في الوقت ذاته ينخرط في أعمال المعاشية الأخرى ، كلما اقتضت الحاجة ، لا يتحرج ، ولا يتذمم . فكانت له شخصيتان اثنتان بين سائر الأوساط التي عرفته : إحداهما شخصية العالم الفقيه المتنسك ، والأخرى شخصية التاجر أو الحرفي المتهن .

ولكن كيف استقبل الناس هذا الازدواج في سلوك والدي رحمه الله ؟

إننا إن عدنا بالذاكرة إلى تراجم أكثر علماء المسلمين ، نجد هذا الازدواج قائماً في حياة كل منهم . بل نجده مظهراً للتكامل المطلوب . فقد كان أكثر العلماء الذين فاضت الدنيا بمناقبهم والثناء عليهم ، أصحاب مهن أو زراعة أو تجارة ، وكان رزقهم من كد أيمانهم .

ثم إن العرف تغير في عصرنا هذا .. فأصبح العالم لا يعدّ عالماً في أعين أكثر الناس ، إلا إن كان مترفعاً عن الكسب والعمل . فإن هو هبط إلى مستوى السوق والكدح من أجل الرزق ، أصبح ذلك ثلمة ، وأي ثلمة ، في علمه ، بنظرهم .

ولكن أفيمكن أن يجعل علم الرجل العالم منه مَلَكاً لا يأكل ولا يشرب ؟

إن العالم بوسعه أن يترفع فعلاً عن الخوض في أعمال المهن والحرف ونحوها . ولكنه لا يستطيع أن يترفع عن حاجته إلى المأكل والمشرب والأسرة والمأوى .. وهو في هذه الحال إما أن يستغني بعطاء الدولة والجراية المخصصة له ولأمثاله منها ، أو أن ينتظر فضل المحسنين وأعطياتهم .. وخير من هذا وذاك ، في مقياس الشرع وحكمه ، أن يكون علم العالم منفصلاً عن سبيل رزقه . وإنما يتحقق ذلك باعتماده على مصدر مستقل ، كسائر الناس للكسب والرزق . وبذلك يتحرر من الحرج في الإعراض عن رغبات الناس أو رعايتها من أجلهم ، أياً كان هؤلاء الناس وإلى أي الفئات أو الطبقات انتموا .

إن الذي أعان أبي وشجعه على طيّ شخصيته العلمية واقتحام سبيل الكدح بليراته القليلة التي لم يكن يملك سواها ، في مجتمع جديد غريب عنه ، أنه كان يسلك السبيل ذاته في مجتمعه السابق الذي هاجر منه فقد كان يمضي شطر وقته في تدريس الطلبة ورعاية شؤون المسجد وتوجيه الناس ودعوتهم إلى الله ، ثم يمضي الشطر الآخر منه في خدمة حقله وأرضه ممارساً كل ما يعرفه الفلاح من أعمال الزراعة المختلفة . وإن من الصور النادرة المتبقية في ذهني هذا المشهد الطريف الذي لا أنساه : والدتي تجلس في الحقل وراء قدر كبير مليء بالماء المغلي ، تغمس فيه عناقيد العنب ، ثم تنشرها على أرض إلى جانبها ، ووالدي منهمك في قطف العناقيد من أطراف الكرم ، وحملها في وعاء كبير على كتفه ، ثم إلقائها بين يدي والدتي لتمضي في عملها وراء ذلك القدر .. لم أكن أدري آنذاك شيئاً عن تفسير ذلك المشهد الذي التصق وأثبت في مخيلتي الصغيرة . ولكني علمت فيما بعد أنهما كان منهمكين في صنع الزبيب ، وكان لابدّ أن يضعا صغيرهما على مقربة منهما ، كي لا يشرد عن رعايتهما !..

ذلك الوضع الطبيعي الذي كان يفهمه أبي رحمه الله ، في تناسق وظائف العلم مع مهامّ الكسب ، في كيان الرجل العالم وسلوكه ، صاحبه إلى الشام . ومن ثم ظل سائراً على النهج ذاته .. ولئن فاته الحقل والعمل فيه ، لم يفته أن يكدح بالمال القليل الذي كان بين يديه .

وإن في ذهني لصورة أخرى تحمل الدلالة ذاتها ، ولكنها من صور حياته الجديدة في دمشق : كنا قد انتقلنا من تلك الغرفة التي سكنا فيها فور وصولنا إلى دمشق ، وهي كما قلت غرفة من دار في آخر حي الأكراد ، انتقلنا منها بعد مضي عام أو أكثر إلى دار مستقلة مستأجرة ، في زقاق كان يسمى زقاق عرفات ، مقابل الساحة التي تسمى اليوم بساحة شمدين .

فأذكر أن والدي كان مسافراً إلى الجزيرة ، في عمله الذي قد وصفت ، وذات يوم ، قيل لي : ها هو أبوك قد عاد .. فهرعت إلى الزقاق الذي يصل ما بين دارنا والساحة ، ولم يكن عمري يتجاوز الثامنة ، وإذا بعربة تسوقها دابة ، من ذلك النوع الذي يسمونه عندنا (الطنبر) محملة بصفائح (تنكات) من السمن ، ورأيت أبي يدفعها منحنياً مع صاحب العربة من الخلف بكل قوته وبجمع يديه ، في ذلك الطريق الحجري الصاعد !..

كثيرون هم الذين لا يعجبهم هذا الازدواج الذي قد يرونه مظهراً لمفارقة مزعجة !.. ولكن هذا هو النهج الصحيح ، وهو الوضع الذي تقتضيه القيم والمبادئ ، في المآل .

وقد حدثني أبي أن واحداً من أولي المكانة في حيّ الأكراد ، قال له : لقد ظننا يوم قدمت إلى هذه البلدة أنك أنت الآخر ستنتظر صدقات المحسنين ، كما هو شأن الكثيرين . ولكنك رفعت رؤوسنا ورؤوس أهل العلم عالياً ، بإقبالك رأساً إلى العمل وترفعك عن الصدقات .

والمهم أن انخراط أبي في العمل وانهماكه في تصرفات قد لا تليق - في أذهان كثير من الناس - بأهل العلم ، لم يكن ليغض أو يقلّص من مكانته عالماً من علماء الشريعة في أعين الناس ، حتى في أعين أولئك الذين كانوا يرون أن الانسياق في الأعمال الدنيوية لا تليق بعلماء الدين .

كانت اللقاءات مستمرة بينه وبين علماء الحي ، وقد كنت ذكرت أسماءهم ، وقد كانت تفيض دائماً بالمناقشات العلمية ، وقد كان يصحبني معه إلى بعض تلك اللقاءات التي تمتد من بعد صلاة العشاء أو المغرب إلى ما يقارب منتصف الليل .

وسرعان ما اشتهر اسم أبي على أنه العالم الأول في فقه الإمام الشافعي بين علماء الحي .

وكان يدرس على يديه جمع متنوع من طلاب العلوم الشرعية ، فيهم من جاء من الجزيرة قاصداً التلقي منه ، وفيهم أكراد من أهل الحيّ نفسه ، وفيهم طلاب عرب كانوا يدرسون في معاهد شرعية شتى .

وقد ظل رحمه الله مدة ثماني سنوات تقريباً ، من أول مقدمه إلى دمشق ، لا يرتبط بأي وظيفة دينية كإمامة أو خطابة أو تدريس ديني في مسجد .

كان يحضر صلاة الجماعة ، في مسجد صغير يسمى مسجد ملاقاسم في أواخر حي الأكراد قرب الدار التي كنا نقيم في غرفة منها . فلما انتقلنا إلى الدار المستقلة الأخرى قرب ساحة شمدين ، أصبح يلازم في صلاته مسجد ركن الدين ، وقد بقي على هذا الحال قرابة سبع سنوات . وكان إذا دخل العشر الأخير من شهر رمضان اعتكف فيه ، فلم يبارحه إلى صبيحة العيد . غير أنه لم يكن يصلي صلاة الجمعة ، طوال هذه المدة إلا في جامع الحنابلة . وكان جميع علماء الحي لا يصلون إلاّ فيه . وكان لتلاقيهم جميعاً فيه أثر كبير في نفوس الناس ، ولعله كان يحمل الكثير منهم على أن يتوجهوا من بيوتهم وأماكنهم البعيدة للصلاة فيه يوم الجمعة[1] .

---

(١) سبب ذلك ما تأكد لأبي وأولئك الآخرين ، من أن جامع الحنابلة كان إلى ما قبل عشرات السنين واحداً من المساجد الجامعة الستة التي كانت تحصر صلاة الجمعة بها أما سائر المساجد الأخرى فكانت مصليات ، لا يجتمع الناس فيها لصلاة الجمعة .

أخيراً .. الارتباط بمسجد الرفاعي :

كان في أعلى منطقة ساحة شمدين ، مما يلي الغرب ، وعلى بعد مئتي متر تقريباً ، حيّ شعبي فقير يسمونه : الحارة الجديدة ، وكان معظم أهل هذا الحي يعانون ، إلى جانب الفقر ، من سوء الخلق وفشو الجهل والانحراف .. وكانت في قلب تلك الحارة ساحة صخرية اتخذها الناس مجمعاً للقمامة والأقذار .

وذات يوم جال في خاطر اثنين من أهل ذلك الحي ، وكانا يعملان في البناء ، أن لو أمكن تنظيف تلك الساحة من القمامة التي غدت مصدر وباء وأذى لذلك المحيط كله . وارتأى أحدهما أن يقام فوق تلك البقعة الصخرية مسجد ، نظراً إلى أن ذلك أضمن سبيل لتحصين المكان وحمايته مستقبلاً من القمامة والأقذار .

ولاقت الفكرة قبولاً ، وراح أصحاب الفكرة يبحثون عمن يموّل المشروع .. وبلغ الاقتراح سمع رجل كان يعدّ من أغنياء حيّ الأكراد ، يدعى (أبو سليمان قره جولي) واسمه : محي الدين . وكان على تقوى ودين . وذهب فرأى الموقع ، وتعرف على المحيط من حوله ، ورأى حاجته الماسة إلى مسجد للصلاة ، فتبنى المشروع وقدّم النفقة .. وتبرّع كل من البنّاءَيْن اللذين قدّما الفكرة بجهودهما الشخصية في إقامة البناء .

وشاء الله عز وجل أن يتم بناء ذلك المسجد أو المصلى في مدة وجيزة على ما أذكر ... كان الحرم صغيراً لا يتسع لأكثر من خمسين مصلياً ، وكانت له من ورائه فسحة سماوية صغيرة أقيمت فيها غرفة للمؤذن أو الإمام .

وبحث المهتمون بأمر ذلك المسجد وبنائه عن إمام يؤم المصلين فيه .. وسرعان ما اقترح لهم أبو سليمان ، ذلك المتبرع بتكاليف البناء شيخاً جليلاً عالماً يدعى ملا رمضان !..

كان محي الدين أبو سليمان يعرف أبي ، وكان معجباً بعلمه وزهده وترفعه عن الدنيا ، فجاء يعرض هذه المهمة عليه . وأبدى رغبته الشديدة في أن يوافق ، ولعله أوضح له حال ذلك الحي ومدى حاجته إلى مسجد يجتمع الناس فيه للصلاة ، وإلى عالم ينصحهم ويرشدهم إلى الحق .

وفكر أبي في هذا العرض مدة ، استخار اللهَ خلالها ، واستشار بعض أصدقائه من العلماء ، وفي مقدمتهم الشيخ محمد جزو الذي كان من أخص أصدقاء والدي وأحبهم إليه .

كانت النتيجة أن شرح الله صدره للقيام بهذه الوظيفة .. فتحول عندئذ من الدار التي كان يقيم فيها في زقاق عرفات ، إلى دار أخرى قريبة جداً من المسجد الجديد ، موقوفة لصالحه .

وهكذا انتقلنا إلى تلك المنطقة التي تسمى الحارة الجديدة .. والتي كانت آنذاك منطقة موحشة متطرفة ، تسكنها فئة من الجهال الذين يمارسون أعمال الفتوة (الزعرنة) ويتخذون من سفوحهم الصاعدة إلى جبل قاسيون ، مثابة لشرورهم وخصوماتهم بين الحين والآخر !.. فهل كان بوسع أبي أن يروض أولئك الناس ؟

باشر أبي بوظائف المسجد إماماً ، وفي كثير من الأحيان مؤذناً أيضاً .. ولم يكن آنذاك أكثر من مُصلّى تؤدى فيه الصلوات الخمس . وأبى ذلك الثري الذي بنى المسجد من ماله ، إلا أن يجري جراية ، لإمام المسجد والقائم بأمره ، تمثلت آنذك بحمل من الحنطة يرسلها إليه كل عام .. كان ذلك عام ١٩٤١ يوم كان الناس لا يزالون يدخرون الحنطة ويعتمدون عليها في خَبْزِهم وجلّ أقواتهم .

كان المسجد لا يحفل بأكثر من عشرة من المصلين في أوقات العصر والمغرب والعشاء .. وفي صلاة الصبح نحو ذلك . أما في وقت الظهر فلم يكن يأتي أحد على

الأغلب ، وقد كانت عادة والدي في هذه الحال أن يؤذن ليعلم أهل الحي بدخول الوقت ، ثم يتجه مسرعاً إلى مسجد ركن الدين ليدرك الجماعة هناك .

ولم يكد يباشر أبي الصلاة في المسجد حتى بدأ فنظم دروساً فيه بعد صلاة الصبح ، ودرساً بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة . وكنت أجلس في معظم دروسه ، وأنظر في الحاضرين ، فلا أجد إلا عدداً قليلاً من المصلّين لا يبلغون أصابع اليدين ، قد تناثروا مستندين إلى جدران المسجد هنا وهناك ، وقد غلب على أكثرهم النوم أو النعاس .

الجديد في هذه الوظيفة التي ارتبط بها أنها عاقته عن السفر إلى الجزيرة لأعمال البيع والشراء ، كما كان يفعل من قبل . فاتجه بدلاً عن ذلك إلى البحث عن كتيبات صغيرة رائجة ومطلوبة عند الأكراد مما يخص لغتهم أو تاريخهم أو آداباً إسلامية عامة ، ومما لم يكن قد طبع من قبل ، كتلك الكتيبات التي كانوا يتداولونها محفوظة فيما بينهم ، فتولى طباعتها على نفقته ، ثم أخذ يرسلها للطالبين عن طريق البريد أو بواسطة أشخاص . ومن الكتب التي طبعها ونشرها على هذا الغرار فلقيت رواجاً بين الأكراد ، كتاب صغير ، اسمه (نهج الأنام) مؤلف باللغة الكردية ، يتضمن العقائد الإسلامية التي يجب أن يعلمها كل مسلم ، كما يتضمن بعض الآداب والقواعد الأخلاقية .. وكتاب آخر اسمه (نوبهار) أي الربيع الجديد ، وهو عبارة عن قاموس شعري صغير من العربي إلى الكردي ، ألّفه الشاعر والأديب المشهور أحمد الخاني مؤلف قصة (مموزين)[1] كما طبع مولداً باللغة الكردية ، أعتقد أنه لم يكن قد طبع من قبل ، وكانت هذه الكتب تلقى رواجاً عند الأكراد المقيمين في سورية والمقيمين وراءهم داخل حدود تركية . فكان له رحمه الله من هذا العمل ما أغناه عن متابعة السفر ، وأعانه على القيام بأعباء وظيفته الجديدة على خير وجه .

---

(١) هي قصة عاطفية ذات وهج صوفي مؤثر ، كنت قد ترجمتها ، بإشارة من والدي رحمه الله إلى اللغة العربية ، وهي معروفة .

الانحراف .. وسبيل الإصلاح :

لم يكن العبء الأكبر متمثلاً في القيام بوظائف المسجد .. ولكنه كان آتياً من مصدر آخر ، هو جهل ، بل سفاهة كثير من أهل ذلك الحي .. لم يكن على أبي أن يصبر على ذلك الواقع فقط ، بل كان يحمل نفسه مسؤولية هدايتهم وإصلاحهم أيضاً .

ولو أن العالم أو الداعي إلى الله تصور أن عونه في هذا السبيل ، إنما يتمثل في لسانه وعلمه وسعة خلقه وطول تحمّله .. لكان عليه في كثير من الأحيان أن يقع في اليأس .

لقد استعان أبي بعلمه الغزير ، ولسانه العربي الذي أصبح طليقاً ، كما استعان بطول الصبر والتحمل ، بل استعان بعد ذلك كله بكثير ممن بيدهم الحكم والسطوة . فلم يأت ذلك كله بأي نتيجة على طريق السعي إلى هداية بعض أولئك الجهال بل السفهاء كما قلت .

وإنما الذي أنجده بعد ذلك كله ، كثرة الالتجاء إلى الله ، وطول التضرع بين يديه ، في ظلمات الليالي وساعات السحر .. وليت الدعاة إلى الله يدركون قيمة هذا السلاح العجيب في إصلاح الفساد وتقويم الإعوجاج .

وسأكتفي بعرض مثل واحد لهذا الذي أقول .. وهو المثل ذاته الذي كان أبي يكرره في كل مناسبة ، لبيان عظيم فضل الله عليه ، وللتنبيه إلى النهج الذي يجب أن يسلكه العلماء والدعاة إلى الله عز وجل .

يقول والدي : كان لي جار ملاصق في هذا الحي ، يرتكب كل ما يتأتى له من الموبقات . فكان مدمن خمر ، سفيه اللسان ، تواقاً إلى الفواحش .. ثم كان من تمام المصيبة أن زاد على ذلك كله ، فاستقدم امرأة عاهراً ، وأقامها عنده وراح يستقبل الرجال في بيته لينالوا حظوتهم منها .. وما ليلة تمر ، إلا وتعج داره بالصياح والغناء الصاخب وأصوات المعازف والأوتار .

يقول والدي :

تكلمت مع المصلين من أهل الحي .. ونصحت الآخرين ممن لهم صلة به أو سلطان عليه .. ثم إني أبلغت المسؤولين المعنيّين بالسلوك والآداب ، فلم تأت جهودهم بأي طائل .. وعرف الرجل أنني أحاول صده بطريقة ما عن عمله الشائن ، فأخذ يتهددني بالقتل ، وكان شريراً وفتاكاً ، وفي إحدى الليالي خرج من داره قبيل الصبح وقد اهتاج به السكر ، وأقبل يقذف باب دارنا بأثقل ما يستطيع حمله من الحجارة ، مع أقذع الشتائم والسباب .. وعند صلاة الصبح من ذلك اليوم أو بعده ، أخذ يمطر المسجد من خلال نوافذه بوابل من الحجارة الثقيلة ، والناس داخل المسجد مصطفون في الصلاة .

ولما يئست من تلك السبل والأسباب كلها ، توجهت إلى الله بالتضرع والدعاء أن يهديه ويصلح حاله ، وجعلت من ذلك وظيفة لي في الأسحار ، أدعو له بضراعة في سجودي ، وكم كنت أطيل السجود ، وأنا أناجي الله عز وجل بشأنه ، وأسأله الهداية له .

وما هي إلاّ أيام ، حتى أخرج المرأة من داره فانصرفت إلى شأنها ، وما هي إلا أيام أخرى ، حتى أقلع الرجل عن الخمرة ، ونظرت بعد حين فإذا هو في المسجد ، وإذ هو يقبل متلهفاً منكسراً ، يترامى على يدي ليقبلها !..

قلت : وقد صلح حال هذا الرجل صلاحاً تاماً من بعد . واقتضت المصادفات أن يذهب والدي في ذلك العام ، للمرة الثانية ، إلى الحج بضيافة حسن البحري رحمه الله الذي تعرّف عليه آنذاك . وقد أوصانا رحمه الله أن لا نصنع لمقدمه أي زينة على باب الدار ، كما هي العادة عند كثير من الناس .. ولما تسامع الناس بقرب رجوعه ، أصرّ جارنا التائب هذا على أن يقيم لمقدمه زينة كبرى متميزة عند مدخل الدار .. ونصحناه أن لا يفعل ، وأخبرناه بوصيته ، وأكدنا له أن هذا العمل يغضبه ولن يسره .. ولكنه

لم يكن يلقي بالاً لنصيحة أحد . وكان من فتوات الحي والمتشطّرين بين أصحابه ، وكان ذلك في أول عهده بالتوبة .

وأقام الرجل زينة على مدخل الدار من أغصان الشجر وأوراقها ، ثم زين أطرافها بالسجاجيد جاء بها من بيته وبيوت أصحابه ، ثم مدّ فراشاً له على باب الدار ، وجعل لا يبارح مكانه ذاك في ليل ولا نهار . ولما وصل أبي ، كان « أبو صياح » هذا في مقدمة المستقبلين له .. وبادرنا ، فأخبرناه بما جرى مما لم يكن لنا أي خيار فيه . ووقف أبي يدعو .. ويثني على الله بما هو أهله .. ولعله علم أن هذه الزينة الاستثنائية التي اخترقت رأيه ورغبته ، جاءت اعتذاراً عن الحجارة التي قُذِفَ بها باب داره ، قبل حين في جوف الليل .

ثم إن هذا الحي أخذ يزدهر شيئاً فشيئاً بالاستقامة والتقوى ، وتكاثر المصلون فيه حتى ضاق بهم المسجد ، وقام أهل الحي بعد حين بتوسيعه وإضافة ما لا يقل عن مثله إليه .. وشاء الله أن يزداد الناس إقبالاً إليه بعد ذلك ، وأن يؤمه الكثيرون من أحياء بعيدة أخرى للصلاة وللدروس .. فاقتضت الضرورة أن تضاف إليه توسعة ثانية ، ثم ازداد اسم مسجد الرفاعي ، وفي كثير من الأحيان اسم مسجد ملا رمضان ، تألقاً في البلدة كلها . وعاد يغصّ بالوافدين إليه ، لا سيما أيام الجمعة والأعياد .. وعادت الضرورة مرة أخرى تلحّ على التوسعة ، ولم يكن من سبيل إلى ذلك عن طريق امتدادات أفقية ، فكان الحلّ الوحيد بناء طابق علوي . وهذا ما انتهى إليه حال المسجد أخيراً .

إن الذي يعلم حال (الحارة الجديدة) قبل أربعين عاماً ، ويرى حالها الإسلامية الرائعة اليوم ، يدرك المعنى الأتم والأجلّ لإحياء الله العظام وهي رميم .. ويدرك قيمة الصبر والمصابرة على صعوبة الدعوة ، والأشواك الدامية على طول الطريق إليها .

كانت معاناة شاقة أتصورها وأذكرها جيداً ، غالب فيها والدي نوازعه البشرية ، يقيناً بالمثوبة وأملاً بالهداية ، إلى أن تحققت الهداية بأتم وأروع مما كان ينتظر ويأمل .

وهذا هو الدرب الوحيد المفتوح أمام كل من يرغب صادقاً في هداية الناس ودعوتهم إلى الله عز وجل .

توفيق من الله .. لا مهارة من العبد :

كان أبي رحمه الله كثيراً ما يكرر هذه الجملة ، أو ما في معناها ، عندما يحدثنا عن التوفيق الرباني الذي لازمه ، في حياته الجديدة ، غريباً ، في دمشق .

كان يقول : لم أكن ذلك الماهر الذي يعتمد على نفسه في الملمات والمغامرات ، بل كنت أقرب إلى (الدروشة) والبساطة في كل شيء .

وعندما تسامع الناس الذين يعرفونني في جزيرة بوطان ، أن ملا رمضان قد استطاع أن يدبّر أموره في الشام ، وهاهو ذا قد استقر به المقام بخير وسعادة هناك ، عجبوا ، وكادوا أن لا يصدّقوا .. وأطمع ذلك كثيراً منهم في أن يجربوا هم الآخرون حظهم ، آملين أن يكونوا أقدر مني على بناء حياة رغيدة لهم في دمشق ، فأموالهم أكثر ، وخبراتهم أوفر .

ثم يقول أبي : ولم يكونوا يعلمون أن مصدر استقراري هنا لم يكن خبرة ولا مهارة ، ولكنه العناية من الله والرحمة الغامرة التي كانت تلاحقني منه أنى تحركت وذهبت .

لقد كنت أدخل السوق ولا أعلم شيئاً من أموره ، وأشتري البضاعة ثم أبيعها ، دون أن يكون لديّ علم بالتجارة وشؤونها ، وأحوال الناس ومكر كثير منهم .

وكم زلت بي القدم إلى درجة التحطيم أو الإفلاس ، ثم لم ينتشلني إلا الوقاية المباشرة من الله ... ويقول ـ ذاكراً هذا المثال العجيب ـ : كنت أجوب ذات يوم

داخل ذلك السوق المظلم المغطّى ، خلف جامع السنانية ، والذي يظل مزدحماً بالناس ، أريد شراء عدد من الصداري لبيعها في الجزيرة ، إذ كانت مرغوبة عند الأكراد .. وعثرت على ما أريد منها ، وكنت أحمل في جيبي فرنكات حديثة شديدة اللمعان ، وكنت أحمل في الجيب ذاته عدداً من الليرات الذهبية ، ميَّزتها عن الفرنكات داخل لفافة من الورق . ويبدو أن الليرات سقطت من داخل اللفافة فامتزجت بالفرنكات دون أن أعلم . ونقدت البائع ثمن الصداري من تلك الفرنكات ، وكان الجو مظلماً والازدحام شديداً . ثم تركته ومضيت .. وما إن تجاوزته مقدار عشرة أمتار تقريباً حتى استوقفني شاب حليق مطربش لا أعرفه ، سلّم عليّ ، ثم قال لي : ما اشتريت لنا أيها الشيخ ؟ وقبل أن أجيبه ، أمسك بيدي وقال : تعال !.. وعاد بي يخترق الزحام إلى بائع الصداري ، وصاح في وجهه قائلاً : أعطه الليرات !.. وكان الرجل لا يزال قابضاً بيده عليها ، ويبدو أنه هو الآخر لم يتبين أن بين الفرنكات ليرات ذهبية ، ففتح يده مستنكراً ومتعجباً ليرى الليرات داخل قبضته !.. وفي غمرة دهشتي واسترجاعي لها من البائع ، نظرت عن يميني وشمالي ، فلم أجد الشاب المطربش !..

يقول أبي : فتلك هي خبرتي ومهارتي التي حفظتني ويسرت لي أموري .. إنها عناية الله فقط ، ولعلها جاءت نتيجة ثقتي الكبيرة بقوله عز وجل ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ [النساء : ٤/١٠٠] .

ثم يقول : ولقد قلّدني فتبعني بعض الناس ، وجاؤوا من تركيا إلى دمشق ، وهم يحملون معهم إلى جانب المال الكثير خبراتهم التجارية أو مهاراتهم الصناعية ، طمعاً في أن يفوزوا بالغنى الواسع ويركنوا إلى المتع الدنيوية ، بالقياس إلى ما قد حالفني من التوفيق على الرغم من قلة مالي وعدم خبرتي . ويضرب المثل بفلان الصائغ ، وفلان التاجر ، جاء كل منهما معتزاً بما يتمتع به من خبرات ومقومات ورؤوس أموال .. ولكن كلا منهما حاول ، ثم حاول ، وطرق الأبواب ، وشحذ الهمة واستعان بالخبرة ، فلم تأت

جهوده بأي شيء ، وأتت النفقات على المال ، وأكلته سلسلة الحاجات ، فاضطر إلى الرجوع من حيث أتى .

ويضرب مثلاً آخر ، بفلان آخر تاجر أغنام ، انكسر في تجارته ، فتحول - عندما رآني أعود من سفري إلى الجزيرة بما يتيسر من الحبوب كالعدس والحمص .. وأبيعه بربح معقول - تحول مع شريك له إلى التجارة بالحبوب ، ولكن بصفقات كبيرة متناسبة مع حجمه المالي .. غير أن التوفيق لم يحالف الشريكين في هذه التجربة .

ويقول أبي رحمه الله : فلقد جاءا إليّ ذات ليلة يشكوان الخسارة ، ويعرضان عليّ قدراً من أموالهما أضيفه إلى مالديّ ، وأحسب حسابها فيما أشتري وأبيع . وقبلت رجاءهما ، وأخذت المال منهما ، وسافرت واشتريت وعدت محملاً ببضاعة كبيرة وثقيلة من الحبوب ، ثم وفق الله فبعتها ، بمثل الربح الذي كنت أجنيه بمالي الضئيل لحسابي . ولما اجتمعنا وأريتهم كشف الحساب ، تهلل وجه كل منهما سروراً . وكنت أظن أنهما قد سلّماني المال على سبيل المضاربة ، وأنني سأفوز بجزء من الربح باعتباري العامل فيه ، غير أني فوجئت بأنهما اعتبرا المال وديعة عندي ، وأن عملي فيه كان خدمة إنسانية مجردة . وهكذا أعدت إليهما المال كله : الأصل والربح الكامل معاً ، مستغنياً بالأجر الذي يغمرني من عند الله .

وللعبرة أقول : لم ينتفع أي الشريكين من ذلك المال الذي عاد إليهما ، فقد انتقلا من خسارة إلى خسارة إلى أن مني كل منهما بالإفلاس . رحم الله الجميع ورزقنا العبرة الصادقة من كل ما نرى ونسمع .

☆ ☆ ☆

وآخر ما ينبغي أن أذكره من مظاهر فضل الله عليه في حياته الجديدة أمران اثنان : أحدهما ، تثبيت وظيفته إماماً وخطيباً لمسجد الرفاعي في أوقاف دمشق . ولم يسع إليها ولم تخطر منه على بال ، ولكن سخر الله لذلك - بعد سنوات من قيامه

بشؤون ووظائف هذا المسجد ـ رجلاً اسمه الشيخ حسن المزيك رحمه الله .. تعرف على أبي ، ولم يكن يعرفه ، ثم أصرّ على نقل المسجد إلى ملاك الأوقاف وتعيينه موظفاً براتب من الأوقاف فيه . وهذا ما تم أخيراً .

ثانيهما تحول أبي رحمه الله من دار الوقف التي كان يسكنها ، إلى دار ملك أكرمه الله بها . اشترى أرضها بثمن زهيد من الأوقاف ، وراح يبنيها ضمن حدود إمكاناته ، وأذكر أنه باع في سبيل ذلك جزءاً كبيراً من مكتبته .. كما أذكر أن عمر آغا شمدين ـ وكان أبرز وجهاء حي الأكراد آنذاك ـ كان يصدّ أولئك الذين ترسلهم المحافظة بين الحين والآخر للهدم ، نظراً إلى أن البناء لم يكن قائماً بشكل نظامي .. بل لقد أقام من نفسه حارساً ضد أي خطر يتهدد العمل والبناء ، في أي وقت من الأوقات .

كان عمر آغا شمدين يثق بصلاح والدي وعلمه ثقة مطلقة ، ومن ثم فقد كان يحبه حباً جماً ، وكان يعامله كمريد للشيخ .. رحمه الله ، ورحم الجميع ، وأدخلنا معهم في ساحة إكرامه ومغفرته .

أولاده .. ومسلكه في تربيتهم

عندما هاجر أبي إلى دمشق ، كانت لي أخت تكبرني بثلاث سنوات تقريباً ، اسمها زينب . وكانت لي أخت أصغر مني بسنتين تقريباً اسمها رقية . وكنت الوحيد لأبي من الأولاد الذكور كما قد أوضحت .

فأما رقية فقد توفيت في الأشهر الأولى من وصولنا إلى دمشق . وأما زينب فقد توفيت هي الأخرى بعد وصولنا إلى دمشق بخمس سنوات تقريباً . وكنا نقيم آنذاك في منزل بزقاق عرفات ، مقابل مسجد ركن الدين .

وقد رزق والدي في تلك الفترة بنتاً سماها نعيمة ، ولكنها توفيت هي الأخرى في السابعة من عمرها تقريباً .

وفي أواخر عام ١٩٤٢ توفيت والدتي رحمها الله بعد مرض عانت منه سنوات عدة . ولي من العمر آنذاك ثلاثة عشر عاماً . وشاء الله عز وجل أن يتزوج أبي بعد حين بفتاة من أسرة تركية فاضلة ، أنجبت منه بنتين : سمى الكبرى منهما زينب والصغرى خديجة ، وقد عاشتا بحمد الله ، وتزوجتا في حياته ، وهما تتمتعان اليوم بخير وعافية .

إذن ، لم يعش لأبي من الذكور أحد غيري ، وعاشت له من زوجته الثانية ابنتان اثنتان .

مسلكه في التربية :

كان أبي رحمه الله يعتقد أن المنزل هو المصدر الأول للتربية ، وأن الأبوين هما أول مسؤول عن تربية الأولاد .. والقاسم المشترك بين الذكور والإناث في التربية التي يأخذهم بها ، ضرورة تلقين الطفل لفظ الجلالة عند أول محاولة للنطق . ثم تلقينه جملة

الشهادة عندما تنشأ قدرته على النطق بالجملة الكاملة .. فإذا درج من المهد وتهيأ عقله لإدراك الأمور وحفظها ، وجب إعلامه بأولى الحقائق الكونية وأخطرها . ينبغي إعلامه بأن لهذا الكون إلهاً يدبره ويدير أمره ، وأن كل إنسان عبد ومملوك لله ، كما ينبغي إعلامه باسم آخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ ، واسم أمه وأبيه ومكان ولادته ، ومكان هجرته ، وبخلاصة عن سيرته . ثم يلقّن القرآن من أوله إلى آخره .

بهذه المبادئ الهامة كان يأخذ أبي أولاده منذ نعومة أظفارهم .

ثم إنه كان يرى أن تربية البنت وتعليمها في المنزل أكثر ضمانة لاستقامتها ، إن تيسر وأمكن ذلك ، وهذا ما تم فعلاً بالنسبة لكل من أختيّ : زينت وخديجة .

وكان يستحسن - إذا أخذت البنت حاجتها من الثقافة والمعارف الإسلامية - أن تتجه إلى إتقان أي من الفنون النسوية .ولم يكن له موقف مخالف لمبدأ تعليم البنات ، ولكنه كان يشترط لذلك أن يكون طريقهن إلى التعليم نظيفاً غير موبوء .

أما أنا ، وقد كنت كما ذكرت الابن الوحيد ، فقد عهد بي - وأنا في السادسة من عمري - إلى امرأة فاضلة ، كانت تعلم الأطفال قراءة القرآن ، وأوصاها بي .. فكانت تعنى وتهتم بي في تلقيني القرآن وتلقيه منها على الوجه السليم . وقد علمت فيما بعد أنني ختمت تلاوة القرآن عندها خلال ستة أشهر ، وأذكر أن والدي احتفى بهذه المناسبة احتفاءً كبيراً ، وأعلن عن ابتهاج عظيم . وأعطاها على إنجازها هذا أربع ليرات ذهبية . وما أعتقد أنه استبقى لنفسه مثلها .

ثم إنه عهد بي إلى مدرسة ابتدائية أهلية خاصة ، في زقاق القرماني ، قرب سوق ساروجة ، كان يعرف مديرها ويثق به . ولم تكن تلك المدرسة تعنى إلا بتعليم الدين ومبادئ اللغة العربية والرياضيات[1] وكنت أجتاز إليها طريقاً ترابياً طويلاً بين

---

(١) أقول هذا ، ولكن ينبغي أن أنبه إلى أن سائر المعارف التي كان التلاميذ يتلقونها في مدارسهم الابتدائية ، كانت مغموسة بالدين وبالقيم الأخلاقيّة والتوجيهات الإنسانية .. لا سيما في كتب القراءة =

البساتين يسمى : عين الكرش ، سيراً على الأقدام . فأذكر أنني كنت أعاني من ذلك السير الطويل بين تلك الأتربة جهداً كبيراً . في الذهاب والإياب .

كان أبي بعد ذلك هو معلمي الأوحد .. علمني أولاً مبادئ العقيدة الإسلامية ، ثم علمني موجزاً من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ ، من خلال رسالة صغيرة اسمها : ذخيرة اللبيب في سيرة الحبيب . ثم أخذ يعلمني مبادئ علوم الآلة من نحو وصرف . وسلكني في طريق حفظ ألفية ابن مالك في النحو . فكان يفسر لي كل يوم خمسة أو ستة أبيات منها ، وكان علي أن أتقنها بعد ذلك حفظاً في بياض ذلك النهار . فأذكر أنني حفظت الألفية كلها خلال أقل من عام . ولم أكن قد ناهزت البلوغ بعد .

☆ ☆ ☆

= ونصوصها . كنا نحفظ مثلاً نحو هذه الأبيات :

من علم العصفـــــور أن	يبني عشـــــاً في الشجر
الله قــــد علمــــه	ذاك وأعطــــاه الهـــدى
من علم النحلــــة أن	تمتص أزهـــــار الثمر
الله قــــد علمهــــا	ذاك وأعطــــاها الهـــدى

إلخ ..

كنا نُستَحْفَظ نصوصاً وأبياتاً ، تفجر المشاعر الإنسانية العليا من نفوس الصغار - وتسمو بهم إلى سماء القيم وضوابط الأخلاق ، هذا فضلاً عن بلاغة تلك النصوص التي تغرس في أحاسيسهم الذوق الأدبي . تأمل في هذه الأبيات التي لم أعد أذكر اسم مؤلفها مع الأسف وعنوانها : أنّة طفل ضرير :

يـــا أم مــــا شكل السما	ء ومـــا الضيـــاء ومـــا القمر
بجمالهـــا تتحـــدثـــو	ن ولا أرى منهـــا الأثر
أمشي أخـــــاف تعثراً	وســـط الضيـــاء أو السحر
عكازتي هي نـــــاظري	هـــل في جمـــاد من بصر
يـــــا أم ضميني إليـ	ـــك عسى يـــزايلني الضجر
يـــــا أم لا تبكي على	حيٍّ رعـــاك من خلـــق البشر

كانت مدارسَ ابتدائية ، ولكنها كانت تفيض بزخم التوجيه الديني والأخلاقي ، وتتميز بالأصالة وسموّ الزاد الثقافي الذي يؤخذ به التلميذ .

الشيخ حسن حبنكة ، ومعهد التوجيه الإسلامي :

وفي هذه الفترة تقريباً تعرف والدي على عالم جليل من علماء دمشق هو الشيخ حسن حبنكة الميداني .. كان أول لقاء معه ، فيما أعلم ، في المكتبة العربية لصاحبها أحمد عبيد . وكان بين الشيخ حسن وأحمد عبيد مودة عميقة ، وكان أبي يتردد بين الحين ، والآخر على هذه المكتبة ليتعرّف على الجديد الذي عنده من الكتب . ومن خلال هذا اللقاء عرف والدي أن الشيخ يدير معهداً شرعياً في الميدان .. ثم أتيح له أن يعرف المزيد من شأن هذا المعهد ، عندما صادف أن جاء أحد تلامذته المتميزين النجباء يطلب من والدي أن يدرسه كتاباً في فقه الإمام الشافعي ، هو الشيخ محمود المارديني عافاه الله وأمد في حياته . وتوطدت العلاقة بين أبي وهذا الشيخ من خلال درس أسبوعي كان يتلقاه عليه ، وعرف خلال ذلك المزيد من أمر هذا المعهد ، الذي لم يكن أكثر من طلبة علم في مسجد ، ولم يكن قد اكتسب اسم (المعهد) بعد .

كان المعهد آنذاك مكوناً من بضعة عشر شاباً يدرسون العلوم الشرعية على يد شيخ الميدان آنذاك الشيخ حسن حبنكة رحمه الله . وكانوا متفاوتين في مراحل الطلب ، وكان الجميع يتلقون سلسلة دروس متوالية صباحَ كل يوم على الشيخ رحمه الله ، وكانت أعمارهم ما بين العشرين والثلاثين . وكانوا منقطعين عن بيوتهم متفرغين لطلب العلم ، وكانت إقامتهم الدائمة في غرف تابعة لجامع منجك في حي الجزماتية بالميدان . وكان يقال عنهم : طلاب جامع منجك ، إذ لم يكن اسم المعهد قد ولد بعد كما قلت .

شاور والدي تلميذه الشيخ محمود المارديني ، في أن يلحق ابنه الوحيد بهذا المعهد ، وسأله عما إذا كان صغر سني وضآلة معارفي - إذ كنت في أول عهدي بالطلب - يشكلان أي مشكلة أو عقبة . فأبدى الأستاذ المارديني تشجيعاً كبيراً ، ووعده أن يتولى الإشراف المباشر عليّ وأن يتعهدني هو ونخبة من أقرانه بدروس خاصة تناسب مستواي العلمي ، في المعهد .

وشرح الله صدر والدي لهذا الرأي ، ويبدو أنه تصور أنني راغب في أن أواصل دراستي في المدارس الرسمية ، كسائر أندادي الذين التحقوا بتلك المدارس ، فأقبل إليّ ذات يوم قبل أن يمضي بي فيسلمني أصغَر تلميذ إلى شيوخ معهد التوجيه الإسلامي ، ينصحني ويحدثني عن آماله التي يعلقها عليّ .. وقال لي فيما قال :

اعلم يا بني أنني لو عرفت أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطرق ، لجعلت منك زبالاً ، ولكني نظرت فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه ، فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق .

ثم شدد عليّ وأكد كثيراً ، أن لا أجعل قصدي من دراسة هذا العلم أيّ شهادة أو وظيفة .. وأخذ عليّ ما يشبه العهد أن أقتنع بأي رزق يسوقه الله إليّ وبأي عمل كريم يقيمني الله فيه .

رضيت متأثراً بكل ما قاله وأمرني به والدي رحمه الله .

وبعد أيام ، أخذ بيدي إلى حيّ الميدان الذي لم أكن رأيته ولا سمعت به إلى ذلك اليوم ، ومضى بي إلى دار الشيخ حسن حبنكة رحمه الله ، التي كانت على مقربة من جامع منجك .

استقبله الشيخ استقبالاً حاراً ، وأكرم وفادته إكرام المحب والمبجل .. وكان الوقت ضحى والطلبة من حوله ، وسلسلة الدروس مستمرة .. فجلس أبي يصغي إلى النهاية . ثم إنه حدث الشيخ بما جاء من أجله حديثاً طويلاً لم أعد أذكر شيئاً من تفاصيله ، ثم إنه تركني أمانة بين يديه وفي معهده ، ومضى عائداً إلى شأنه .

منذ ذلك اليوم انقطعت عن الدار ، وأصبحت طالباً داخلياً في معهد التوجيه الإسلامي ، لا بل طالباً في جامع منجك ، فإن اسم المعهد لم يكن قد ولد بعد . وكنت أتردد على الدار لرؤية والدي أيام الثلاثاء فقط من كل أسبوع ، أبقى عنده بياض ذلك النهار ، حتى إذا أقبل المساء استأذنته عائداً إلى منجك .

كنت أشترك مع الطلبة الكبار في الجلوس إلى دروسهم التي يتلقونها من الشيخ ، دون أن أعي منها إلا النزر القليل ، ولكني تبينت من بعدُ أن حضوري كان مفيداً .. ولكني كنتَ أتلقى بعد ذلك برنامجاً متكاملاً من الدروس المناسبة على أكثر من واحد من أولئك الطلبة الذين غدوا شيوخاً وأساتذة لي ، وفي مقدمتهم الشيخ محمود المارديني الذي كان المشرف الأول عليّ .

وفي أيام الثلاثاء كنت أتلقى على والدي مزيداً من الدروس .. تلقيت عليه دروساً في النحو وفي البلاغة ، وقد حفظت على يديه عقود الجمان للسيوطي ، كما درست عليه كتباً في المنطق ، والمقولات العشر ، ودرست عليه شرح جمع الجوامع في الأصول .

كان أبي سعيداً بارتباطي بذلك المعهد .. على الرغم من أن انقطاعي الكلي عن الدار كان يوحشه ، كما قد علمت ، وكان يكلفه الكثير من شؤون البيت وأعبائه التي كان يجب أن أكون أنا القائم بها . ولعلّ مما زاده سعادة وعوناً في تحمّل تلك الأعباء بصبر ، الصلة التي كانت تزداد حرارة وعمقاً بينه وبين شيخ المعهد الشيخ حسن حبنكة رحمه الله .

فتن ، من نصائح الرفاق :

كان لي رفاق في الحي من أيام الطفولة ، اتجه البعض منهم فيما بعد إلى مدارس رسمية حكومية ، واتجه آخرون إلى صناعات أو مهارات حرفية .. فكان البعض منهم إذا رآني ، وعلم انقطاعي لطلب العلم في ذلك المسجد ، نصحني وحذرني من أن سلوكي هذا لن ينتهي بي إلاّ إلى فقر يجعلني عالة على الناس .. وكان يقول أحدهم إنه ليس أمامك إلا مستقبل واحد ، هو أن تصبح مغسلاً للموتى أو مؤذناً أمام الجنائز .. ويعود أحدهم فيقول : ألم تتعلم ما يكفيك لمعرفة دينك والقيام بوظائفه ؟ فلماذا تضيع عمرك في المزيد الذي لا حاجة إليه ؟!..

فأذكر أن تلك النصائح والتحذيرات ، كانت تطرق سمعي ، ثم لا تترك أي أثر في نفسي . ولم أكن أزيد على أن أقول لهم : عهدً ألزمت نفسي به تجاه أبي ، لن أنكثه ولن أحيد عنه !.. وأتساءل اليوم عن الوقاية التي كانت تحميني من تلك التشويشات الخطيرة ، ولم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمري بعد . فلا أتبين إلا وقاية واحدة كان يحميني الله عز وجل في داخلها :

كنت أنفِّذ نصيحةً ، بل أمراً أمرني به أبي : أن أتلو سورة يس صباحَ كل يوم ، ومساءه إن استطعت ، وأن أهدي ثواب تلاوتها إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، وبعض العلماء الربانيين من رجال السلف الصالح ، أجل .. فلقد كنت ، ولا أزال ، أنفذ هذه الوصية بدقة جهد استطاعتي .

كيف تزوجت وأصبحت عديلاً لأبي :

ولما أصبحت في الثامنة عشرة من عمري ، أصر رحمه الله على أن يزوجني ، وكان يميل إلى القول بوجوب تزويج الوالد ابنه ، إذا بلغ مبلغ الرجال ، وعلم أنه بحاجة إلى الزواج ، وكان في وسع والده أن يزوجه ، مستدلاً على ذلك بالحديث الذي رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه ، فإذا بلغ فليزوجه . فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً فإنما إثمه على أبيه » ولم يكن يبالي بما قد يقال من ضعف الحديث .

لما عرض علي الزواج ، فوجئت من عرضه هذا بما لم أكن أتوقع ، ولم أكن أفكر فيه أو أتهيأ له . فاستعفيته وأكدت له عدم رغبتي في الزواج ، ولكنه أصر على رأيه ، وأخذ يقرأ لي صفحات من كلام الإمام الغزالي في الإحياء عن الزواج وضرورته وفوائده .. ورأيت أن إصراري على الرفض مقابل إصراره على التزويج سيزجني في معنى من معاني العقوق . فرضيت بما قد أصرّ عليه .

وخطب لي شقيقة زوجته التي كانت تكبرني بعدة سنوات ، وقبلت بذلك انصياعاً لرغبته وتلبية لأمره ، وكنت أعلم أنه يمرّ بحالة عسر ، وأن أقل ما يتطلبه مشروع زواج ، من المال ، غير متوفر لديه .

فأذكر أنه باع جزءاً من الكتب العزيزة عليه في مكتبته ، ليوفر ما يمكن أن يكون عوناً لتحقيق رغبته تلك .

وتزوجت .. وكان لي في ذلك الخير الكبير والحصن المنيع .

وكان من أهم ما شرح صدري ، وأثلج فؤادي باستجابتي لأمر أبي ، أنه طرق باب غرفتي ذات صباح وأنا نائم بعد رجوعه من صلاة الصبح في المسجد ، وكان ذلك بعد زواجي بأسبوع تقريباً ، وراح يناديني بصوت مرتفع قائلاً : أنت لا تزال نائماً ، والبشائر التي جاءتك تستوجب أن تقطع الليل كله ساجداً شاكراً !!..

واستيقظت على صياحه ، وخرجت أسأله عن البشائر التي يعنيها . فقال : رأيت الليلة في الرؤيا رسول الله ﷺ مقبلاً ومعه ثلة من الرجال علمت أنهم من أصحابه ، وقال لي : جئنا لنهنئ سعيداً بزواجه !..

كانت هذه البشارة أول ما أشعرني بسعادة ذلك الزواج ، ثم تلا ذلك الخير الكبير الذي أكرمني الله به واليمن الوفير إلى هذا اليوم .

عود إلى معهد التوجيه الإسلامي :

بقيت أدرس في ذلك الجامع الذي تحول بعد ذلك إلى ما يسمى بمعهد التوجيه الإسلامي ، إلى أوائل عام ١٩٥٣ ، والحق أنني استفدت كثيراً خلال تلك السنوات ، وإني لأعدّها السنوات التأسيسية في حياتي العلمية ، وقد كان أكثر أولئك الطلبة الكبار أساتذة لي ، بالإضافة إلى كل من الأستاذين والمرشدين اللذين أخذت منها الكثير والكثير ، هما أبي وشيخي الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمها الله .

ولكن الخطة الإلهية الخفية فاجأتني بالوصول أخيراً إلى جدار مغلق لا يتأتى اختراقه . فقد انتهى أمد دراستي في ذلك المكان الذي كان قد تحول إلى معهد شرعي نظامي ، وطُلِبتُ من جراء ذلك إلى الخدمة العسكرية الإلزامية[1] . ولم يكن أمامي من سبيل للتأجيل سوى أن أواصل دراستي على مستوى جامعي مقبول .. ولم تكن كلية الشريعة في جامعة دمشق قد افتتحت بعد . فكان سبيلي إلى تأجيل الخدمة الإلزامية محصوراً في أن ألتحق بكلية من كليات الأزهر !..

استخار أبي واستشار .. وأخذ يقلب الأمر على وجوهه ، وهو الذي حذرني من السعي لنيل الشهادات والبحث عن الوظائف . ثم إنه يخشى عليّ مما قد سمع من أحوال مصر وكثرة الفساد فيها .. ولكن ما العمل ؟.. لم يكن له أمام هذه النهاية من خيار .

لقد لاحظ أخيراً أنه ترتيب رباني ، جاء فوق ترتيبه ورغباته . ولا شك أن هذا الترتيب الرباني الذي ليس له فيه من إصبع أو خيار ، هو الخير .

أخيراً وجهني إلى الوجهة التي لا بديل عنها .. ونصحني فأطال النصح ، وعاد فذكرني بأن لا أجعل ذهابي إلى الأزهر سعياً وراء شهادة ، أو رغبة في الحصول على وظيفة .. وجدّدت أمامه العهد وأكدت له سلامة القصد ، ومضيت فالتحقت في ذلك العام ذاته بكلية الشريعة في جامعة الأزهر .

ومضت الأيام ، وحصلت على إجازة كلية الشريعة من الأزهر عام ١٩٥٦ . وعدت إلى دمشق ملتزماً بما قد أخذه عليّ أبي .. ولما أعلنت وزارة التربية في نهاية ذلك العام عن مسابقة لوظائف تدريس التربية الدينية في المدارس الإعدادية والثانوية ، أقبل إليّ جميع المعارف والأصدقاء يُهيبون بي أن أشترك في المسابقة ، ويذكرونني بأنها الفرصة السانحة .. ولكني رفضت بإصرار عجيب . ولم أشأ حتى أن أطلع أبي على هذا الضغط

---

(١) لم يكن الولد الوحيد معفياً من الخدمة الإلزاميّة آنذاك .

الذي يلاحقني . وكان عذري الذي واجهتهم به أن أبي قد أخذ عليّ ميثاقاً أن لا ألتزم بأي وظيفة ، وقد عاهدته وأبرمت أمامه العهد ، فلن أخالف اليوم عهدي معه قط .

والغريب الذي لا أتبيّن له تأويلاً بيّناً قط إلى هذا اليوم ، أن أبي رحمه الله ، عاد في العام التالي فغير رأيه ، وأذن لي ، بل طلب مني أن أشترك في المسابقة التي أعلنت في ذلك العام !.. فاشتركت ، ونجحت ، ودخلت بدءاً من ذلك العام في سلك التدريس[1] .

ينبغي أن أعلن هنا أن الله لم يضيعني ، ولم يتركني عالة على الناس كما قد خوفني بعض الأصدقاء بل أغدق عليّ من النعم ما لا يحصيه العد ، وما لم يكن لي فيه من مطمع قط . لم يتحقق شيء من ذلك بتدبير مني ولا من أبي ، ولا كان شيء من ذلك كله متوقعاً ولا داخلاً في الحسبان ، ولكنه المصداق الدقيق لقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٦٥/٢ ـ ٣] وإن في أولئك الأصدقاء ، الذين كانوا يلاحقونني بتحذيراتهم المخيفة ، من قد وقعوا في شر مما حذروني منه !..

كيف كان يأخذ الأهلَ والأولادَ بتربية من ذكر الله :

كان الجانب المتميز في تربية والدي لأهله وأولاده ، أنه يذكرهم بالله في كل مناسبة ، ويجعل من كل حال يصيرون إليها أو يتقلبون فيها مناسبة لتذكيرهم بسطوة الله أو برحمة الله أو بكرمه وإنعامه .

(١) قد تكون الحكمة ، أنه رحمه الله ، كان يريد أن يسمو برغبتي عن التعلق بالوظائف ، وأن لا أبتغي بعلوم الشريعة والدين ، حظوة دنيوية ، فقد كان يرى أنها جريمة كبرى في حق الله عز وجل .. فلما تصور أنني قد تحققت فعلاً بما أراد ، لم يعد يجد مانعاً من أن أستجيب لوظيفة دينية هي التي سعت إليّ ، ولم أستخدم معارف الدين وعلومه للسعي وراءها .

كان إذا وضع الطعام واجتمعنا معه على مائدته ، أمرنا جميعاً أن نجلس جلسة أدب ، حتى لكأننا ماثلون من هذه المائدة أمام الله .. وكم كان يطيب له أن يقول لنا في نشوة معدداً ألوان الطعام الذي أمامنا : هذا لون ، وهذا لون ثان ، وهذا ثالث ، وهذا رابع .. ألا تسألون ؟.. ماذا صنعنا لله عز وجل ، ومن نحن ، وما قيمتنا حتى يكرمنا الله بهذا كله ؟ ثم يردد قول الله عز وجل ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ١٠٢/٨] .

كان الصغار والكبار يتأثرون بهذا التذكير .. وكم شعرت ، بل شعرنا جميعاً ، ونحن نأكل ، أننا في عبادة من أجلّ العبادات .

ومنذ عشرات السنوات ، كان رحمه الله ، يجمعنا على ورد من ذكر الله صباح كل اثنين وخميس بعد صلاة الفجر ، فكان يجتمع إليه في مجلسه بعد صلاة الصبح الصغار والكبار جميعاً . فيبدأ ويبدؤون معه بذكر (لا إله إلا الله) مئة مرّة ، ثم ينتقل بهم إلى ذكر لفظ الجلالة (الله) مئة مرة[1] ، ثم يقرأ ويقرؤون معه حزب الإمام النووي ، وهو مجموعة مأثورات من الأدعية والثناء على الله والالتجاء إليه . ولا بدّ أن يوزع عليهم بعد ذلك ولو شيئاً رمزياً من الدراهم اليسيرة أو الحلوى .. وكان يوصينا جميعاً أن لا ندع هذا الورد الجماعي في هذا الميقات بهذا الشكل . وإنني لأحمد الله عز وجل أن وفقنا جميعاً : أولاده وأحفاده ، لأن نكون إلى هذا اليوم ملتزمين بوصيته مثابرين على النهج ذاته وفي المواقيت ذاتها .

(١) لا يعكرن عليك صفو هذه الحقيقة التي لا يتيه عنها أي مسلم صدق مع الله في إسلامه ، ووقر حب المولى عز وجل في قلبه ، الجدل الذي يثيره بل يختلق موجباته بعض الناس حول مشروعية أو عدم مشروعية ذكر الله بالاسم المفرد .. وحسبك لتنجو بقلبك من هذا الجدل المهلك أن تذكر قول الله عز وجل ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل : ٧٣/٨] فإن أول اسم من أسمائه تعالى هو لفظ الجلالة (الله) وهو اسم مفرد . فأعجب لمن يجادل الله في أمر من أوامره ، دون أن يشعر .

وكم يطيب لي ويسرني أن أدعو إلى الالتزام بهذه الوظيفة اليسيرة في جهدها ، العظيمة في آثارها ، كل من عرف والدي فأحبه ، وكل من سمع به أو تعرف على سيرته من خلال هذا الكتاب ، فلسوف يجد بركة ذلك في نفسه وأهله وأولاده ، ولسوف يجد آثار ذلك سعادة وأنساً في بيته .

ولعل من أداء الأمانة ـ وقد اقتضت المناسبة ـ أن أروى للقارئ هذا الخبر الذي لن أزيد فيه على الواقع ولن أنقص منه شيئاً .

كان أبي رحمه الله يمضي أيام نقاهة قبل وفاته بعام ونصف تقريباً ، في دارٍ لأحد الأصدقاء في بلودان . وجلسنا معه بعد صلاة الفجر من أحد أيام الاثنين أو الخميس ، نتلو هذا الورد الذي وصفته قبل قليل . كانت الغرفة التي نحن فيها مطلة على شرفة واسعة لدار تحتها . وكان بعض الفتيات يجبن على ما يبدو ، تلك الساعة ، على أرض تلك الشرفة .. فلما انتهينا من وردنا ذاك وطلع النهار وامتدّ الضياء ، طرق الباب علينا طارق ، كانت بنات الجيران هنّ اللائي جئن يسألننا عن شيء رأينه وأدهشهن في ذلك الصباح .

رأين طيوراً كثيرة في غبش الظلام بعد صلاة الصبح ، سوداً أو بيضاً ، لم أعد أذكر ، تخرج أرسالاً متتابعات من الغرفة المطلة على شرفتهم والتي كنا نذكر الله فيها في ذلك الوقت . وكان السؤال الذي يثير عجبهن : ألم تروا تلك الطيور الكثيرة وهي تخرج من عندكم ؟

قلنا : إننا لم نجد شيئاً ، ولكننا كنا في تلك الساعة مجتمعين جميعاً نذكرّ الله عز وجل .

الأثر الذي تركته فينا هذه التربية :

والحق أنه مامنا إلا من اصطبغ بآثار هذه التربية التي أخذنا والدي بها ، شعوراً وعاطفة وسلوكاً . لقد كانت دارنا ولا تزال متميزة بهذه الصبغة .

وإنه لتعود بي الذكرى الآن إلى يوم فريد في حياتي ، شعرت فيه لأول مرة بعد يقظة من نوم ، أنني قد بلغت مبلغ الرجال ، واجتزت حدود عهد الطفولة من حياتي .

لقد تملكني آنذاك شعور غريب . واهتاجت في نفسي موجة عاتية من الوحشة والأسى ، إذ تبينت أنني قد دخلت في عهد التكليف .. وأن صحيفةً قد هيئت باسمي لمراقبة أعمالي منذ هذه الساعة . وقد غدوت من اليوم فما بعد هدفاً لمراقبة الملكين .. ولقد أخذني يومها تيارٌ من البكاء ، لم أستطع التغلب عليه إلا بالالتجاء إلى أبي !.. أجل فلقد دخلت عليه غرفته وأخبرته ـ ويا للعجب ـ بكل ما رأيت ، وبثثته مشاعري تلك ، ونشيج البكاء يتغلب على حديثي .

فهدأ من روعي رحمه الله ، موضحاً أن دخول الإنسان في عهد التكليف يحمل إليه من الخير أضعاف ماقد يعرضه للشر . فالأجر على الأعمال الصالحة والمثوبة التي يدخرها الله للعبد ، وسبل الوصول إلى محبة الله ورضوانه ، إنما يبدأ ذلك كله بدخول الإنسان في عهد التكليف .

إنني لأذكر ، فأعجب اليوم ، كيف جلست فصارحت أبي بهذا الذي كان الشباب ، ولا يزالون ، يخفونه عن أهليهم ؟.. إن الذي جعلني أخترق حدود هذا الحياء ، ذلك اللهيب الذي أخذ يتلظى بين جوانحي ، فلم يكن لي من سبيل إلى إطفائه إلا بالالتجاء إليه .

ولكن من أين جاءت هذه المشاعر ؟ وما الذي أوقد بين جوانحي هذا اللهب ؟

إنها تلك التربية الربانية التي كان يأخذنا بها أبي ، ويلاحقنا بها في كل صباح ومساء .

ولم يكن ، رحمه الله ، يعتد بأثر التربية التي كان يأخذ بها أهله وأولاده ، إن تمثلت في مجرد علم يحفظ وأقوال تروى .. وإنما كان يعتدّ بها عندما تتمثل في شعور من

الحب والخوف والتعظيم والتبجيل .. ولذا فإنه لم يكن يكترث لما كان يسمع بين الحين والآخر عن تفوقي في دراسة ، أو اهتمامي المتواصل بالعلوم والسعي إلى التحقيق فيها ، على أنه كان يوصي بالعلم ، كيف وهو الذي قال لي ذات يوم : نظرت ، فوجدت أن الطريق إلى الله هو العلم به وبدينه .. ذلك لأنه كان يرى العلم ـ على أهميته ـ وسيلة لا غاية .

لقد كان يفتش في كياني عن الغاية التي تكمن وراء العلم ، أفتحققتُ بها أم بعد ؟

ولقد دعاني ذات يوم ، في مجال تفتيشه هذا ، فطلب مني أن أصوغ له ما يشبه قصيدة أو أبياتاً ، في الحب وحوافزه ومكنونه .

ولم أعد أذكر ، كم كان لي من العمر آنذاك .

المهم أنني اعتذرت ، بأنني لا أتقن الكتابة أو الخوض في هذا الموضوع .. فأذكر أنه تأثر مغضَباً من اعتذاري هذا . ويبدو أنه رأى في اعتذاري ذاك دليلاً على أن معظم جهوده التربوية قد ضاعت سدى .

ومرت أيام ، بل سنوات ، تشرب فؤادي خلالها وهجاً من مشاعر الحب التي كان يبحث أبي عن أثر مّا ، لها في قلبي ، وساقتني هذه المشاعر إلى وقفة أمل وحب ورجاء بين يدي الله تعالى ، ثم إني سجلت هذه المشاعر وكتبتها تحت عنوان : مناجاة قلب كسير .

قلت لأبي : أتذكر يوم طلبت مني أن أصوغ كلاماً يعبر عن الحب كما تفيض به مشاعري ، فاعتذرت ؟ قال نعم .. قلت فها أنا اليوم قد أتيح لي أن أنفذ ما طلبت .. لقد كنت أنتظر أن أتمكن من صوغ ما تريد بصدق وانفعال ، لا بتكلف وافتعال .

وقرأت له ما كتبت ... فتهلل سروراً رحمه الله ، ولعله استبشر وأيقن أن هذا الذي استشعر قلبه وهجاً من قبس الحب ، لا بدّ أن يقوده الوهج إلى حيث الينبوع والمصدر ... وإنما مصدر كل حب وينبوعه ، محبة الله عز وجل .

عباداته ، زهده ، وورعه

كان أبي ـ كما سبق أن قلت ـ ميالاً ، منذ صدر حياته وأيامه الأولى في الاتجاه إلى طلب العلم ، إلى كثرة العبادة ، وكان فريداً في هذا الاتجاه بين زملائه .

والواقع أن هذا الاتجاه كان يتنامى في نفسه ، كلما تقدمت به السن ، وكلما ازداد عراكاً مع التجارب والأحداث .. فلكأن الحياة التي يمرّ بها ، كانت تزيده شعوراً بمدى عناية الله به وفضله عليه وحمايته له من الكثير من السوء الذي أحدق به ، ثم صَرِفَ عنه ، فكان شعوره المتزايد بمن الله عليه يدفعه إلى مزيد من الإقبال عليه والتبتل بين يديه .

غير أن العبادة في حياته رحمه الله ، لم تكن محصورة في نوع من أنواع معينة من الطاعات ، بل كانت أحواله المختلفة وتقلباته المتنوعة ، مصبوغة بمعنى العبادة موصولة بشعور فياض من التبتل لله أو الخوف منه أو الثناء عليه .

وقد يظن بعض من يقرأ هذا الكلام أنه ينطوي على شيء من المبالغة .. وإني لأذكّر الإخوة القراء بما قد ألزمت نفسي به في مقدمة هذا الكتاب ، من أنني سأبتعد كل الابتعاد عن أسلوب التضخيم والتهويل وجمع الألقاب أو المبالغة في الوصف . وأنني لن أبيّن إلا وقائع جرت وأحداثاً وقعت ومشاهدات سجلت .. ولعل القارئ يلاحظ أنني إلى الآن لم أجنح إلى استعمال أي من ألقاب التفخيم ، ولم أرصف أياً من عبارات التبجيل والثناء ، وهذا هو النهج الذي سأسير عليه إلى النهاية بإذن الله .

كان أبي متعبداً من خلال الصلوات المتنوعة وإكثاره منها ، وكان متعبداً بتلاوة القرآن والمداومة عليها ، ومن خلال مناسك العمرة والحج وما تميز به من أعمال وأحوال

فيهما .. وكان متعبداً من خلال خلواته في غرفته الصغيرة مفكراً ومتأملاً في العمر الذي قطعه ، والهجرة التي وفقه الله لها والنعم التي أكرمه بها . وكان متعبداً من خلال أوراده وأذكاره الكثيرة التي كان ملازماً لها ، وكان متعبداً من خلال زياراته للصالحين سواء منهم الأحياء والأموات . وكان متعبداً من خلال دروسه المتميزة للناس الذين كانوا يغشون مجالسه .

وها أنا أفصّل القول في كل من هذه الجوانب والأحوال ، بالقدر الذي أتذكر وأتأكد .

صلواته ، وتهجده :

كان مكثراً من النوافل ، سواء منها المؤكدة وغيرها ، فلم يكن يدع وقتاً يمرّ للشارع فيه صلاة مستحبة ، إلا وقام فصلاها ، مؤثراً دائماً النهاية العظمى في عدد الركعات على النهاية الدنيا . ما لم يكن معتلاً بعلّة تقعده عن أداء هذا الالتزام . وسواء ورد استحبابها في أحاديث صحيحة أو ضعيفة ، فقد كان يعزز الضعيف منها ويدعمه بقول رسول الله في الحديث الصحيح : الصلاة خير مشروع ..

وكان حرصه على التهجُّد لا يقل عن حرصه على الفرائض .. ولم يكن يقنعه من ميقاتها قبل الفجر دقائق معدودات بل كان يصرّ على أن يقوم قبل الفجر بساعتين أو ثلاث ساعات .. كان يصلي أولاً ركعتين خفيفتين ، ثم يطيل الركعة من صلواته التالية ما شاء الله أن يطيل .. فإذا دخل السحر جلس على سجادته ، وأسلم نفسه لمشاعر الحزن ، من تقصيره والخوف مما هو مقبل عليه ، وأخذ يناجي الله آناً بالعربية وأخرى بالكردية مع نشيج وبكاء متواصل .

ولكم استيقظت على صوت بكائه وحديث نجواه ، يوم كنا جميعاً نسكن في غرفة واحدة ، في السنوات الأولى من وصولنا إلى دمشق .. ولكم سمعته في أوقات السحر

وما قبلها ، يتحدث عن الموت وما بعد الموت وما هو مقبل عليه .. ثم يردد باكياً هذه الأبيات[1] التي رسخت في ذهني منذ تلك الأيام :

يامن يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المُعَدُّ لكل ما يُتَوقع

يا من خزائن جوده في قول : كن ... أُمنن فإن الخير عندك أجمع

ما لي سوى فقري إليك وسيلةً ... فبالافتقار إليك فقري أدفع

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رُدِدْتُ فأي باب أقرع ؟

حاشا لجودك أن يقنِّط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

ثم إن صلاته لم تكن كصلاة أحدنا ، تلاوةً باللسان ، وحركات مألوفة بالجذع والأعضاء ، مع قلب منصرف إلى الدنيا وشؤونها ، محجوب عن كل ما يتلوه ويردده اللسان ، بل كان إذا دخل في الصلاة تحول إلى كتلة من التذلل والصَّغار بين يدي الله ، وانساق في ذلك جسمه ومظهره وراء أحاسيسه ومشاعره المنصرفة إلى مناجاة الله عز وجل .. ولكم انتابته أحوال وهو في الصلاة ، خالياً في غرفته ، أو علناً في محراب مسجده .. وربما انتابته حال في مجلس له ، فقطع المجلس وقام إلى الصلاة .

حدثني الأستاذ الشيخ خير العلبي ، وهو من الرعيل الأول من طلاب وخريجي معهد التوجيه الإسلامي ، أنه كان جالساً في زيارة لوالدي ذات صباح . فطلب منه والدي أن يسمعه بعض الأبيات ، وللشيخ خير العلبي صوت شجي وروحانية نامية ، فأخذ ينشد له أبياتاً ، لم يتح لي أن أعرفها أو أحفظها ، فأخذ يصغي إليها بخشوع وأدب ، كما لو كان يصغي إلى قرآن ، ثم أخذته حال ، وصاح صيحة أفزعت الشيخ المنشد .. ثم إنه ترك الإنشاد والمنشد ، وقام يصلي !..

(١) وهي للإمام أبي القاسم السُّهيلي صاحب الرَّوض الأُنُف .

كان رحمه الله يأخذ على كثير من طلاب العلم ، والإسلاميين الذين يرون أنهم يشتغلون بالدعوة ، أنهم لا يقبلون من الصلاة إلا على وظائف عضوية يؤدونها ، وألفاظ محفوظة يرددونها .. ثم إن أحدهم يقف حتى في صلاته التي هو فيها مع الله ، وقفة المعتز بشأنه المتباهي بنفسه ، يميل رأسه إلى الأعلى ، ويمدّ ساقاً ويعدل أخرى .. وكم كان يحذرني بشدّة من أن أركن إلى عادة هؤلاء الناس فأبتلى بمثل هذا الصلف . في وقت لن يكون الإنسان أكثر مهانة وذلاً منه في هذا الوقت .

تلاوته وحفظه للقرآن :

اتجه أبي منذ شبابه إلى حفظ القرآن ، ولكنه لم يتم حفظه إلا بعد استقراره في دمشق ، بسنوات لم أعد أذكر كم هي .

والمهم أنه كان كثير التلاوة للقرآن ، أما قبل استكمال حفظه له فعلى طريق إكمال حفظه ، وأما بعد أن أتم حفظه ، فعلى سبيل المحافظة على المحفوظ ، واستئناساً بكلام الله وتدبراً لمعانيه ومراميه .

كان يختم القرآن في كل أسبوع مرة ، وكان يلزم نفسه بقراءة خمسة أجزاء في كل يوم ، يبدأ الختمة يوم السبت ، ويختمها الخميس ليلاً أي ليلة الجمعة . ويجعل من الجمعة يوم راحة للقيام بوظائف أخرى .

وقد بقي محافظاً على هذا الالتزام طبق هذا النظام ، إلى ماقبل وفاته بأشهر ، مع استثناء أيام مرضه الذي انتابه في السنوات الأخيرة من حياته ، وهما مرضان . أبلّ من أحدهما وعوفي منه وعاد إلى أعماله ودروسه لعدة سنوات ، وامتدّ به الثاني ما بين شدة ولين إلى أن وافاه الأجل .

وكان يتلو القرآن حدراً ، وكثيراً ما كان يطلب مني أو من أحد أولادي أن يتابع ويضبط له حفظه في القرآن . وكانت تستوقفه الآية أو الجملة من الآية بين الحين

والآخر فيتأمل في دلالتها ومغزاها متأثراً متخشعاً ، أو يتساءل عن العمق الكامن في دلالتها ، مراجعاً ومنقباً عن ذلك في بطون التفاسير .

وإذا نالت الآية منه منالاً ، بقي أياماً بل أسابيع عدة يتدبّرها ويعيش معها ويتحدث عنها وعن تأثره بها للناس في دروسه ومناسبات وعظه .

من ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣/١١] ، فقد فعلت هذه الآية في نفسه أفاعيل كثيرة ، لا سيما قوله عز وجل : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمرُ كُلُّهُ ﴾ . ولكم رددها في المناسبات وهو يتحدث عما في داخلها من دلالات .

ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤/٧] وهو جزء من الآية الرابعة والخمسين في سورة الأعراف . كانت تمتلك عليه هذه الجملة (ألا له الخلق والأمر) عقله ولبه ، فلم تكن تبارح فكره في تقلباته وأكثر أحواله ، وكم كان ينتشي بتردادها في المجالس والتنبيه إلى غزير معانيها وعظيم مراميها .

ومن ذلك هاتان الآيتان اللتان كانتا تزجّان به في هم واصب ، واضطراب نفسي أليم ، وخوف من سواء المصير ، وهما قول الله عز وجل :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُم فَالْتَمِسُوا نُوراً ، فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ، يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ ﴾ [الحديد : ١٣/٥٧ - ١٤] .

كانت تَبْهَرُهُ هذه الصورةُ التي يمثلها كلام الله هذا ، لحال المنافقين يوم القيامة ، إذ يحاولون كشأنهم في دار الدنيا ، أن يندسوا في صفوف المؤمنين الصادقين ويتظاهروا

بصفاتهم لينالوا من مغانمهم وأعطياتهم ، ولكنهم يُميَّزون عنهم ويطردون من صفوفهم ، ويقال لهم : عودوا فالتمسوا لأنفسكم الخير فيما قد تركتم في دنياكم .. فلقد انطوى ذلك العهد الذي كان القضاء فيه بين الناس حسب ما يبدو لهم من الظواهر ، ومن ثم فقد كان المجال متسعاً لنفاق المنافقين وكذب المخاتلين .. أما اليوم فالمحكمة هي محكمة الله والقضاء إليه وحده ، وإنما يتبع الحكم اليوم ما كانت تكنّه القلوب لا ما تظهره الألسن والجوارح ..

كان يردد هاتين الآيتين في كثير من الأحوال والمناسبات ، ويفيض في بيان دلائلهما والمخاوف الكامنة في تضاعيفهما .. وكم كان يدعو في أقصى ما يمكن أن تتصوره من ضراعة وتذلل ، أن لا يجعله الله يوم القيامة ممن يقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . ولسوف نعرض طائفة من أدعيته هذه فيما بعد إن شاء الله .

هذه الأمثلة من الآيات التي ذكرتها غيض يسير جداً من فيض كبير كبير .. فقد كان شأنه الوقوف على معالم الآيات يمضي وقتاً طويلاً في التأثر بها ، أو التدقيق في معانيها والغوص في فحواها وعمق دلائلها .

أذكاره وأوراده :

إذا استثنينا الأوقات التي كان مشغولاً فيها بالصلاة ، والأوقات التي يتناول فيها طعامه ، والتي يسلم نفسه فيها إلى الرقاد ، فقد كان كل ما بقي من أوقاته وساعات عمره مليئاً بالأذكار والأوراد ، على أن لا ننسى أن الاشتغال بالعلم وتلاوة القرآن ، من أجلّ أنواع الذكر . كان ذاكراً حتى في الطريق الذي يمشي فيه ، وكان يمزج ، جهد استطاعته ، سائر معاملاته الدنيوية ، بذكر الله عز وجل .

فإذا طافت به غاشية من الغفلة في ساعة ما ، عاودته الصحوة إلى الله سريعاً ، وأقبل من جديد يشتغل بذكره ووره .

وقد كان رحمه الله يظل يتذكر دقائق مرت به يوماً ما ، كان يعدّها من أوقات غفلاته التي مرت به ، ولكنّ الله تداركه فأرسل إليه من ينقذه منها .

قال : كنت في ضاحية من ضواحي بيروت - وقد كان ذهب إلى لبنان لخدمة مريض من أهالي الجزيرة - أتأمل في حديقة تفيض بأشجار الليمون ، وقد تألقت بالزهر ، وفاحت رائحتها العبقة في المنطقة كلها ، واسترسلت أتأمل .. وقد جمعت يديّ خلف ظهري .

قال أبي : وإني لكذلك ، إذ بيد تمسك بساعدي ، من ورائي .. والتفتّ فرأيت رجلاً لا أعرفه ، ولا أذكر أني قد رأيته . سلّم عليّ ثم قال : هل لك أن تدلني على بيت صباغ الليمون ؟.. قلت له : أنا غريب عن هذا المحيط كله ، ولا أعرف أحداً فيه .

فنظر إليّ قائلاً : وأنا غريب مثلك !..

قال أبي : فكأنما استيقظت من سبات ، وعلمت ما يعني الرجل . وقلت له : قلب المؤمن !..

لا أدري ما الحوار الذي جرى بينهما فيما بعد .. ولكنه رحمه الله كان يرى في سؤال هذا الرجل الذي ربما كان من الصالحين ، إيقاظاً له من غفلته ، إذ انصرف بذهنه عن التأمل في مبدع الليمون وزهره وفوح عبقه ، إلى التأمل في مخلوقه ومصنوعه .

وكان قد أرسل إليه أحد معارفه من ماليزيا يسأله عن أذكاره وأوراده في الليل والنهار ليقتدي به فيها . فأرسل إليه ببيان أذكاره وأوراده التي يحرص عليها كل يوم وليلة ، بما فيها المأثورات المعروفة بعد الصلوات ، وبعد الاستيقاظ من النوم ، وبعد الوضوء .. إلخ .

وهذه المأثورات معروفة ومثبتة في مثل كتاب الأذكار للإمام النووي رحمه الله .

ولكني أثبت هنا ما وراء ذلك من الالتزامات التي كان مثابراً عليها في كل صباح ومساء ، كما ورد في جوابه عن رسالة الرجل المااليزي .

- قراءة سورة ياسين في كل صباح ومساء .
- قراءة سورة السجدة والواقعة والملك في كل مساء .
- مئة مرة : « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله » قبل صلاة الفجر .
- عشر مرات : « لا إله إلا الله » ومثلها « سبحان الله » ومثلها « الحمد لله » ومثلها « أستغفر الله » مابين أذان الفجر وصلاته .
- مئة مرة : « أستغفر الله الحي القيوم وأسأله التوبة » في كل صباح ومساء .
- مئة مرة سورة الإخلاص ، في كل صباح ومساء .
- مئة مرة « لا إله إلا الله » ، في كل صباح ومساء .
- مئة مرة « اللهم صل على النبي الأمي محمد وعلى آله وصحبه » في كل صباح ومساء .
- مئة مرة « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » كل يوم .
- مئة مرة « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » كل صباح ومساء .

- هذا بالإضافة إلى مأثورات كان يتلوها في كل صباح ، يطول بنا بيانها ونقلها . مثل ورد الإمام النووي ، ومثل هذه الكلمات : « سبحان الله العلي الديّان ، سبحان الله شديد الأركان ، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار ، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن ، سبحان الله المسبح في كل مكان » . « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك مما لا أعلم ، إنك أنت علام الغيوب » ثلاث مرات .

ثم يقول : بسم الله ما شاء الله ، لا يسوق الخير إلا الله . بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله ، بسم الله ما شاء الله ، ما كان من نعمة فمن الله .

كما كان يحرص على تلاوة القصيدة المضرية للبوصيري صباح كل يوم ، وهي التي تبدأ بـ :

يارب صل على المختار من مضر والأنبيا وجميع الرسل ما ذكروا

وكان يبدأ بأوراد الصباح مع الفجر ، أما أوراد المساء فيبدأ بها بعد صلاة العصر ، فإذا شغل بعد العصر بدرس أو نحوه ، حاول جاهداً أن يقضي ما فاته بعد ذلك .

وبالجملة ، فلم يكن يُرَى في غرفته الصغيرة التي كان يلازمها إلا مشتغلاً بقراءة قرآن ، أو منهمكاً بالتحقيق في مسألة علمية ، أو حاملاً سبحة لقراءة ورد[1] .

وكان يحسن استقبال زائريه الذين يأتون ابتغاء فوائد دينية أو حاجات دنيوية مما يستطيع تقديم يد العون فيها . فإذا رأى أن مهمته انتهت ، وأنه أنجز ما قد طلب منه ، عاد إلى سبحته يواصل ذكره ووره .

(١) كان يكره حمل السبحة للتظاهر أو التلهي والعبث بها ، بمقدار ما كان يتعلق بها لإحصاء ورده من الأذكار .. ولعلك تسأل : إن في الناس من يقول إن استعمال السبحة بدعة محرمة . فما تحقيق ذلك ؟ وأقول لك في الجواب : إن رسول الله ﷺ ندبنا إلى أن نسبح الله في اليوم مئة مرة ، كما ورد ذلك في صحيح مسلم . فقل لهؤلاء الناس : كيف السبيل إلى ضبط هذا العدد ؟.. وأياً كان السبيل المقترح ، فينبغي أن يكون بدعة ، لأن السنة لم تنصّ عليه .. والتفريق بين أداة وأخرى لهذا الضبط تحكّم باطل .. ولو عقل هؤلاء الناس لعلموا أن في الشريعة الإسلامية قاعدة تقول « ما لا يتم المطلوب إلاّ به ، فهو مطلوب » فإذا لم أتمكن من أداء ما هو مطلوب مني من الاستيقاظ إلى صلاة الصبح ، إلا بالاستعانة بمنبّه ، فإن الاستعانة به مطلوبة .. وليس في العقلاء إلا من يدرك هذا الكلام ويؤيده . فإن رأيت من يتجاهله على الرغم من هذا البيان ، فاعلم أنه دلاّل على بضاعة فتنة . فإياك وإياه !..

أدعيته ومناجاته :

كانت له رحمه الله ـ بالإضافة إلى الأدعية المأثورة التي يحفظها ويرددها ـ أدعية أخرى ، يعبّر بها عما تجيش به نفسه من مشاعر الخوف من الله والتعظيم له والثناء عليه .

وكانت تمرّ ساعات وأوقات ، يدعو فيطيل فيها الدعاء ، ويثني على الله فيطيل الثناء . ومن أخص تلك الأوقات ، مساء الجمعة من يوم الخميس ، عندما ينتهي من ختمة القرآن . وكان يختمه على الأغلب بعد منتصف الليل ، حيث يكون خالياً في غرفته الصغيرة ليس معه فيها ولا من حوله أحد . فيدعو الله ما شاء أن يدعوه ، وربما انتابته أحوال غريبة أُخِذَ فيها عن نفسه ، وما أكثر ما استيقظت على أحواله تلك ، وأنا نائم في الغرفة المجاورة .

وقد كانت له صيغ من أدعية وألوان من المناجاة ، سجلها بخطّ يده في كتيّب له ، ويبدو أنه كان يعود إليها فيقرأها في أوقات خاصة .

ولعل من الخير أن أضع أمام القارئ بعضاً من هذه الأدعية التي كان يناجي ربه بها في أوقاته الخاصة فهي خير ما يعبر عن مكنون مشاعره ، ويصور بالغ تعظيمه لله عز وجل وباهر ثنائه عليه . وأنا أنقلها كما هي وكما قرأتها بخط يده :

هذا واحد من أدعيته :

« اللهم لك الحمد حمد أهل السموات والأرض ، من الأزل إلى الأبد ، كيف لا وأنت الحكيم الرحيم ، وأنت الغني الكريم وأنت العليم الحليم . يارب لو كانت أعضائي كلها أفواهاً ، وفي كل فم مقدار خلقك من الألسن ، وكل أعضائي أيدياً ، والأشجار كلها أقلامي ، والبحار مدادي ، ثم كنت أثني عليك بكل لسان ، وأكتب بكل يد وقلم ، بل وتكون العيون كلها عيوني ، ثم أشير بها إلى

صفاتك ، ما كان قلبي يبرد ولا يصل إلى أدنى ما تستحق من الثناء عليك ، يا من لا يعلم قدره غيره ، ولا يبلغ الواصفون صفته كيف أثني عليك وكيف أعرفك حق معرفتك وأنت خالق كل شيء وولي كل شيء .. فأنا العاجز . اللهم صل وسلم على حبيبك وصفيّك وخليلك النبي الأمي المختار ، المقدم إليك من بين المقربين والأبرار ، صلاة وسلاماً لم يصلّ بها أحدٌ من الأخيار ، دائمين متلازمين إلى يوم القرار ، تنبئان عن كل ما اشتمل عليه مضمون محمد وأحمد بل سائر أسمائه ، وعلى آله وصحبه الأخيار ، كما صليت على خليلك إبراهيم وآله ، وأنزله المنزلة المقربة عندك يوم القيامة ، فوق منازل الأبرار .

سبحانك يا إلهي ، لا أحصي ثناء عليك . وإني مؤمن بك و بجلالك وعظمتك . ولكن عمري مضى في السفاهة والجهالة فلا أدري ماذا أفعل ، فلا حول ولا قوة إلا بك ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، ناصيتي بيدك تصرّفها كيف تشاء وتريد . فيارب : اليوم ليس يوم القيامة الذي تقول فيه لأهل النار : اخسؤوا فيها ولا تكلمون ، هذا زمان الدنيا والتوبة والرجوع ، فتب عليّ يا تواب ، وبدّل ضعفي قوةً في الدين ، واجعلني من المؤمنين الأقوياء والحكماء الأتقياء .

يارب : مالي سواك خالق ولا مالك ولا نافع ولا ضارّ . فخذ بناصيتي إلى ما يرضيك . يارب : منك الفضل وإليك . يارب : رجائى إن لم ترحمني فمن الرحمن ؟، يارب : إن لم تسترني فمن الستار ؟ يارب : أسألك باسمك العفو الغفور الستار ، أن تعفو وتغفر وتستر جميع هفواتي وعثراتي .

يارب : إن المسلمين لهم صالحات وسيئات ، ولكني لا أجد لنفسي صالحاً أقدمه إليك . إن السيئات سيئات ، والأعمال الصالحة الصورية هي في الحقيقة سيئات ، فإني ما عبدتك حق عبادتك وما عرفتك حق معرفتك ، فلم يبق إلا رحمتك ، فارحمني بما ينجيني من الظلمات إلى النور الذي لا ينطفئ ولا ينقطع .

يارب : لا تجعلني من الذين ينادون ألم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني .. يارب إذا نظرت إلى نفسي وعقلي ، فإني من أهل النار والبوار ، وإذا نظرت إلى كرمك وإحسانك ولطفك بالعباد ، أرى الأمر سهلاً .. يارب : إن قبلتني أو لم تقبلني ، فإن قلبي لا يصلح لغيرك ، ولا أجد من ينقذني أو ينفعني أو يضرني إلا أنت . فلا أترك الباب يا من لا يغلق الباب على أحد . ياأرحم الراحمين ، ياأرحم الراحمين ، ياأرحم الراحمين » .

وهذه مناجاة أخرى يخاطب بها ربه عز وجل مثنياً ومعظماً وداعياً :

« اللهم لك الحمد حمد عارف أخرسته معرفته عن الكلام . اللهم لك الحمد حمد من أحصى ذنوبه ، وقبائحه ، فإذاً قد ملأت الأرض والسماء ، ثم نظر إلى عظمتك ونعمتك ، فإذا لا نهاية لها ، فاستحيا منك نهاية الحياء ، فكاد أن يتقطع جسده ويتصدع قلبه حياءً وخوفاً منك . ثم نظر إلى رحمتك ورأفتك وعفوك وسترك ، وإذاً قد عمّت السموات والأرضَ وجميع الخلائق ، فرجع روحه إلى جسده .

يارب : إذا عرفتك بأنواع المعرفة ، وأثنيت عليك بأصناف الثناء ، أنا وجميع خلقك إلى الأبد ، فهو كقطرة صغيرة رميت في البحر المحيط . ومع ذلك فهذه النقطة ليست إلا منك ، فيتسلسل الحمد ، فآخره العجز عن حمدك ، يا خالق الحمد والحامد واللفظ والمعنى والكلام . اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك النبي الأمي القرشي العربي ، محمد المختار من بين الأنام ، وعلى آله وصحبه المهاجرين والأنصار الكرام .

اللهم يا من هو بكل كمال موصوف ، ويا من هو بكل معروف معروف ، ويا من رحمته وعفوه للمذنبين بجنب قدرته وعظمته دليل لكماله وكبريائه ، بل

منتهى الكبرياء . فإنك قادر على إهلاكهم وسحقهم في طرفه عين ، فالعفو منتهى الكمال . ولا منتهى لكمالك يا ذا الجلال والإكرام .

ذنوبي وإن كانت عظيمة وكثيرة لا أحصيها ، ولكنها بالنظر إلى جودك وعفوك وكرمك ليست إلا كقطرة من أمطار رحمتك ، وليس عفوك لي من المحال شرعاً ولا عقلاً . فإنك فعال لما تريد . يارب فاجعل رجائي غير منعكس . فإنه ليس لي رب سواك ولا رحيم غيرك ، ولا مأمول إلاّ أنت . أنت مالك الرحمة كلها يا غنيّ يا كريم ، يا سميع يا عليم » .



فإذا فتر لسانه ، رحمه الله ، عن الذكر والأوراد ، اشتغل قلبه بالفكر والتأمل ..

وإنما شغله الشاغل إذا تفكر ، أن يستعيد إلى الذاكرة ماضي حياته ، منذ طفولته ، إلى عهد انصرافه عن أعمال الفلاحة والزراعة إلى طلب العلم .. إلى هجرته في سبيل الله إلى الشام .. إلى التوفيق الإلهي الذي حالفه ولم يتخلّ عنه في يوم من الأيام ، بل في ساعة من ساعات حياته !.. ثم يخرج من صمته وتأمله ، فيقول منتشياً بكل مشاعره وأحاسيسه : الحمد لله الذي خلقني من أبوين مسلمين علماني كتابه ودينه ، ثم رزقني الهجرة في سبيله إلى الأرض المقدسة ، ثم وفقني وأخذ بيدي في بلاد الغربة ، بدون جدارة مني ولا قدرة على أيّ تدبير . وأكرمني بدار ملكني إياها ، بدون توقع ولا كثير جهد أو كفاح !..

كان في خلواته ، لا يفتأ يعيش مع ذكرى هذه النعم والآلاء ، ويستعيد إلى الذاكرة جزئيات المشاهد الكثيرة التي تكرس المزيد والمزيد من دلائل فضل الله عليه ورحمته به.. وربما انتابته من ذلك أحوال ، وربما رفع عقيرته ينشد باللغة الكردية آناً ، والعربية آناً أخر كلمات يثني بها على الله ويعلن عن عجزه عن شكره الشكر اللائق به .

أما عندما يرى أمامه واحداً من أهله وأولاده ، فلابدّ أن يحدثه حديثاً طويلاً عن قصة فضل الله عليه ، إذ كان طفلاً صغيراً لا يعقل ، ثم كيف أصبح طالب علم .. ثم كيف ذهب إلى وان وبتليس متطوعاً في الجهاد ، وكيف حماه الله من سفهاء الأكراد وجلاوزة أتاتورك ، ثم كيف أكرمه بالنعمة العظمى فرزقه الهجرة في سبيله ، وكيف أخذ الله بيده فرزقه وعلّمه أصول المعايش والتجارة وهو لا يعلم منها شيئاً . ثم كيف أكرمه بعد الابن الواحد بالحفدة وأولاد الحفدة والذرية الصالحة ..

كان يقص علينا أنباء فضل الله عليه في ذلك كله ، من خلال حديث مفصّل ، فإذا وصل من ذلك إلى النهاية ، وكنا نصغي باهتمام ، أخذه ما يشبه السكر من مشاعر التمجيد لله والثناء عليه ، ثم قال لنا : والله ، والله ، لو أنّا جميعاً وضعنا رؤوسنا سجّداً لله على الأرض المتربة ، ثم لم نرفعها مدى الحياة ، لما أدينا شكر أقل نعمة من هذه النعم الجليلة كلها .

ثم يعود إلى نفسه فيخاطبها ، وهو في غمرة التأثر ، آه .. آه .. لقد أصبحت هنا شيئاً يذكر ، وغدا الناس يقولون عني : شيخ ملا .. شيخ ملا ..!.. ولم أكن إلا واحداً من مجاهيل الأكراد (درويشاً) بين الزملاء والأقران[1] .

لا شك أن هذا الفكر هو لباب الذكر .. وإذا كان الذكر الخفي هو أفضل أنواعه ، فما المراد بالذكر الخفي إلا التذكر الذي يهيمن على القلب والنفس ، فيصرفها إلى شهود الله .

وقد كنا نلاحظ أن هذا الذكر الفكري ، كان يتنامى في نفس والدي كلما تقدمت به السن وامتدّ به الأجل .. بل لكأنما أصبح يجعل من تأملاته هذه ورداً يعيش

(١) ليكن القارئ على يقين أنني لست هنا بصدد اختراع كلام خيالي أصوغه من خيالي كشأن المنشئين والقصاصين .. بل هو وصف أمين ، ودقيق جهد الاستطاعة ، لحال أبي ، وكلماته وأقواله .. ولقد انطبع في ذاكرتي معظم كلماته ومظهر تأثراته وأحواله وهو يكرر على مسامعنا بين الحين والآخر ورد ثنائه هذا على الله من خلال ذكر قصة حياته .

معه بين اليوم والآخر .. وكان إذا استسلم لتأملاته وعاش معها ، حجب بها عن شؤون دنياه وتملكته منها نشوة غامرة من الثناء على الله .

مناسك الحج والعمرة والزيارة :

أدّى أبي حجة الفرض الأولى عام ١٩٣٠ عندما كنت في السنة الأولى من العمر .

ثم إنه لم يكتب له العود إلى بيت الله الحرام إلى أواخر الأربعينات ، على الرغم من أمله الكبير في أن يكرمه الله بحجة ثانية يرسّخ بها مثوبة أو قبول حجته الأولى ، كما كان يردّد . ولكن ضيق ذات يده لم يكن يسمح له بتحقيق هذا الأمل .

وذات يوم زاره شاب جميل السمت ، لم يكن زاره أو رآه من قبل ، عرّف نفسه له بأنه الحاج حسن البحري . وكان يستأجر السفن في موسم الحج ، ويتعهد بنقل الحجاج على ظهرها لأداء الحج .. جاء ليستضيف أبي في رحلة معه إلى الحج ذلك العام . وقبل أبي هذه الاستضافة شاكراً ، دون أن يعلم ما الذي دعا هذا الرجل الذي لا يعرفه إلى أن يعرض عليه هذا الإكرام !..

كانت هذه أيضاً واحدة من النعم التي ما يفتأ يذكرها ويشكر الله عليها ، خلال ورد تفكره وتأمله ..

كان مطمئن النفس تجاه هذه الحجة الثانية التي جاءته على غير ميعاد . وتوثقت الصلة بينه وبين الحاج حسن البحري منذ ذلك التاريخ ، وأذكر أنه استضافه مرات أخرى بعد ذلك في رحلاته البحرية تلك ، مكرماً ومعززاً .

ثم إن الحاج حسن تعرض لحادث مروع في إحدى رحلاته تلك ، ونجا منه بأعجوبة . غير أنه سبّب له حالة مَرَضِيَّة في جسمه أفقدته جلّ نشاطه ، وتوفي بعد ذلك بأعوام .

ومنذ أوائل السبعينات كان يطيب لأبي رحمه الله أن يتجه إلى البيت الحرام في أوائل شهر رمضان ، فيمضي تتمة الشهر معتكفاً فيه ثم يتجه إلى المدينة المنورة ، فيبقى في جوار المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى موسم الحج ، ثم يعود بعد ذلك إلى دمشق .. وكان يؤثر أن يقوم برحلاته هذه على حسابه ومن ماله الخاص . على الرغم من عدم السعة المادية لديه .. وكان يرى أن ذلك أرضى لله عز وجل ، وأكثر لياقة مع أداء حق الربوبية على العبد .

غير أنه لم يكن يردّ أيّ دعوة إلى حج بدلٍ ، بشروط خاصة كان يلتزم ويلزم بها .

والذي أريد أن أنتهي إليه ـ وأنا بصدد الحديث عن عبادات والدي وخصائصها لديه ـ أنه رحمه الله كان يتمسك بعزائم الأحكام ، لا سيما تلك التي تتعلق بمناسك الحج والعمرة . فلم يكن يأخذ نفسه بشيء من رخصها قط ، إلا في أندر الحالات ولأقصى الضرورات .. هذا مع العلم بأنه إذا أفتى الناس ذكرهم بالرخص ولم يمنعهم منها .

لم يتح لي أن أحج أو أعتمر مع والدي على طول تلك السنوات والمرات التي حج أو اعتمر فيها ، وكم كنت شديد الظمأ إلى ذلك ، لا سيما عندما كنت أرى تسابق الناس إلى اصطحابه والحج معه ، وأسمع حديثهم عند الرجوع عن عظيم سعادتهم بتلك الصحبة ، وأسمع وصفهم لأحواله وعباداته وزياراته هناك . وسبب ذلك ، أنه كان يقيمني مقامه في أداء كثير من الوظائف والواجبات ، التي لا بديل عني إذ ذاك في القيام بها .. ويبدو أنه أحسّ أو قدّر ألمي لحرماني من صحبته في تلك الرحلات المتميزة التي كان الذين معه يتحدثون عن عظيم سعادتهم واستفادتهم من وجودهم معه فيها : فأرسل إليّ رسالة ذات مرة ، وكان قد بدأ رحلته من أول رمضان ، يخفف من الألم الذي يقدّر أنه ينتابني من أنني أحرم من صحبته إلى تلك المناسك ، في حين أن الغرباء من الناس ينالون حظوتهم في وجودهم معه أثناءها .. كتب إليّ يقول : إنني هنا أؤدي عبادة تعود إلى شخصي وحده ، أما أنت فقد أقامك الله عز وجل هناك في عمل مما يرضيه تعود فائدته إلى

الكثيرين من الناس ، فأنا فيما أقوم به من الوظائف كالفعل اللازمي المختص بذاته ، وأنت فيما توفق للقيام به كالفعل المتعدي الذي يعمل لغيره .

ولا ريب أنه رحمه الله أرسل إليّ هذا الكلام على سبيل التسلية والإرضاء ، أما الحقيقة الثابتة فهي أنه كان في مناسكه قدوة لكثير من الناس ومصدر خير وتعليم وإرشاد لهم .. وقد علمت أنه كان بين العيدين يجلس يتلقى في الحرم رغبات من يشاء في تدريسهم أياً من العلوم الشرعية لا سيما مناسك الحج

فحدثني أولئك الذين أتيح لهم أن يحجوا معه ـ وقد كان ابني محمد توفيق واحداً منهم ـ أنه كان يهتم بتطبيق دقائق السنة المتعلقة بمناسك الحج ، بدءاً من التوجه إليها وهو في دمشق إلى ساعة الانتهاء والرجوع .

أما انصرافه بالفكر واللسان عن الدنيا ومشاغلها ، والإقبال الكلي الدائم على شأنه الذي هو فيه من التعبد والتبتل والارتباط بالله عز وجل ، فشيء فريد قلما رأى الناس نظيراً له .. كان إذا سمع ممن حوله حديثاً عن الدنيا أو بعض مباحات المتع أو الطعام والشراب ، التفت مذكراً بأنهم إنما جاؤوا إلى هذه الأمكنة ليتجردوا إلى الله من دنياهم وليفروا إليه من شواغلها وأهوائها .

وإذا كان من عادة الناس أن يجأروا إلى الله يوم عرفة بالدعاء ، فإن كل ساعة تمرّ عليه بعد الدخول في الإحرام ، هي كيوم عرفة بالنسبة لأولئك الناس .. قال لي كثير ممن كانوا معه يوم عرفة ، وابني محمد توفيق واحد منهم ، إنه لم يكن يلتفت في ذلك اليوم إلى أي من شؤونه الدنيوية أو علاقاته مع الناس ، إن هو إلاّ الإقبال على الله ذاكراً ومراقباً ومتبتلاً وداعياً .. قالوا فأما دعاؤه فيمتدّ في وقفة واحدة من بعد الظهر إلى ساعة الغروب وقد يتخللها بعض الجلوس ذاهلاً عن الشمس اللافحة والحرّ الشديد ، غير شاعر بأي من الكلل الذي يشعر به الشباب . يدني أحدهم المظلّة من رأسه ليريحه بها من وهج الحرّ . فإذا شعر بها أشار بيده ، مصرّاً ، أن يبعدها عنه .

كان يرى التظلل في ذلك الوقت نوعاً من الترفه ، وهو مناف للوصف الذي وصف به رسول الله ﷺ الحاج . إذ قال : الحاج أشعث أغبر ، فضلاً عن منافاته لعبودية الباسط يديه إلى الله بالدعاء .

قالوا : وكان يؤخذ عن نفسه في دعائه ، ويستغرق إما في مشاعر العبد الخائف من مصيره ، أو المحب الذي برّح به الشوق إلى لقاء حبيبه ، أو الذي رأى فيض الرحمات الإلهية في ذلك اليوم ، فاندفع يستنجد برحمته هذه ويسأله لنفسه ولذريته وإخوانه والمسلمين جميعاً صلاح الحال وتقويم الاعوجاج ومغفرة الذنوب ..

لم يتح لي ، كما قلت ، ولا مرة واحدة أن أكون معه في حجه ونسكه ، لأصف وصف الرائي بتفصيل وإطناب . وإنما أنقل ما كان يذكره لي الإخوة الذين فازوا بمعيته ، ووقفوا طويلاً طويلاً يؤمنون على دعائه وقد اجتاحهم البكاء وراء نشيج بكائه .

أما أدبه في زيارة مثوى سيدنا رسول الله ﷺ ومسجده ، وآثار النبوة في مكة والمدينة وزيارته للبقيع وبقايا آثار المغازي ، فلا يمكن أن يستقل بوصف ذلك إلا العيون التي رأت ، وهيهات للأقلام أن تصل من ذلك إلى الشغاف .

أصرّ على أن يذهب فيدخل إلى البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺ متباركاً به ، وهو بيت معروف بمكة ، حوّلوه إلى مدرسة لتحفيظ القرآن . فكيف السبيل إلى ذلك ؟ والتبرك بآثاره ﷺ هناك ممنوع .

دخل إلى مدير المدرسة ، في مكتبه وعرفه على نفسه أنه واحد من الراغبين في الانتساب إلى تلك المدرسة ، ليستكمل فيها حفظ القرآن . فلبى المدير رغبته وأذن له في الدخول لهذا الغرض ، وأخذ أبي يجوب أطراف المكان متبركاً متخشعاً ، ثم تابع فجلس يصطنع الحاجة إلى من يحفظه القرآن . وكم هو مؤسف أن يجد المسلم نفسه مضطراً - وهو في بلد إسلامي بين مسلمين يتباهون بالإسلام - إلى أن يخفي عنهم قصده في التبرك بالمكان الذي تشرف بولادة سيدنا رسول الله فيه !!..

كان أبي ينزل كلما توجه إلى المدينة المنورة ، في دار متواضعة ، لرجل من الصالحين اسمه الشيخ محمد زكريا البخاري . وقد اتجه في إحدى السنوات بعد انتهائه من مناسك العمرة ، إلى المدينة المنورة ، وكان ذلك في شهر آب ، والحرّ على أشده . وكان ابني توفيق معه في تلك الرحلة . فأخذ منه الجهد وتأثر تأثراً شديداً بالحر ، ونال منه التجفاف . ولما وصل إلى دار الشيخ محمد زكريا البخاري ، كانت قد تهاوت حالته الصحية وانقطع عن الطعام والشراب ؛ فاستأذنه توفيق أن يأتيه بطبيب ينظر في حاله ، فأبى قائلاً : هذه خمسة وثمانون عاماً مرت كنت أنتظر فيها هذه النهاية في هذا المكان !..

يقول توفيق : فاستبدّ بي الجزع ، وأفزعني كلام جدي هذا ، وخشيت فعلاً أن تكون هذه هي النهاية ، فهرعت إلى مسجد رسول الله ﷺ فصليت ركعتين ، ثم قمت فاتجهت إلى مثوى سيدنا رسول الله ووقفت أمامه متضرعاً مستغيثاً بكل ما أملك من إلحاح ، أتوسل به إلى الله أن يشفي جدي ويعافيه مما به . ولما رجعت ، نظرت وإذ بجدي في حالة حسنة .. قلت له يبدو أنك ولله الحمد بخير ، قال نعم : أتاني في نومي الآن أناس يحملون إبريقاً فيه شراب ، وأرادوا أن يسقوني منه ، فقلت لهم إني صائم - وكان صائماً فعلاً - فجاء أحدهم فأجبرني على فتح فمي ، وجاء آخر فأوجر الشراب في فمي فشربته .. فقال له توفيق : لقد منعتني من أن آتيك بطبيب ، فلم يكن أمامي إلاّ أن أشكوك إلى رسول الله ، ولقد ذهبت فشكوتك إليه ، متضرعاً ومتوسلاً به إلى الله أن يشفيك .

وأقبل إليه الرجل الصالح الشيخ محمد زكريا ، يقول له : كيف حالك الآن ؟ فقال له : شفاني حبيبي !..

فانتاب الشيخ محمد زكريا من كلام أبي هذا حال جعله يصيح : الله .. الله .. ثم ما هو إلا أن وقع مغشياً عليه ودام فترة على تلك الحال . ولما أفاق ، قال له أبي :

ياشيخ محمد ، إن صاحب المقام أعلى شأناً من صاحب الحال . فقال له الشيخ : نحن نسير على الطريق ، ونسأل الله أن يكرمنا بالوصول .

زياراته للصالحين أحياء وأمواتاً :

كان أبي رحمه الله يرى أنه كما تتنزل الرحمات عند ذكر الصالحين ، فإنها تتنزل أيضاً في أماكن وجودهم ، سواء كانوا في الأحياء أو الأموات .

ولذا فقد كان يهتم بزيارة الصالحين ، ويتحلى بالأدب والتواضع الجم في مجالسهم ، ويرى أن ذلك من أهم الطاعات وسبل القرب إلى الله .. وكم كان يستشهد على هذا بالحديث القدسي الذي يقول فيه رب العزة جل جلاله : « أما إنك لو عدته لوجدتني عنده » .

وربما كان الصالحون الذين يزورهم ويتوخى رحمة الله في القرب منهم ، ممن لا يؤبه بهم في المجتمع ، وقد لا يعدّون من طبقة العلماء البارزين والمتميزين ، بل ربما كانوا من الخاملين المغمورين .

وقد كنت أصحبه في بعض تلك الزيارات .. فكنت أعجب لشدة تأدبه وبالغ تواضعه معهم .. لم يكن يبرز شيئاً من علمه فيما بينهم ، وهو الفقيه الذي اشتهر بسعة اطلاعه ودقة معلوماته الفقهية ، بل كان يظهر في مظهر التلميذ الساكت والمستفيد ، إلا إن سئل أو ألجئ إلى الكلام لموجب شرعي .

كان يتجه بين الحين والآخر إلى حمص ، يقصد زيارة علمائها ، وبعض الصالحين المغمورين فيها . وكان يلمس في علمائها الصلاح وصدق الحب والتآلف فيما بينهم .

اتجه قاصداً إلى جبلة لزيارة إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، وبعض الصالحين من الأحياء فيها .

ذهب إلى الرقة ، متجشماً بعض الصعوبات ، لزيارة أويس القرني فيها . وكان ابني محمد توفيق معه في هذه الزيارة ، وكان ذلك في شهر شباط من عام ١٩٧٢ . فحدثني محمد توفيق أنه لما خرج من زيارة سيدنا أويس القرني ، وقف في ساحة قريبة هناك يحدث بعض الناس عن أويس القرني ويذكر لهم بعضاً من ترجمته ومناقبه . ويبدو أن كلاً من حديثه ومظهره لفت أنظار الكثير من أهل الرقة ، فأحدقوا به يحدثونه عن المحل والجفاف اللذين أصيبوا بهما في ذلك العام ، وراحو يتشبثون به ويلحون عليه أن يدعو الله لهم بالفرج والإغاثة ، وكأنما رأوا فيه منقذاً أرسله الله لهم .

وقد كانت الرقة تعاني في ذلك العام من جفاف رهيب ، وقال شهود عيان : لم يكن بوسع الناظر أن يرى عرقاً أخضر عن يمين الطريق أو شماله ، وكان المنظر الرهيب في محل ذلك مظهر المواشي الكثيرة ساقطة موتى هنا وهناك ..

قال لي توفيق : فأخذت جدي شفقة شديدة عليهم .. واستجاب لرجائهم قائلاً : فابحثوا لنا عن مكان مناسب نجتمع فيه لندعوا الله عز وجل ، فأشاروا له إلى ساحة واسعة من مسجد قديم هناك فاتجهوا جميعاً إلى هناك ، وسرعان ما تسامع سائر أهل الرقة بالأمر ، فجاؤوا مسرعين من كل صوب . وأخذ أبي يدعو بتذلل وضراعة بالغتين ، كما هو شأنه عند الدعاء ، واجتاح القوم بكاء وظهر فيهم صدق الالتجاء إلى الله .

يقول توفيق : ونزل جدي ضيفاً تلك الليلة على بعض أهالي الرقة وكنت معه .. وفي الليل بدأت الأمطار تهطل .. ثم أخذت تشتد .. ثم ازدادت شدة ، وبدأت قطرات المطر تتساقط علينا من سقف الغرفة التي كنا فيها ، فأسرع صاحب البيت ينقلنا إلى غرفة أخرى . وبعد قليل أخذ يترشح سقف الغرفة الثانية ، ثم راحت المياه تتساقط علينا منها هي الأخرى .. وغمرت أهل المدينة فرحة عظيمة بعد طول حزن واكتئاب .

وقبيل هذا التاريخ ، زار القدس ومسجد الخليل ، وحاول أن يذهب من هناك حاجاً إلى بيت الله الحرام ، فلم يتح له ذلك . فاتجه من هناك إلى بغداد ، وليس له في ذلك من قصد إلا زيارة سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وسيدي معروف الكرخي ، وسيدي جنيد البغدادي والإمام أبي حنيفة النعمان ، وبعض من يمكن أن يراهم من الصالحين الأحياء .

وفي دمشق ، كان المرحوم الشيخ صلاح كيوان واحداً من الصالحين الكثيرين الذين كان أبي يتقرب إلى الله بزيارتهم والتماس الخير والبركة في مجالسهم .

صحبته مرة في زيارته للشيخ صلاح كيوان ، فاستقبلنا في غرفة مشرفة عالية ، وكانت داره في إحدى الجادات العليا في حي المهاجرين ، كانت الغرفة مليئة بالناس ، وكانت تطل من خلال نافذتين قبليتين على كثير من البيوتات المنتشرة في الجادات الدنيا .

وصادف أن كان جلوسي مقابل هاتين النافذتين ، وكانت الستائر مرفوعة ودفء الشمس ينتشر داخل الغرفة ، وكان الوقت أواخر الشتاء فيما أذكر ..

وقع بصري ، وأنا أنظر من خلال النافذتين ، على نساء ينشرن ثياباً على سطوح بعض تلك البيوت . ولم يكن أحد من بقية الجالسين بحيث يتمكنون أن يروا ما قد رأيت .

أخذت أفكر في هذا الابتلاء .. والعمل الذي يجب أن يفعله المسلم أمام هذا الواقع .. وتساءلت في نفسي : أيرخي أحدنا الستر ويستغني عن دفء الشمس في وقت هو أحوج ما يكون إليه ؟.. أم يكلف أولئك النسوة بأن لا يبارحن عقر دورهن لنشر ثياب أو لأي حاجة أخرى مشابهة ؟

أم الحلّ هو غض النظر كلما وقع البصر على ما لا ينبغي أن يراه أو يتابعه ؟ وجال في ذهني أن كل هذه الحلول من الصعوبة بمكان !..

وإني لَفي هذا التساؤل مع نفسي ، إذ قطع الشيخ صلاح كيوان حكايةً كان يذكرها لوالدي والتفت إليّ ، وكان في الزاوية المقابلة ولا يرى مما أراه أي شيء ، فقال :

يابي .. بدنا نصبر .. بدنا نصبر !!

ثم عاد فأقبل إلى أبي يتم له الحكاية التي كان يذكرها له !..

ولقد كانت لبدء المعرفة بين أبي والشيخ صلاح كيوان ، قصة نادرة وعجيبة ، أمسك عن الخوض فيها ، ظناً مني بأن ذلك أرضى لكل من الطرفين رحمهما الله .

ولقد كان الإمام النووي (محي الدين يحيى بن شرف النواوي) من أبرز من يجلّهم ويحبّهم والدي رحمه الله ، وقد أجمع من ترجموا له على رسوخ قدمه في علوم الفقه والحديث واللغة والرجال ، وسموّ مكانته في الصلاح والولاية والتقوى .

وقد كان يحرص على زيارة قبره في قرية نوى جنوب مدينة دمشق ، كلما أتيح له ذلك . ولقد صحبته في أولى زياراته له ، ولم أكن قد تجاوزت العاشرة من العمر .. وكانت تظلل قبره آنذاك شجرة عجيبة تفجرت من داخله ، لا أذكر أني رأيت أكثر اتساعاً ولا أكبر ضخامة منها ... فلما أتيح لنا أن نعود فنزور القبر بعد سنوات ، نظرت وإذا بتلك الشجرة قد انكمشت وتقلصت وعادت كتلة حطب يابس قائم وسط القبر .

وكان عمل أبي في زيارة هؤلاء الموتى ، يتلخص في السلام عليهم بأدب تام كما لو كانوا في الحياة ، وربما تلى بعد ذلك شيئاً من القرآن ، ثم أنه يدعو ما شاء الله له أن يدعو لنفسه وللمسلمين[1] .

---

(١) في الناس اليوم من ينكر قراءة القرآن على الموتى ، ويهون من أمر زيارتهم وربما كان فيهم من ينكرها على الرغم من أمر رسول الله بها . ولعل من خير من فصل القول بدقة ، في مسألة قراءة القرآن على القبر أو عند الموتى ، الإمام القرافي في كتابه الفروق . وخلاصة ما قاله أن القربات ثلاثة أقسام ، قسم حجر =

ورعه وزهده :

كان رحمه الله شديد الورع في علاقاته ومعاملاته ، كثير الرقابة على لسانه وعلى ما يجري في مجالسه . فلم يكن يحرك لسانه بغيبة أحد ، ولم يكن يأذن لأيٍّ من مُجالسيه أن يغتاب أحداً ، سواء كانوا ضيوفاً عنده ، أو كان هو ضيفاً في دار أحدهم ، وأياً كانت مرتبة الذي تورط فاغتاب .

ولم يكن يسكت على أي منكر يراه مهما دق أو صغر ، ولكنه كان يستعمل في إنكاره أقصى درجات الحكمة واللطف . فإذا رأى من يقابل حكمته ولطفه بالمخاتلة والخداع ، أخذ منه الغضب ولم يعد يبالي بأحد أو بشيء .

دخل ذات يوم داراً مع بعض من يُعَدّون من أهل العلم في الظاهر .. ولما استقر بهم المجلس رأى في إحدى زوايا الغرفة تماثيل من البرونز منصوبة للزينة . فنبه والدي صاحب الدار إلى أن اتخاذها محرم بالاتفاق . ونصحه أن يزيل هذا المنكر من الغرفة . وقبل أن يتجه الرجل مسرعاً إلى التماثيل ليزيلها ـ وقد بدا عليه القبول والانصياع ـ علق ذلك العالم الذي كان معه قائلاً : إنها لُعَبٌ للأطفال ، ولعب الأطفال مقبولة استثناءً كما تعرفون . فاستشاط أبي غيظاً ، أولاً لتغطيته منكراً مجمعاً على حرمته بباطل

= الله حكمه ومثوبته على القائمين به ، فلا يصل حكمه ولا ثوابه إلى غيرهم ، كالإيمان والإسلام . وقسم تم الاتفاق على أن الله أذن في نقل ثوابه للميت وهو القربات المالية كالصدقات والعتق .. وقسم اختلف فيه العلماء وهو الصيام والحج وقراءة القرآن . فعند مالك والشافعي لا يصل ثواب شيء منه إلى الميت . وقال أحمد وأبو حنيفة بل يصل ثوابها إليه .. وبعد أن ذكر القرافي أدلة الفريقين ، قال : « وهذه المسألة وإن كانت مختلفاً فيها فينبغي للإنسان أن لا يهملها ، فلعل الحق هو وصول الثواب إلى الموتى . فإن هذه أمور مغيبة عنا . وليس الخلاف في حكم شرعي ، وإنما هو في واقع أكذلك هو أم لا » أقول : وهذا الكلام في منتهى الدقة . فإن قراءة القرآن جائزة بل عبادة مبرورة على كل حال . ولكن الخلاف في وصول الثواب أو عدم وصوله . ولا شك أن الحيطة في هذه الحال تقتضي القراءة ثم ختم القراءة بدعاء أن يهب الله مثل ثواب تلك القراءة إلى الميت ، والمأمول أن يستجيب الله الدعاء وتصل المثوبة إلى الميت .

من الكذب اختلقه ، فتماثيل البرونز ليست لعباً للأطفال ، ثانياً لعملية التضليل والخداع التي ظن أنها ستنطلي على الشيخ البعيد عن هذه التقاليع والعادات !.. ثالثاً لأن العالم بدلاً من أن يكون عوناً لكلمة الحق التي قبلها صاحب الدار ، حاول أن يحول بين الرجل وقبوله الحق ، وأن يغريه بإبقاء كل شيء على ما هو .

وكثيراً ما كان يذكر رحمه الله هذه القصة ، معبراً خلالها عن ألمه من أن ينتهي حال المسلمين إلى التخاذل على طريق الانتصار لدين الله والتواصي بالحق ، ثم يتساءل في حرقة بالغة : أين نحن من قول رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله » ؟.

وأعود إلى الحديث عن ورعه ..

من المعلوم أن ورع المسلم قد يتجلّى في رقابته على نفسه وشدة اتهامه إياها ، وقد يتجلّى في اهتمامه الشديد بمراقبة سلوكه وتتبع ما قد تجترحه حواسه وأعضاؤه .. وقد يتجلى في اهتمامه بمراقبة نوع المال الذي يدخل جيبه والطعام الذي يدخل فمه والطريق الذي يصل إليه المال أو الطعام منه .

وأعتقد أن كل من عرف والدي وخالطه عن قرب ، رأى فيه هذه الأنواع أو المظاهر من الورع ، كلّها .

كثيراً ما كان يناقش في مسألة علمية في مجلس يضم جمعاً من الناس .. وما هو إلا أن ينقطع عن الحديث ويعود إلى الصمت ، وفي الذهن صور وحوادث من هذا القبيل ، منها ما كان في مجالس بدمشق ، ومنها ما كان في حلب .. وسبب ذلك ، كما أخبرني فيما بعد ، أنه ربما أحسّ بأن حظاً للنفس يدفعه إلى الكلام والانتصار لرأيه ، فيغلب على ظنه أنها مناقشة خاسرة ليس له فيها من خير لدينه ، فيجنح إلى السكوت .

ولو كان في الحديث عن تلك المجالس ، ومن كان فيها ، والجدل الذي دار فيها بين أبي وآخرين ، من خير وفائدة للدين لضربت أمثلة ببعضها ، ولكني أخشى أن يكون العكس هو الواقع أو المتوقع .

ولأتحدث عن صور من ورعه في شدةِ مراقبته للمال الذي يأتيه أو الطعام الذي يدعى إليه ولعله أصعب أنواع الورع ، ولعل أكثر الناس قد ابتلي اليوم بنقيضه .

كان يحرص على أن لا يتسرب إلى جيبه أي مال مشبوه ، فضلاً عن المال المحرم . والمال المشبوه فيما يعرفه به العلماء هو المال الذي اختلط فيه الحلال مع الحرام ، وكان الحلال من الكثرة بحيث لا يمكن تمييز الحرام منه . وأساس الحكم الشرعي أنه يجوز للولد أن يتناول قدر الحاجة من مال أبيه المشبوه ، وكذلك الوالد بالنسبة للولد ، والزوجة بالنسبة للزوج . ولكن الورع هو أن يبتعد الإنسان على المال المشبوه في سائر الأحوال . وقد كان أبي رحمه الله حريصاً على أن يفعل ذلك جهد استطاعته .

فهو لم يكن يأكل من مرتبي ، وكان يوصيني دائماً بأن لا أنفق شيئاً منه على أي قوت أو طعام يؤكل ، ويأمرني بأن أنفق منه على ما عدا ذلك من الاحتياجات الأخرى . ولا شك أنه لم يكن يفتي بحرمة الأكل منه ، ولكنه كان يلزم نفسه بما لم يكن يلزم به الآخرين حيطة وتورعاً . وكان يقول : إنّ مدخراته التي كان قد اكتسبها من كدّ يديه تكفيه لمعيشته الشخصية ، ومن ثم فربما كانت إضافة المال المشبوه إليها من الزيادة التي لا حاجة به إليها .

وكان إذا تلقى دعوة من أحد إلى طعام ، أرسل يحقق في مصدر ماله وكيفية كسبه ، فإن علم أن في ماله شائبة حرمة ، أو أنه من المال المشبوه كما أوضحنا ، افتعل أياً من الأعذار الممكنة ولم يستجب للدعوة .

ذهب مع جمع من العلماء في أوائل الستينات إلى حلب ، في نطاق القيام بحملة انتخابية لانتخاب مفت للجمهورية العربية السورية[1] والاتفاق مع علماء حلب على كلمةٍ سواءٍ في هذا الأمر .

ولما رجع إلى دمشق ، أرسلَتْ إليه جهةٌ مّا خمسين ليرة قيمة تذكرة الطائرة التي أقلته من دمشق إلى حلب . فرفضها بشدة قائلاً : إنني لم أخدم في رحلتي تلك وعملي الذي قمت به أي شخص لمصلحة ذاتية تعود إليه ، حتى أستحق أن أتناول منه هذا الأجر ، وإنما أديت من خلال عملي وسفري ذاك واجباً شرعياً أناطه الله بعنقي . فالمغنم في هذا لي ، والمغرم عليّ .

والحقَ أقول : ما رأيت في هذا العصر مسلماً أكثر دقة في اللقمة التي تُقدَّم إليه ليأكلها ، وفي القرش الذي يدخل جيبه من أين جاء ، وأكثر احتياطاً وورعاً في ذلك لدينه ، من والدي رحمه الله .

وقد أنبأني بحادثة وقعت له في بعض أسفاره إلى الجزيرة ، وتتلخص في أنه نزل ضيفاً هناك على بعض الفضلاء . وذات يوم دخل الدار التي كان فيها رجل يحمل بطيخة ، وكان الفصل صيفاً والوقت حاراً . وبعد قليل قطّعت البطيخة وقدّمت فوضعت على مائدة الطعام .. قال أبي : فتناولت منها قطعة أو قطعتين ، واستأذنت صاحب الدار بعد قليل فقمت لأنام ، وكنا في وقت الظهيرة وحرّها .

قال أبي : فرأيت في منامي أن طبقاً مليئاً بالأقذار قد وضع أمامي ، وتناولت فأكلت منه شيئاً . وقمت من نومي متألماً مذعوراً . وأسرعت فجعلت أبحث عن الرجل صاحب البطيخة ، ولما رأيته استحلفته بالله أن يخبرني عن مصدر البطيخة التي كان يحملها . وبعد طول ملاحقة وإصرار ، قال إنه مرّ في طريقه إلينا بأرض يملكها فلان من الناس قد زرعت كلها بطيخاً ، ورأى هذه البطيخة فيما بينها فاستحسنها وجاء بها .

(١) سأفرد فيما بعد فصلاً إن شاء الله عن علاقة أبي بعلماء دمشق ، وعن أيام نشاطاته وأيام عزلته .

فجعل أبي يضع إصبعه في أقصى حلقه ليستفرغ كل ما أكل ، ولكن دون جدوى .

ويبدو أن هذه الحادثة مع الرؤيا التي رآها ، زادته تخوفاً من المال الذي لا يأتي بطريق شرعي سليم ، فكان يهتم دائماً بالتعرف على المصدر الذي يأتيه منه المال أو الطعام .

كان إذا قدّم إليه أحدهم هدية من مال أو طعام ، فداخله الظن أو الشك بأنه ربما أعطاه إياه بقصد الزكاة ، أسرع فأعاده إليه ، فإن لم يتمكن أرسله لمن يعلم يقيناً أنه من مستحقي الزكاة .

وقد قيل له مرة : أفلست ممن يستحق الزكاة ؟ فقال : إذا بلغ الرجل سن الشيخوخة ، وكانت مدّخراته من المال تكفي لعام كامل ، فإنه ليس أهلاً لقبول الزكاة . ذلك لأن الغِنَى بالنسبة للشيخ المسنّ هو ذاك الذي يكفيه عاماً إثر عام .. وأنا ممن تتجاوز مدخراتي حاجة العام الكامل .

ولقد كان يتألم جداً إذا شعر أن في الأغنياء من يتقربون إلى مثله من العلماء بأعطيات يقصدون بها إسقاط ما عليهم من ديون الزكاة .. وكان يعدّها لوناً بشيعاً من مخادعة الله عز وجل ، إذ يحجبون هذا الحق الزكوي عن مستحقيه ويعودون به إلى من يطمعون أن ينالوا منهم مقابل ذلك المال حظوة ، أو سكوتاً على ما قد يصدر منهم من سوء ، أو يتخذوا بذلك لأنفسهم عندهم يداً من المدح والثناء .

☆ ☆ ☆

أما زهده ، فيخيل إليّ أنه لولا ذيول من الزوجة والأولاد كان يتحمل مسؤولية رعايتهم والنظر في معايشهم ، لآثر أن ينفض يده من الدنيا وأن يعيش حياة أزهد الزاهدين من أصحاب رسول الله .

كان إذا جلس إلى مائدة الطعام في داره ، ورأى ألواناً متعددة وضعت أمامه ، انتابه مزيج من مشاعر العتب على أهل الدار ، والخوف من سخط الله وعقابه ، والألم من عجز الجميع عن الشكر اللائق لله عز وجل .. وكم كان يخوف ويعاتب بقسوة آناً ولين آناً أخر ، من الركون إلى المزيد من متع الدنيا ولذائذها .. وكان كما قلت من قبل يعدد الأصناف المجتمعة على المائدة فيقول : هذا خبز ، وهذا أرز ، وهذا لحم ، وهذه خضرة ،

ويمضي في تعداد الأصناف كلها ، ثم يقول : أين نحن من النهوض بشكرها ؟ أليس هذا هو النعيم الذي سيسألنا الله عز وجل عنه ؟!

وكم انتهرني وشدد عليّ في العتب بل التوبيخ عندما اشتريت مكتباً متواضعاً أضم فيه أوراقي وأجلس إليه لأعمالي الكتابية ، وكان ذلك في أوائل عهدي بوظيفة التدريس في الثانويات . ولعله كان عام ١٩٥٩ إذ خشي أن أكون قد انجرفت إلى سلوك سبيل الاهتمام بالأبهة والمظهر ، إثر دخولي في سلك التوظيف .

اشتريت قطعة ثريا مرةً ، لأهديها لصديق بمناسبة زواج أو نحوه لم أعد أذكر المناسبة . وأعطيت لصاحب المحل بطاقة باسمي ، بعد أن كتبت عليها عنوان الصديق واسمه . وكلفته أن يبعثها إلى ذلك العنوان ويركبها في داره .

ولكن شاء الله عز وجل ، أن يقرأ الشخصُ الذي بعثها معه اسمي المثبت أصالة على البطاقة ، بدلاً من اسم المهدى إليه وعنوانه ، فجاء بالثريا إلى دارنا بدلاً من دار ذلك الصديق ولم أكن موجوداً آنذاك ، فحسب الأهل أنني قد ابتعتها لنا أو أن صديقاً ما أرسلها هدية إلينا ، ودخل الرجل فثبتها في المكان المناسب في غرفة الاستقبال ثم مضى .

وسمع أبي الخبر ، ودخل ينظر ، ولم أكن قد رجعت بعد .. وما هو إلا أن عاد فدخل غرفته الصغيرة وأغلق على نفسه بابها ، يجتر الألم والأسى من أن يتحول ابنه بعد طول التربية التي تعهده بها إلى هذا المتلهف على الدنيا وزينتها المعرض عن شأنه الذي هو مقبل عليه .

ولما جئت ، وفوجئت بالأمر الذي لم يكن لي فيه يد ، لقنني أبي درساً لا أنساه ، ولم يخفف من وقعه عليّ ، إلاّ علمه بعد ذلك بالخطأ الذي لم يكن لي فيه قصد . وهو الخطأ الذي جعل الثريا تستقر عندي بدلاً من أن أتصل إلى الصديق الذي أُهْدِيَتْ إليه .

موقفه من التصوف والبدع

التصوف النقي سلّم الوصول إلى ثمرات الإيمان :

كان أبي رحمه الله يجزم بأن التصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه .

وكان يؤكد أن المسلم إذا لم يكن قد تشرب حقيقة التصوف ، فقد حبس نفسه في معاني الإسلام ، ولم يرق صعداً إلى حقيقة الإيمان .

وكان يلحّ على أن التصوف ليس كلمات تورث أو تنقل ولا معارف تحفظ ، ولكنه حال يتلبس بكيان المسلم يرقى به إلى مستوى شهود الله عز وجل . وإذا لم يرتفع المسلم إلى مستوى هذا الشهود ، فهيهات أن تكون نصوص الأحكام وحدها ، بكل ما يحف بها من مؤيدات الجزاء ، حافزاً كافياً للانضباط الحقيقي بمدلولاتها وأوامرها .

إن الالتزام الحقيقي بأوامر الله عز وجل يأتي نتيجة ازدهار ثمرات الإيمان بالله في القلب وليس لهذا الإيمان من ثمرات إلا حب الله وتعظيمه والخوف منه والرضا عنه والثقة به والاتكال عليه والفناء في ذلك كله عن الأغيار . ومن ازدهار مجموع هذه الثمرات الإيمانية يتحقق معنى شهود العبد للرب . وهذا هو الذي يحجزه عن المحرمات ويضبطه على منهج الآداب والواجبات ، إذ هو في كل أحواله وتقلباته ، مع الله عز وجل في مراقبته له وذكره إياه وانسياقه في مشاعر الخوف منه والحب له والرضا عنه والثقة به . وليس للتصوف النقي من معنى إلا أن يأخذ المسلم نفسه بما يوصله إلى مستوى هذا الشهود .. أو أن يأخذ نفسه بما يوصله إلى ثمرات الإيمان ، أو يوصله إلى حقيقة معنى التوحيد ، فهي ألفاظ شتى ولكنها جميعاً ذات دلالة واحدة .

وكان يرى ، رحمه الله ، في الرسالة القشيرية ما يبرز حقيقة هذا التصوف النقي ، وما يكشف عن عميق ارتباطه بنصوص القرآن والسنة . ولذا فقد كان كثير المطالعة لها ، وكثير الاستئناس بها ، وعندما عجزت عيناه عن القراءة لما أصابها من ضعف في السنوات الأخيرة من حياته ، كان يدعوني إلى أن أجلس فأقرأ له منها الشيء الكثير .

وعندما رغب جمع من الطلاب أن يختار لهم كتاباً في التصوف يدرسونه عليه ، اختار لهم الرسالة القشيرية ، وأذكر أنه درسها لمجموعات من الطلبة أكثر من مرة ، وكنت أحضر معهم كثيراً من تلك الدروس .

علاقة التصوف بالطرق :

لم يكن هذا التقدير الذي كان يراه أبي للتصوف ، مقتضياً بالضرورة أن يسري إلى الطرق الصوفية أيضاً . بل كان يرى أن التلازم منفك بينهما .

فالتصوف الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون مأخوذاً من كتاب الله وسنة رسوله ، ذلك لأن السعي إلى الوصول إلى ثمرات الإيمان بالله في القلب واجب رسمه القرآن وأكدته السنة .

أما الطرق التي رسمها كثير من الشيوخ ، كسبل تربوية لتحقيق الغاية ذاتها ، فلم تخل فيما مضى ولا تخلو الآن من البدع .

ونظراً إلى أن أبي رحمه الله كان شديد الإصرار على التصوف النقي ، من حيث إنه كان شديد الإصرار على الانضباط بنصوص القرآن والسنة ، شديد الحذر من التورط في البدع ، فقد كان ينبه دائماً إلى ضرورة التفريق بين التصوف الذي لا يمكن أن يحيا الإيمان في القلب إلا به ، والطرق الصوفية التي كثيراً ما تكون بؤرة لكثير من البدع .

وكان يقول : إن الطرق الصوفية كلها لا تخلو من البدع ، غير أن الطريقة النقشبندية أقلّها بدعاً .

لقد اتجه إليه كثيرون ، من داخل سورية وخارجها ، آملين أن يعطيهم واحدةً من هذه الطرق الصوفية ليلتزموا بها ، ولم يكونوا يشكون في استجابته لرغباتهم نظراً إلى حبه الشديد للتصوف وشدة التزامه بأصوله وآدابه . ولكنه كان يفاجئهم بالاعتذار ، فإذا ألحوا ، أكد لهم أنه غير أهل لذلك . وكان ينصحهم بدلاً عن ذلك بالإكثار من ذكر الله ، وربما دلّهم على ورد يداومون عليه من ذلك ، كما كان ينصحهم بتجنب المحرمات ، لا سيما في المال والطعام ، والتمسك بأهداب الكتاب والسنة ..

وكثيراً ما كان يزوره بعض مشايخ الطرق ، من جهات شتى ، فيخوضون معه في الحديث عن الطرق وآدابها ومشكلاتها ، فكان يقول لهم بصريح العبارة : لقد تحول التصوف عند كثير من مشايخ الطرق إلى حرفة ، تفوح منها رائحة الدنيا وأهدافها . وكان يقول لهم : إنكم لا تسلِّكون مريديكم إلى حقيقة التصوف وجوهره ، وإنما تعطون كلاً منهم وظيفة من الأذكار ، يؤدي كل يوم أعدادها المطلوبة ، ثم يعود فينغمس في دنياه ولهوه كما يشاء ، ويظل يعاني من أمراضه القلبية الكثيرة ، دون أي تبدل أو تغير[1] ، وما التصوف الذي يصطبغ به المسلم إلا نقيض ذلك تماماً .

وهكذا ، فقد كان والدي شديد الولع بالتصوف كثير التفاعل معه واضح الانضباط بسلوكياته . ولكنه كان في الوقت ذاته شديد الكراهية للبدع التي تتسرب عن طريقه ، في كثير من الأحيان ، وتترسخ في حياة كثير من الشيوخ والمريدين باسم التصوف أو تحت مظلته . ولقد قلت أثناء الحديث عن أسباب هجرته إلى الشام ، أن من أسباب ذلك ما كان يفعله بعض شيوخ الطرق الذين كانت لهم دالّة عليه ، من تكليفه بجمع ما يحتاج إليه الشيخ من الحطب لغرض التدفئة في الشتاء من بيوت المريدين وبساتينهم ، ثم إرسالها إليه !.. وقد قلت أنه كان رحمه الله يشتري الحطب من ماله الخاص ثم يرسلها للشيخ دون أن يعلم .

---

(١) يقصد بالأمراض القلبية : الكبر والحسد والعجب والغرور وحب الدنيا ، ومشاعر الأحقاد والأضغان .. إلخ .

هذا ، ولقد كان التصوف في حياته معاناةً يمارسها لا مصطلحاتٍ وأقوالاً يرددها . فكان يظلّ يأخذ نفسه بما يجعله مستغرقاً في شهود الله ومراقبته بعيداً عن الأغيار إلا في حدود التعامل الشرعي معهم ، وكان يظل يأخذ نفسه بالمجاهدة الدائبة كي يطهر قلبه مما كان يسميه سخائم الشهوات والأهواء والأمراض الخفية التي تبعد الإنسان عن الله .

وكان شديد الاشمئزاز من أولئك الذين يجعلون من التصوف ركاماً من الفلسفات الكلامية ، يتحدثون عن الوجد والقبض والبسط ، والفناء والبقاء ، والأحوال ، وهم عن حقيقة ذلك كله بعيدون وتائهون . وكثيراً ما كان يشبههم بمن راح يصف للناس الخمرة ومذاقها ونشوتها ، وهو لم يحصل منها على أيّ مذاق قط .

والآن ، وقد أوضحت فيما أحسب مدى تقديس أبي رحمه الله للتصوف النقي ، وشدة تمسكه به ، معاناة وسلوكاً ، لا حديثاً عنه واحترافاً به ، ينبغي أن أبين فيما يلي موقفه من أمور وقع كثير من الجدل فيها ، أو بدع صبغت بصبغة التصوف وما هي منه في شيء :

الرابطة وأصلها :

معنى الرابطة فيما يقرره ويحرص عليه كثير من مشايخ الطريقة النقشبندية ، هو أن يبدأ المريد في أول توجهه إلى ذكر الله عز وجل ، فيتصور شيخه ويجعل من تصوره هذا فاتحة ذكره لله عز وجل .. ويوصي هؤلاء الشيوخ مريديهم بهذا العمل على أنه ضرورة لا بدّ منها . ووجه ضرورته في نظرهم أن المريد لا يستطيع أن يستلهم ذكر الله عز وجل إلا إذا تصور الشيخ أولاً ، إذ إنه هو الذي يمكّنه من دخول الحضرة الإلهية ذاكراً ومراقباً .

هذه الرابطة ، بهذا المعنى ، كان أبي رحمه الله شديد الإنكار لها ، وشديد الإنكار على من يدعون إليها من الشيوخ أو من يمارسونها من المريدين .

ولقد دعت المناسبة ذات يوم فتحدثت عن هذه الرابطة في أحد دروسي العامة ، وأوضحت حرمة هذا التوجيه وهذا السلوك ، وبراءة التصوف من هذه البدعة التي أقحمت فيه .

وكان أن بلغ كلامي هذا ، سمع أحد شيوخ الطريقة النقشبندية في الجزيرة ، فزار أبي ليشكوني إليه ، ظاناً - نظراً إلى شدة تمسكه بالتصوف ودفاعه عنه - أنه يقول بهذه الرابطة المنكرة ويدافع عنها .. جلس الشيخ يروي لأبي ما بلغه من حديثي عن الرابطة وإنكاري لها ، وكنت أسمع ، وكان من عادتي أن أجنح إلى الصمت في مجلس والدي إلا أن طلب مني الكلام أو اقتضى الأمر ذلك .

ولما أنهى الشيخ حديثه ، قال له أبي رحمه الله : إن هذا الذي قاله سعيد صحيح !..

ثم قال له : إن المسلم إذا جلس يذكر الله ، يجب أن لا يستحضر حتى صورة رسول الله في ذهنه ، فكيف بصورة الشيخ ؟

ثم فصّل له القول في أصل هذه الرابطة فقال : إن الرابطة عند قدماء شيوخ الطريقة النقشبندية لم تكن تعني أكثر من حب المريد للشيخ ، وهو حق لا اعتراض عليه ، لأن علاقة الشيخ بالمريد ، هي علاقة تربية وتسليك ، ولن ينصاع المريد لتربية الشيخ إلا إن أحبه ووثق به . غير أن هذا الحب ما ينبغي أن يمحضه المريد إلا للشيخ الذي جمع بين العلم والسلوك واستقام على الرشد والخلق الإسلامي الحميد ، وكان مثال الزهد والورع والتقوى .

ثم أشار أبي للشيخ إلى مكتوبات الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي ، وأوصاه أن يعود إليه ليجد فيه تفصيل هذا الكلام الذي أوضحه له[1] .

---

(۱) والمكان الذي أحال إليه والدي من هذا الكتاب هو المكتوب التسعون والمئة ، في التحريض على مداومة الذكر مع بيان كيفية الذكر . ج۱ ص۱٦۱ طبعة إستانبول . أقول : ولكن السادة آل الخزنوي في =

أقول : وإنما استحدث هذا المعنى البدعي الخطير للرابطة بعض المتأخرين من مشايخ الطرق ، إمعاناً منهم في حملهم المريدين على تقديسهم وتعظيم شأنهم .

وقد سمعت كلاماً لهذا الشيخ الذي جاء إلى أبي يشكوني إليه في مسألة الرابطة ، قد سجل على شريط بصوته ، يقول فيه للناس من خلال درس عام « إن محبة الشيخ مقدمة على محبة الله عز وجل » !.. ثم قال لهم : لعلكم تستعظمون هذا الكلام وتعجبون منه .. فاعلموا أن سبب هذا الذي أقوله لكم هو أن الله من الكبر والعظم والسموّ بحيث لا يستطيع قلب المريد أن يستوعب حبه مباشرة دون سلوك سبيل إلى ذلك ، وإنما سبيله أن يحب الشيخ ، فإذا أحبه ساقه حبه له إلى حب الله عز وجل . ومن هنا يتجلى معنى قولنا إن محبة الشيخ أقدم من محبة الله !..[1]

= الجزيرة ، يصّرون على أن الرابطة النقشبندية لا تصح إلا بالمعنى الأول ، وهو تصور المريد للشيخ عند فاتحة ذكره لله .. ويؤيدون رأيهم هذا بما ينقلون من القول بذلك عن الشيخ مولانا خالد النقشبندي والشيخ أمين الكردي .. والله المستعان أن يلهمنا الصواب وأن يعصمنا من الزلل في القول والعمل ، وأن يحررنا من العصبية للنفس والهوى .

(۱) وهذا هو نص كلام الشيخ :

« حتى في كتب الطريقة موجود عبارة ، لكن المفروض الإنسان ما يتسرع ، بل يفهم .. العبارة تقول : محبة الشيخ مقدم على محبة الله .. لا تتسرعوا حتى نفسر . فقالوا : معنى مقدم على محبة الله ، ومعناه أفْرَضْ أو أعظم أو أنفع من محبة الله . لا .. قالوا : مقدم على محبة الله يعني المريد لا يصل أولاً إلى محبة الله لأنه بعيد عن الله سبحانه وتعالى . ربُ العالمين رب كبير وعظيم ، والعبد عبد ضعيف ، ما في تناسب وتجانس بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى . لكن في تناسب وتجانس بين المريد والشيخ ، إذا كلّ بني آدم . لذا يقول محبة الشيخ مقدم . يعني المريد يتعلق بالشيخ ، محبته مولذاته ، لا . المفروض محبة الله . لكن يتعلق بمحبة الشيخ حتى يتعلم المحبة . إذا لم يتعلم المحبة صعب رأساً يصل إلى محبة الله ، فبعدما يتعلق بالشيخ وتحصل محبته ، وهالمحبة إسمها محبة مجازية ، بعدها الشيخ يُرفع من البين وتبقى محبة الله سبحانه وتعالى » إهـ . أقول : قارن بين هذا الكلام وبين قول الله تعالى عن عباده المؤمنين : ﴿ .. والذين آمنوا أشدّ حباً لله ﴾ لتلاحظ ما بينهما من علاقة النقيض بالنقيض .

ولا شك أن هذا الكلام ينطوي على زيف كبير . فإن كل إنسان مفطور بمحض إنسانيته على محبة الله عز وجل ، ولكن أحداً لم يقل بأن كل إنسان مفطور على محبة شيخ الطريق . وإن الصفات الثابتة لله عز وجل من عظمة وكبرياء وقدرة وباهر سطوة وواسع رحمة .. من شأنها أن تيسر السبيل المباشر إلى محبة الإنسان لهذا الإله الخالق ، لأن تبعده وتعقده . وإذا أحب المريد شيخه ، فبمحبته لله يحبه ، لا العكس كما يوهم كلام ذلك الشيخ .

وقد كان الناس يغشون مجلس أبي يزيد البسطامي قدس الله روحه ، وقد ظهرت شدة محبتهم له ، فيناجي ربه قائلاً : أي رب .. إنكِ تعلم أنهم يزورونك أنت ، ولكنهم رأوني عندك فأقبلوا إليّ .

هذا هو الكلام الحق المنبثق عن صدق العبودية لله ، لا ذاك !..

ولو أن إنساناً لم يعرف الله ولم يحبه قط ، فمحال أن يحب الشيخ الذي يتجمل أمام الناس بمحبته لله ، إلا أن يحبه لشيء من متعه وفوائده الشخصية أو الدنيوية .

آداب الذكر وموقفه من التثني فيه :

لم يُرَ والدي أكثر تخشعاً وأدباً وإطراقاً للرأس ، منه في حالة ذكره لله عز وجل .

وكان يدعو إلى ذلك ويأمر به .. وكان يذهب إلى ما ذهب إليه جماهير العلماء من أن افتعال التثني أثناء ذكر الله محرم ، وربما سماه في كثير من الأحيان رقصاً . وكان يستشهد في ذلك بكلام العز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام ، وبكلام ابن حجر الهيتمي في كف الرعاع . وبكلام آخرين .

غير أنه كان يحترم اجتهادات الآخرين ، ولا ينكر عليهم شأنهم ، ولكنه لم يكن يشترك معهم في القيام والتثني إن هم فعلوا ذلك .

ولقد كنت معه مرة في مجلس ضم جمعاً من أهل العلم ، وفيهم ثلة كبيرة من الناس ، كانوا يصغون إلى بعض المنشدين . وما هي إلا دقائق حتى هبوا جميعاً قائمين ، وراحوا يذكرون الله مع التثني والانضباط بالنظام الذي يسمى (الحضرة)[1] .

لم يقم أبي معهم .. بل ظل جالساً يذكر الله معهم في مكانه ، وكان الناظر إليه لا يرى فيه إلا كتلة من الأدب والخشوع والحضور مع الله عز وجل .. وفي الناس الذين كانوا يحضرون ذلك المجلس من يقول : إنه رحمه الله قام بعد ذلك ، وقد تحكمت به حال أخرجته عن الالتزام بوضعه الإراديّ . ولكني لا أذكر شيئاً من ذلك الآن . ولست أنكره ولا أثبته .

أياً كان الأمر ، فإن مما لا ريب فيه أنه لم يكن يفتعل التثني والقفز انسجاماً مع الذاكرين الذين من حوله ، ولم يكن يقرّه . ولكن إذا استفزه الحال وأخرجه من طوره فذلك شيء آخر .

---

(١) كان ذلك في دار السيد المنتصر الكتاني عافاه الله . وكان ذلك في الستينات .

وقد زار رحمه الله عمّان ، في أوائل السبعينات ، وكان ابني محمد توفيق بصحبته ، وصلى الصبح في مسجد الحسين ، وصادف أن كان في المسجد مجلس ذكر ، فاشترك معهم ، وبعد قليل قام الجميع إلى (الحضرة) فبقي جالساً حيث هو يذكر الله معهم بخشوع وأدب . وبعد قليل هبّ واقفاً ووضع كفاً على أخرى كهيئة المصلّي وقد ظهرت عليه علائم حال استبدت به ، جعلته في ذهول عن كل ما حوله .. ولما جلس القوم وانتهت (الحضرة) ظل أبي واقفاً كما هو ، على الحال ذاتها . مما لفت أنظار الناس إليه وزجت بكثير منهم في موجة من الخشية والرهبة المنبثقتين عن حقيقة ذكر الله عز وجل . وعن التأثر الذي يتركه في الكيان وفي المكان .

وصفوة القول أنه رحمه الله لم يكن ينكر القيام أثناء الذكر بحدّ ذاته ، ولم يكن ينكر وجود إنشاد يصاحب الذكر عن قيام أو جلوس ، ولكنه كان ينكر التثني والقفز المفتعلين ، أي عن قصد وإرادة .

التصوف والعلم :

لم يكن رحمه الله يقيم وزناً لتصوف لم ينهض على أساس من العلم السليم بكتاب الله وسنة رسوله . وكان يرى أن صدق الانفعال بثمرات الإيمان التي هي حقيقة التصوف ولبه ، لا يأتي إلا من سعة العلم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ، وبالشرائع والأحكام التي خاطب الله بها عباده .

وكان إذا رآني مكثراً من الانصراف إلى كتب التصوف والرقائق ، عاتبني وربما انتهرني ، وحوّلني عنها إلى دراسة الفقه ومعرفة الحلال والحرام .. فإذا رآني مستغرقاً في دراسة الفقه ونحوه كالتفسير والحديث والسيرة وعلم الكلام ، ردّني في عتاب مماثل إلى كتب معينة منتقاه في التصوف وعلم السلوك إلى الله .

ومعنى هذا أنه كان ينبهني دائماً إلى أن العلم وسيلة لا بدّ منها ، وأن التحقق بالتصوف الذي هو ثمرات الإيمان ، غاية ، ولكنها لا تنال ولا يتم الوصول إليها إلا على طريق من العلم .

وكم كان يروي لي حكايات وقصصاً تجسد وتبرز مآل من خاضوا الطريق إلى الله دون ضوابط من العلم بالشريعة وأحكام الحلال والحرام ، فوصلوا إلى ضلالات مهلكة ، لم يتخلصوا منها .

وكثيراً ما كان يحدثني في هذا الصدد بقصة تروى عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وخلاصتها أنه بينما كان ذات يوم جالساً في محرابه يذكر الله ويراقبه .. إذ سمع هاتفاً يقول له : ياعبد القادر ، أبشر ، فقد أسقطت عنك التكليف !.. ولما صحا الشيخ إلى نفسه أخذ يفكر في صاحب هذا النداء ، وفي مدى احتمال إسقاط الله الأحكام التكليفية عن أحد من عباده قبل الموت ، على ضوء ما يدلّ عليه كل من القرآن والسنة ، وكان الشيخ عبد القادر عالماً جليلاً وفقيهاً متمكناً . فصاح الشيخ قائلاً : إخسأ ، فقد عرفتك أيها الملعون . قال فعاد إليه النداء يقول : لولا علمك بالشريعة لأضللتك ، وكم من شيخ مثلك جاهل بها أرديته في أقصى أودية الضلال .

لم يكن يهتم أبي كثيراً بالوقوف على سند هذه القصة ودرجة صحتها . ولكنه كان حريصاً على فهم مغزاها الصحيح وأخذ العبرة منها . فالجهل بالشريعة يزج المسلم في أرض عراء يسهل على الشيطان أن يقتنصه فيها ، أما العلم السليم بأحكامها فيضع المسلم منها فيما يشبه الحصن المنيع الذي يقيه من وصول الشيطان إليه .

وليأذن لي القارئ أن أعبر لأول مرة ، منذ بدئي في كتابة هذه السيرة ، عن شعوري الذي كنت أبعده جهد الاستطاعة عن مجال الوصف لواقع ينبغي أن أنقله في منتهى الموضوعية ، وعما قد يكون للذات من حظ فيه .. إن شعوري الذي أود أن أعبر عنه الآن هو إعجابي بذلك التوازن النادر في حياة أبي رحمه الله ، بين الاهتمام الشديد

بعلوم الشريعة الإسلامية وفي مقدمتها أحكام الحلال والحرام المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ، والاهتمام الشديد أيضاً بالاصطباغ بالتصوف الذي هو ازدهار ثمرات الإيمان في القلب من تعظيم لله وخوف منه وحب له ورضا عنه وثقة به وتوكل عليه . فما كنت تجد جانباً منه يطغى على جانب قط . بل كان كل منهما في حياته عوناً للآخر ، وخير متمم له .

شطحات الصوفية :

هذه المسألة هي المعضلة الكبرى ، التي جعلت كثيراً من المسلمين فريقين في موقفهم من التصوف .. فهي التي جعلت فئة من الناس تنظر إلى التصوف من حيث هو - أي جملة وتفصيلاً - على أنه هرطقة وزندقة وشرود عن ضوابط القرآن والسنة ، وهي التي جعلت فئة أخرى تفهم الأمور على ظواهرها ، وتتقبل العبارات الموهمة بل الباطلة على أساس الثقة بقائليها أو بمن نسبت إليهم .

وكلا الفريقين شارد في قراره هذا عن الحق ، متورط في حيف وظلم كبيرين .

أما الأول منهما فمتورط في ظلم التصوف ، والجنوح عن الحق في حكمه الجائر عليه .. وأما الثاني فمتورط في ظلم الشريعة والدِّين ، إذ مضى يحملها أوزار كلمات وعبارات ما هي منها في شيء .. على أن كثيرين من هذا الفريق الثاني لا ينتهون من ترددادهم لهذه العبارات إلى أي فهم لمعانيها . وإنما يبتلعونها ابتلاعاً بسائق من الثقة المجردة كما هي .. تماماً كما يزدرد أحدهم لقمة من طعام دون أي تذوق ولا مضغ .

فماذا كان موقف أبي رحمه الله من هذه المسألة ، وإلى أي الفريقين كان انتماؤه ؟..

كان رحمه الله يشدد النكير على كل من الفريقين .. فلا جرم أنه كان يمثل بمنهجه الجماعة المتوسطة ، التي تبتعد عن الظلم بكلا طرفيه .

☆ كان أولاً يستنكر العبارات التي لا تتفق معانيها المتبادرة منها ، مع موازين القرآن والسنة وما يجب الإيمان به من مبادئ العقيدة الإسلامية . بل كان يرى حرمة تردادها وقراءتها .

فالشطحات التي تقرأها في الفتوحات المكية لابن عربي ، والتي تخالف في ظاهر مدلولها أصول العقيدة ومبادئها ، غير مقرَّةٍ بتلك المعاني التي تدل عليها قط . ومن ثم فإنه لا يجوز قراءتها فضلاً عن تبنيها والإيمان بها ، ولو على سبيل الإغماض والتسليم .

☆ كان ، ثانياً ، يبرئ قائليها - وقد عرفوا بالاستقامة على الحق وسلوك سبيل التقوى والتمسك بأهداب السنة في الأوساط التي عرفتهم أجمع - إما من صحة انتساب تلك العبارات إليهم ، حتى وإن وجدت في كتبهم ، وإما من إرادة معانيها الظاهرة الباطلة ، فلعل لهم مدلولاً آخر يقصدون إليه ، وإما من الدوام على ما تحمله من معان باطلة فيما لو فرض تبنيهم لتلك المعاني خلال فترة من الزمن ، لأي من الأسباب . فإذا وقعت هذه الاحتمالات سقطت صحة تحميل تلك العبارات دلالة التكفير وحدها ، وذلك قفزاً فوق هذه الاحتمالات كلها . وهذا هو معنى القاعدة الأصولية المتفق عليها : « إذا وقع الاحتمال سقط الاستدلال » .

سيما ، وبوسعك أن ترى قبل هذه الشطحات التي تقرؤها في كتاب الفتوحات ، أو بعدها ، ما يناقضها كل المناقضة ، ويتفق كل الاتفاق مع ما عليه سلف هذه الأمة ، وما هو متفق كل الاتفاق مع القرآن والسنة .

ولكنه كان يعود فيقرر ما قرره من قبلُ الإمام ابن حجر الهيتمي في فتاواه الحديثية ، من حرمة قراءة الفتوحات ، وما شابهه كفصوص الحكم .. لا اتهاماً للمؤلف ، ولكن سداً لذريعة التشويش أو الافتتان بظاهر ما تدل عليه تلك الشطحات من الكفريات .

ولقد عُرِضَ عليه ذات يوم أن يشتري كتاب الفتوحات فرفض أن يشتريه . وتسرب منه بعض الأجزاء إليه مع صفقة من مجموع كتب وقفت عليه في المزاد ، وأذكر أنه تصفح جزءاً منه ، ثم إنه أودعه في زاوية قصية من مكتبته ولم يعد إليه من بعد . وكان يسمع أن في علماء الشام من يجلسون فيتدارسونه بينهم وربما اجتمع إليهم كثير من العوام ، فكان يتمعض ، ويظهر عليه الألم من ذلك ويعلن الاستنكار له . ولكنه لم يكن ليزيد على هذا المظهر الذي يتبدّى عليه ، وعلى كلمات الاستنكار ، أي شيء آخر[1] .

هذا ، مع العلم بأنه رحمه الله كان يجلّ الشيخ ابن عربي ، ولا يذكره إلا بنعته الأكبر ، ولم يكن يسمح لأحد أن ينتقص من مكانته في مجلسه قط .

وكذلك بقية الذين فاهوا أو نقل عنهم بعض الشطحات ، كأبي يزيد البسطامي الذي نقل عنه قوله : ما في الجبة إلا الله ، وقوله : سبحاني ما أجلّ شاني ، وكابن الفارض في بعض ما جاء على لسانه في تائيته الكبرى .. كان رحمه الله يجلّهم إجلالاً كبيراً . ولكنه كان ينأى عن شطحاتهم هذه ويركن إلى الاستفادة من بقية شؤونهم والاستشهاد ببقية كلماتهم وأقوالهم التي لا غبار عليها .

فإذا جاءه من أصرّ على أن يواجهه ببعض تلك الشطحات ويسأله عن معناها وموقفه منها ، أجابه بأن الشيخ إنما قال ذلك في حالة فناء انتابته وعرضت له ، غاب فيه عن شهود ذاته فاستغرق في شهود الحق وحده . ففاه بتلك الكلمات وهو تحت سلطان ذلك الفناء عن الذات ، وفي غيبوبة عن قرار العقل ويقينه . ولذا فإن كلاً

---

(١) أقول : وقد اتفق كل من ترجم للشيخ ابن عربي ، أنه قد دس عليه في كتابه الفتوحات وغيره ، دس عليه الباطنيون ما شاؤوا أن يدسوا . أكد ذلك ابن المقري في نفح الطيب ، وابن العماد في شذرات الذهب ، والشعراني في اليواقيت والجواهر ، وحاجي خليفة في كشف الظنون . وهذا من أهم ما يقتضي الإعراض عن الفتوحات ونحوه . ورحم الله من قال : خذ ما صفا ودع ما كدر . انظر كتاب السلفية للمؤلف : ٢٠٤ .

منهم كان يعود عن تلك الشطحات ويبرأ منها ويؤكد نقيضها ، بمجرد أن تنقشع عنه تلك الحال[1] .

أما الحلاج ، فالذي أذكره أنه كان ينقل الخلاف عن العلماء في شأنه وحاله ، ولم يكن يزيد على ذلك . وربما جنح إلى حسن الظن به .

وبالجملة ، فقد كان رحمه الله يجلّ هؤلاء العلماء ويعدّهم أئمة في الإرشاد وإصلاح النفوس ، وكان يحذرني بين الحين والآخر من الخوض في شأنهم وإساءة الظن بهم . ولقد أوصاني في الكتيّب الذي أودع فيه أثمن وصاياه ونصائحه التي خاطبني بها ، إذ كنت صغيراً جداً وكان قد أبلّ من مرض نجا فيه من الموت ، أن لا أسيئ الظن بأعلام التصوف هؤلاء ، وأن لا أحرك فمي بأي انتقاص لهم ، فإنّ لحومهم مسمومة - على حد تعبيره - ولعلهم من كبار أولياء الله عز وجل ، ولا شك أن المنتقص لهم والمسيئ إليهم يدخل عندئذ في طائلة قول الله عز وجل في الحديث القدسي الصحيح : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب .

وإنما يخرجك من إشكال شطحاتهم ، أن تتذكر الاحتمالات الواردة والممكنة عقلاً ، فتنجو بذلك من حصرك لنفسك بدون موجب في زاوية واحدة هي زاوية التكفير والعياذ بالله ، ثم عليك بعد ذلك أن تبتعد عن تلك الشطحات ولا تقف عندها ، موقناً بأنها ، في ظاهر ما تدل عليه ، كفر ، مستغنياً بذلك عن تكفير أشخاص عرفوا بالصلاح والتقوى ، ولا تعلم كيف آلوا إلى الله .

---

(١) ذكر ابن تيمية رحمه الله قريباً من هذا الكلام في تأويل شطحات أبي يزيد البسطامي الذي كان يجلّه ويقدسه . انظر مجموع الفتاوى : ٣٣٧/١٠ وانظر كتابي السلفية : ص : ٢٠٤ فما بعد .

وحدة الوجود ووحدة الشهود :

أما وحدة الوجود بمعناها الفلسفي ، فقد كان يؤكد والدي رحمه الله أنها باطل من القول والاعتقاد ، ويجزم بكفر معتقدها . وأما وحدة الشهود ، وهي شهود صفات الخالق في مكوّناته ومخلوقاته ، فقد كان يؤكد بأنها من أهم نتائج الإيمان وثمراته .

وعقيدة وحدة الوجود بمعناها الفلسفي ، كما كان يشرحها في كثير من دروسه ومناقشاته ، هي اعتقاد أن وجود الخالق والمخلوق وجود واحد ، ومن ثم فحيثما وجد الخالق لا بدّ أن يوجد المخلوق كجزء من وجوده ، أي الخالق عز وجل . إذ لو لم نقل بذلك لكان وجود الخالق وحده وجوداً ناقصاً . لأن ما يكمل بغيره يصبح ناقصاً عند افتراض عدم وجود ذلك الغير .. وهذا الاعتقاد يؤدي إلى ضرورة القول بقدم المخلوقات ، إذ إن وجود الله لا بدّ أن يكون مساوياً في الوقت ذاته لوجودها ، كما يؤدي إلى القول بالحلول .

ولا فرق في بطلان هذا الاعتقاد وكفره بين أن يصاغ التعبير عنه بهذه الطريقة ، أو أن يصاغ التعبير عنه بطريقة القول بنظرية الفيض ، أي القول بأن وجود الله كان لا بدّ أن يفيض على ما وراء ذاته ، المتمثل فيما يسمى بالأغيار أو المكونات .

وليس اعتقاد الحلول ، أي حلول الذات الإلهية في عين مخلوقاته ، إلاّ لازماً من مستلزمات عقيدة وحدة الوجود بالمعنى الدقيق الذي ذكرناه .

وإنما الاعتقاد المنطقي السليم هو أن نعلم أن الوجود الحق ، أي الوجود الذاتي المستقل بنفسه ، إنما هو وجود الله وحده . ثم إن الله خلق بمحض تدبيره وإرادته وقدرته وجود المكونات التي أبدعها ، كلاً في ميقاته الذي حدده له . فالوجود الأزلي القديم هو وجود الله لا غير ، إذ لم يكن في الأزل ما يسمى غيراً .. واستمر الأمر على هذا

المنوال ما شاء الله أن يستمر ، ثم إن قدرة الله تعلقت بانجاز خلق كل ما قد قضى الله أن يخلقه ، فدخلت تلك المخلوقات عندئذ في نطاق ما يسمى بالوجود[1] .

وهذا يعني أن الوجود الذاتي الحقيقي إنما هو وجود الله وحده . أما وجود ما عداه من الموجودات ، فبإيجاد الله إياها تم أو تحقق وجودها . وهذا هو السبب في تعبير العلماء عن وجود كل ما عدا الله عز وجل بالوجود التبعي أو الوجود الظلّي .. إن الظل له وجود مستقل عن وجود أصله كالشاخص مثلاً ، ولكنه في الوقت ذاته يزول وينمحق بزوال أصله فهو من آثاره ونتائجه[2] .

ولعل من أقرب الأمثلة التي توضح ما نقول : إيقاف الرجل طفله الصغير على قدميه ، إذ يمسكه بيديه . لا شك أن وقوف الطفل غير وقوف أبيه ، ولكنه ـ في الوقت ذاته ـ لم يوجد إلا بالقوة السارية لحظة فلحظة من أبيه إليه .. كذلك الغصن بالنسبة لجذعه ، لا شك أن الغصن غير جذعه . ولكن وجود الغصن إنما امتد إليه من الجذع .

إن استمرارية وجود الإنسان أو غيره من الموجودات ، رهن باستمرارية إيجاد الله له لحظة فلحظة . فمن حدّق في المصدر واستمر يتأمل فيه ، ذابت من أحاسيسه ، صور الموجودات الظلية أو التبعية ، وتحولت الأغيار عنده إلى أخيلة وأطياف ، ولا يبعد إن استسلم لهذه الحال أن يفوه لسانه بما يعبر عن حاله ومشاعره تلك فيُنسب بسبب ذلك إلى القول بوحدة الوجود . ولكنه سرعان ما يعود فيحط على أرض الواقع ليثبت الخلق والمخلوق والخالق .

---

(١) ليس هناك تعريف ذاتي ممكن للوجود ، ولكن أدق تعريف وصفي له هو القول بأنه كينونة الشيء في حدود الزمان والمكان ، غير أن هذا التعريف يصدق على وجود المخلوقات فقط ، لا على وجود الله عز وجل ، إذ هو قبل الزمان والمكان .

(٢) لعل التعبير بالوجود التبعي أسلم من الوجود الظلي ، ذلك لأن تبعية الظل لأصله تبعية حتمية في كل وقت . فهي توهم نظرية الفيض الباطلة . نقول هذا مع التسليم بأن التشبيه من جهة واحدة لا من كل الجهات .

لا شك أنني لا أنقل ، من خلال ما ذكرت ، النصوص التي كان يعبر بها والدي رحمه الله ، في بيان هذه الحقيقة التي كثيراً ما كان يرددها ، ولكني أستطيع أن أجزم أنني عبرت بدقة عن المضمون الذي كان يتناوله ويشرحه بكثير من الإفاضة في دروسه عند المناسبات ، أو في مناقشاته لمن كان يسأله أو يجادله في هذه المسألة . وأعتقد أنني لم أتشبّع بفهم هذه الحقيقة والقدرة على هذا التعبير عنها ، إلا من كثرة ما أصغيت إليه ، وهو يشرحها ويعيد بيانها للسائلين والمستشكلين .

☆ ☆ ☆

فاعتماداً على الشرح الذي كان يؤكده ويكرره والدي رحمه الله ، للعلاقة بين وجود الله ووجود مخلوقاته ، كان يبرّئ شيوخ التصوف وأئمته المشهود لهم بالخير والاستقامة ، من القول بوحدة الوجود بمعناها الفلسفي الذي سبق بيانه . وكان يقول إنما يسري الخطأ إلى نصوصهم وكلماتهم من سوء الفهم الصادر من بعض السامعين أو القارئين لمعانيهم ومراميهم .. لا سيما أولئكَ الأئمة الذين أثنى عليهم وترجم لهم الإمام القشيري في رسالته المشهورة ، وقد قلت إن أبي كان شديد المحبة لها كثير الاعتماد عليها والرجوع إليها .

وكان يبرهن على تبرئتهم من ذلك بالكثير من نصوصهم وأقوالهم . وكان يرى في تلك النصوص الصريحة في دلالتها ما يستوجب تأويل الموهم من عباراتهم الواردة في أماكن أخرى .

أقول : ومن النصوص التي تبرئ الشيخ محي الدين بن عربي من عقيدة الحلول ووحدة الوجود قوله في آخر قصيدته التائية :

وجدت وجوداً لم أجد ثانياً له ... وشاهدتُ ذاك الحق في كل صنْعة
وطالبُ غير الله في الأرض كلّها ... كطالب ماء من سراب بقيعة

إذ من الواضح أنه يتحدث عن الوجود الذاتي ، الذي هو وجود واحد فعلاً وهو وجود الله عز وجل . يدلّ على ذلك البيت الثاني الذي يحذر فيه من الطلب من غير الله ومن الثقة بغيره ومن التوكل إلا عليه . إذ كل ما عداه وهم وسراب .. وهل هذا إلا عين ما قاله لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . وهو أصدق ما قاله لبيد بشهادة سيدنا رسول الله ﷺ .

ومن النصوص التي تبرئ ابن الفارض أيضاً من القول بالحلول ووحدة الوجود ، قوله في تائيته الكبرى :

وكيف، وباسم الحق ظل تخلّقي ... تكونُ أراجيفُ الضلال مُخيفتي
وَهَا دحْيَةٌ وَافى الأمينُ نبيَّنا ... بصُورته في بَدْء وَحي النبوة
أجبريلُ، قل لي، كان دِحْيةَ إذ بَدَا ... لُمهدي الهُدى في صورةٍ بَشرية
وفي علمه عن حاضِريه مزيةٌ ... بماهيَّة المَرْئيّ من غير مِرْية
يرى مَلَكاً يوحِي إليه، وغيرُه ... يرى رجلاً يُدعَى لديه بصحبة
ولي من أتمِ الرؤيتين إشارةٌ ... تُنزِّه عن رأي الحلول قصيدتي
وفي الذكر ذكرُ اللّبْسِ ليس بمنكر ... ولم أعْدُ عن حكمَيْ كتابٍ وسنّةِ

واعجب لمن يرى هذا التصريح البين من ابن الفارض ببراءته من القول بالحلول أو وحدة الوجود ، ثم يصرّ مع ذلك على أن يلصق به هذه التهمة رغماً عن أنفه ، ورضي أم كره !..

والخلاصة أنا إن نظرنا إلى الوجود الحق أو ما يسمى بالوجود الذاتي ، فهو وجود واحد لا ثاني له في الكون كله ، ولن يكون توحيد الله عز وجل إلا بفهم هذه الحقيقة . وذلك هو المغنيّ عندئذ بوحدة الوجود إن عبّر بها بعض أئمة التصوف . وإن اعتبرنا

الوجود بكلا نوعيه : الذاتي والتبعي ، أو الأصلي والظلي ، كما هو مرئي لأعيننا ، فالوجود متعدد عندئذ وليس واحداً ..[1] .

فإن شئت أن تنظر بعيني لبيد ، فلا بدّ أن ترى الكون كله وهماً وباطلاً ، وهذا ما استصوبه رسول الله ﷺ ، وبمثل تلك العين رأى المتصوفة الصادقون الكون من حولهم .

وإن شئت أن تنظر بعيني من يتعامل مع الدنيا ويركن إليها ويثق بها ، فلا بدّ أن ترى الوجود وجودين .. وأغلب الظن أن وجود الفاني سيحجبك عن رؤية الوجود الخالد الباقي .



أما وحدة الشهود ، فهي الحصيلة التي انتهينا إليها ، بعد تمحيص ما قد يسمى بوحدة الوجود . على أن يطرح عن الاعتبار التصور الفلسفي الذي يجنح إليه بعض الفلاسفة ، من اعتبارهم جملة هذا الوجود الكلي للكون ، مساوياً لوجود الله عز وجل . وهي فلسفة خرقاء نادى بها بعض قدماء الفلاسفة ، ثم عاد ، فنادى بها أئمة المذهب الوجودي في الغرب ، وفي مقدمتهم الأب الروحي لهذا المذهب « سيرن كيركجورد » (١٨١٣ ـ ١٨٥٥م) .

فإن هذا التصور الفلسفي لا شأن لأحد من أئمة التصوف المسلمين ، به قط .

فلقد كان أبي رحمه الله ، يعيد هذا الذي ينسبه بعضهم إلى الصوفية ، من القول بوحدة الوجود ، إلى ما يجب أن يعبَّر عنه بوحدة الشهود .

(١) أحيلك مرة أخرى إلى مكتوبات الإمام الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ، فقد كان أبي رحمه الله كثير الرجوع إليه والأخذ منه . ولعله يأتي عنده في المرتبة الثانية بعد رسالة الإمام القشيري . اقرأ المكتوب الرابع والأربعين ، وفيه إجابة مفصلة عن استفسار بعضهم عن وحدة الوجود وموقف الشريعة منها (ج ٢ ص ٧٢) .

بل كان يرى أن المسلم الذي لا يرقى به إسلامه إلى وحدة الشهود ، ليس ممن يمارس حقيقة معنى التوحيد .

وخلاصة ما يقوله في بيان معنى وحدة الشهود ، أنها حال تلاحق شعور الإنسان وليس قراراً يصدر من عقله . فهو على الرغم من يقينه العقلي الجازم بوجود هذه المكونات وحدوثها ومخلوقيتها ، لا يرى فيها أو منها إلاّ مرايا تتجلى فيها صفات الخالق المنبثقة عن أسمائه الحسنى . فهو لا يرى في كثرة المكونات التي يوقن بها إلا وحدة الخالق التي تهيمن على مشاعره .

وقد كان رحمه الله يؤكد أن الانصياع التام للآيات التي يأمر الله فيها عباده بالتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما ، لا يتم ، إلا بعد أن يداوم الإنسان على ذكر الله ، حتى يصقل ذكره لله صفحة المكونات التي أمامه ولا يزال يصقلها . وعندئذ تتحول من كونها حجاباً كثيفا ينسي الإنسان وجود الله وسلطانه وفاعليته ، إلى مرآة وضاءة صقيلة لا تتجلى فيها إلا وحدانية الخالق عز وجل . وهذا معنى قولهم : لا يكمل إيمان المسلم حتى يرى الوحدة في الكثرة . أي حتى يرى الوحدة الربانية في الكثرة الكونية . وكلما ازداد لله ذكراً ازدادت الكثرة الكونية أمامه ذبولاً وضآلة ، إلى أن تمحق بالكلية عن شهوده فلا يرى أمامه في مظهر صنع الله إلا عظمته وصفاته ، مع يقينه العقلي الدائم بوجود المكونات ، وتعامله التام معها .

وكم كان رحمه الله ، يستشهد في التعبير عن هذه الحال ، بقول أحد العلماء الربانيين : ما رأيت شيئاً ! إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده[1] .

أقول : وبمقدار ما يهيمن الحب على القلب ، تهيمن وحدة الشهود على المشاعر والعين . أياً كان المحبوب ونوعه ، وإنما تتنوع وحدة الشهود تبعاً لتنوّع المحبوب .

(١) لم أعد ، ويا للأسف ، أتذكر اسم هذا العالم الرباني الذي كان يستشهد والدي بكلامه هذا .

فالذي تولع بحب فتاة كمجنون بني عامر ، لا يرى في مظهر منازلها إلا رسمها وصورتها . ولن تجد إلا من يعذره في ذلك ، إذ هذا هو شأن الحب وقانونه . ومن ثم فالكل يردد له هذين البيتين بإذعان وإعجاب :

أمرّ على الديار ديار ليلى   أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

والمرأة التي ذاب فؤادها شوقاً وتلهفاً على ابنها الغائب عنها ، تضم ثيابه إلى صدرها وتستنشقها وتقبلها ، دون أن ترى فيها إلا صورة ابنها ، وإذا جاءها منه كتاب ، حملقت في الورق والكتابة وهي لا ترى ورقاً ولا حبراً ولا كتابة ، وإنما ترى من ذلك كله مرآة لا تشهد فيها إلا ابنها .

فإذا اتجه القلب إلى محبة الله عز وجل - وهو أولى الكائنات كلها بالحب ولواعجه - فلا بدّ أن يقع صاحب هذا القلب من حبه لله وشوقه إليه في المشاعر والرؤية ذاتها .. فهو لا يكاد يبصر الزهرة ويشم عبيرها ، حتى يذهل عنها برؤية جميل صنع الله وإبداعه ، ولا يكاد يبصر الكواكب في هدأة الليل تتلألأ في سمائها حتى يذهل عنها بالتأمل في عظمة المكون وباهر حكمته وخلقه ، ولا يكاد يبصر الأطعمة المرصوفة أمامه ، أو الماء النير المتدفق من حوله ، بل لا يكاد يرجع إلى ذاته في المرآة ليتبيّن مظهر العافية في شكله ودلائل القوة في كيانه ، حتى يذهل عن ذلك كله ويخترقه إلى وقفة أدب وشوق وحب يعيشها بكل مشاعره مع الله عز وجل الذي أبدع بجميل صنعه وواسع رحمته وباهر حكمته ذلك كله .

فهل للإنسان ، أياً كان ، أن يعتب على الحب ، في هذا الذي من شأنه أن يفعله بصاحبه ؟

وإذا كان الجواب الذي يمليه علينا المنطق ، هو أن صاحب هذا الحب يقدّس ولا يعاتَب ، سيما عندما يتجه به الحب إلى المصدر والأصل والينبوع ، لا إلى الفروع

والجداول والسواقي ، فما الذي زاد أو غيّر أو زيّف ابن الفارض رحمه الله على هذا الأمر الطبيعي الذي من شأن الحب أن يفعله بصاحبه ، حتى اشتدّ العتب عليه من بعض الناس ، عندما عبر عن هذه المشاعر العُلْوِية ذاتها بقوله :

تراه إن غاب عني، كلَّ جارحةٍ   في كل معنى لطيف رائق بهج

في نغمة العود والناي الرخيم إذا   تآلفا ضمن ألحان من الهزج

وفي مسارح غزلان الخمائل في   برد الأصائل والإصباح في البلج

وفي مساقط أنداء الغمام على   بساط نَوْرٍ من الأزهار منتسج

وفي مساحب أذيال النسيم إذا   أهدى إليَّ سُحَيْراً أطيب الأرج

وفي التثامي ثغر الكأس مرتشفاً   ريق المدامة في مستنزه فرج

لم أدرِ ما غربة الأوطان، فهو معي   وخاطري، أين كنا، غير منزعج

وإنما يتسرب العتب أو النقد على هذا الكلام وصاحبه ، من تصور أنه تعبير عن وحدة الوجود بمعناها الفلسفي الباطل الذي سبق ذكره . غير أن هذا التصور خطأ فادح لا يصدر إلا من ضيق دراية باللغة العربية ومعانيها . إن قصارى ما يريد أن يقوله ابن الفارض من خلال هذا الكلام ، أن الأشياء كلها صادرة من الحق جل جلاله ، وليست هي الحق ذاته ، ومن ثم فهي مظهر بل مرآة لصفاته السنية وأسمائه القدسية[(١)] فجدير بمن برح به الشوق إلى الله ، أن لا يستأنس بها ولا يركن إليها إلاّ من حيث إنها مجلاً لصفات الله وعنوان على وحدانيته .

أعود فأقول : أعتقد أن من العسير أن أضع القارئ أمام التعابير والكلمات والصياغات التي كان يلجأ إليها أبي رحمه الله في شرح ما يسميه بأحوال العارفين ، من وحدة الشهود هذه .. لقد كان ينتشي كثيراً وهو يشرح هذا البحث ويجلّيه لجلسائه ، وكان يفيض ويطيل القول فيه ، وربما أُخذ أثناء الحديث في ذلك عن نفسه ، وانتابته أحوال .. وربما خرج عن طوره فصاح صيحة تفزع كل من حوله .

(١) انظر المكتوبات للإمام الرباني : ٧٢/٢ .

ولكنه مهما شرح وبيّن وأطال ، يعود فيقول : لن يفقه هذا الكلام إلاّ من التاع قلبه بشيء من حب الله عز وجل وتعظيمه والشوق إليه . فأما ذاك الذي حجب بالأكوان عن مكوّنها ، ومحض حبه لمتع الدنيا وشغل نفسه برغائبه وآماله فيها ، فهيهات أن يعي هذه الحقيقة فضلاً عن أن يتذوقها . وكيف يتذوقها من لم يبق في قلبه متسع لحب الله والتعظيم له والشوق إليه .. إن شأنه في أحسن الأحوال أن يحفظ من الدين سطوراً أو كلمات ، ثم يقنع نفسه من ممارسة الدين والتفاعل مع سلطانه بترداد تلك السطور والكلمات والتعامل بها وعلى أساسها مع الآخرين .

ولعلّ من أهم ما كان يقوله بعد انتهائه من شرح معنى وحدة الشهود هذه ، قوله مستدركاً : إذا وقع الإنسان من حالة شهوده هذا ، في ذهول أطبق عليه ، فلم يعد يستطيع أن يتعامل مع الدنيا وأن يصلح من شؤونه معها ، فذلك هو الذي يسمونه الفناء ، وهي مرحلة على الطريق قد يمرّ بها بعض السالكين ، والأفضل ، بل المطلوب ، أن يتجاوز السالك هذه الحالة ، ولا يستسلم لها أو يقف عندها ، فإذا تجاوزها ، فلا بدّ أن يعود إلى صحوه وتزول عنه تلك الغاشية ، فيتعامل مع الدنيا ويستعملها لخيراته ومصالحه كالآخرين ، مع استمرار شهوده لوحدانية الله ، واستمرار رؤيته الأكوان مرايا تتجلى فيها صفات الله عز وجل . وهذا هو الذي يسمونه البقاء ، أو الانضباط مع حالة الجمع والفرق . والمثل الأعلى لذلك الرسل والأنبياء وأصحاب رسول الله ﷺ ، على أن الصحابة في ذلك متفاوتون تفاوتاً كبيراً في درجات الشهود والقرب[1] .

---

(١) يخلط بعض الناس بين هذا التفاوت الذي لا خلاف فيه ، والأدب أو التوقير الذي يجب أن يتحلى به كل مسلم لأصحاب رسول الله جميعاً .. إن هؤلاء يظنون أن واقع هذ التفاوت الكبير ، يعطيهم الحق في أن يمدوا ألسنتهم بالنقد أو قالة السوء إلى من هم أقل شأناً أو أدنى مستوى من غيرهم .. وهذا وهم كبير ، فوجوب التأدب مع أصحاب رسول الله ﷺ ، ليس لأنهم جميعاً يتبوؤن أعلى درجات السّمو والكمال ، ولكن لأن رسول الله أوصى بهم جميعاً ، وقال : اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي . وإذا

وأخيراً .. موقفه من البدع عموماً :

ما من إنسان عرف والدي وخالطه عن قرب ، إلا ورأى حذره الشديد ، وتحذيره الشديد ، من البدع . غير أن موقفه هذا إنما تأسس على جهد أسبق من ذلك ، هو الاهتمام الشديد بتمحيص معنى البدعة ، والوصول إلى الفرق الناصع بين البدع المحرمة والمصالح المرسلة المشروعة .. والذي أعلمه ، أنه أنفق ذات مرة جهداً كبيراً في الوصول إلى الفرق بين ابتداع البدعة التي لا تكون إلا ضلالة ، وابتداع السنة الحسنة التي لا تكون إلا مصدر مثوبة وخير ؛ وكلاهما ثابت بقرار من رسول الله ﷺ[1] .

فلقد اتخذ رحمه الله من قراره العلمي الذي ارتضاه واطمأن إليه بعد طول تحقيق ، منطلقاً إلى تجنب البدع والتحذير منها ، سواء ما كان منها متسرباً عن طريق التصوف وبعض أئمة الطرق ، أو منتشراً بين الناس بدافع من عموم الجهل والتقاليد الباطلة .

زار ذات مرة السيد محمد الهاشمي في مرضه الذي توفي فيه ، وكان شيخاً للطريقة الشاذلية ، وكان معروفاً بصلاحه وتواضعه رحمه الله . ودخل على الشيخ أثناء ذلك أحد مريديه ، فانحنى انحناءة الساجد ، وقبل يد الشيخ ثم وضع جبينه عليها ، فربت أبي على كتف المريد قائلاً : إرفع رأسك فإن السجود على اليد غير جائز ، والشيخ عافاه الله ذاهل عنك بسبب مرضه ، ولو تنبه إلى ما فعلت لمنعك من ذلك ، ففتح الشيخ عينيه ، وقال : جزاكم الله خيراً يا سيدي ، أرشدتمونا إلى الالتزام بهدي شرعنا الحنيف .

= كان هذا هو أول أسباب وجوب التأدب معهم ، فإن اختراق هذا الواجب إساءة مباشرة إلى سيدنا رسول الله ﷺ قبل كل شيء .

(١) أما أولهما فقول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه « .. وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » وأما ثانيهما فقوله ﷺ فيما رواه مسلم أيضاً من حديث جرير بن عبد الله « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء » .

ويقول ابني محمد توفيق إن أحد مشايخ الطرق من أهالي الجزيرة دخل على أبي يوماً في غرفته الصغيرة التي كان يستقبل فيها ضيوفه ، فسلم عليه ثم وقف واضعاً يداً على أخرى. فقال له أبي : إجلس فاستأخر الشيخ وظل واقفاً ، فصاح فيه أبي : أقول لك اجلس ، أم تريد أن تعاملني كما يعاملكم مريدوكم في تلك البلاد ؟!..

وكان رحمه الله يكره العادة الشائعة لدى كثير من خطباء المساجد يوم الجمعة ، إذ يناقضون السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ فيطيلون الخطبة ويختصرون الصلاة ، بدلاً من العكس المتفق مع هدي رسول الله ﷺ[1] .

ولما أراد المؤذنون في مسجده ، مسجد الرفاعي ، أن يقرؤوا هذه الصمدية التي جرى العرف بها ، وما يتبعها من صلوات وإنشاد ، بين يدي خطبة الجمعة ، في أول عهد المسجد بصلاة الجمعة فيه ، منعهم من ذلك ، ونبه عامة المصلين إلى أنها بدعة مخالفة لهدي سيدنا رسول الله ﷺ ، واستمر الحال على ذلك ، بحمد الله ، إلى هذا اليوم .

موقفه من الموالد :

كان يحضر مجالس المولد النبوي الشريف ، إن لم يكن فيها منكر أو بدعة عملية أو قولية ، وكان يعدّها - إن خلت من البدع والمنكرات - من مجالس الذكر التي كان يندب إليها سيدنا رسول الله ﷺ ، وكان يراها داخلة في معنى قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم في صحيحه : « لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلاّ حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده » ، فالحديث دليل على فضل الاجتماع على ذكر الله عز وجل ، ولا شك أن الاجتماع على الصلاة على رسول الله ومدحه والثناء عليه من أفضل أنواع ذكر الله عز وجل .

---

(١) ورد في الصحيح من رواية مسلم أنه ﷺ كان يقرأ سورة الجمعة في الركعة الأولى من صلاة الجمعة وسورة المنافقون في الركعة الثانية .

ولكن إذا شاب هذه المجالس منكر ، كاختلاط الرجال بالنساء ، أو كإنشاد أبيات تخالف هدي رسول الله ﷺ . فإن الحكم يتبع ما تقتضيه المفسدة لا المصلحة ، تطبيقاً للقاعدة الشرعية القائلة « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح »[1] .

أما القيام عند ذكر ولادته ﷺ ، فالذي أذكره أنه في السنوات الأولى من إقامته في دمشق ، كان لا يشترك مع الناس في القيام عنده ، إذ كان يراه بدعة دخيلة على مجلس الذكر الذي هو الإصغاء إلى سيرة سيدنا رسول الله .. ولعله كان يتبع في ذلك ما ذكره ابن حجر الهيتمي في فتاواه الحديثية من أن القيام بحدّ ذاته بدعة . ولكن اجتهاده في ذلك اختلف فيما بعد ، فكان يشترك مع الناس في القيام . وأظن أنه إنما عدل عن رأيه الأول ، ترجيحاً لما قد لاحظه من القصد إلى تعظيم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالقيام .. فالتعظيم مشروع بل مطلوب ، وأداة التعظيم هي اللغة وما اجتمع عليه عرف الناس مما لا يصادم نصاً ولا يخالف حكماً شرعياً ثابتاً .

وكان يعجبه الإنشاد الذي يتضمن الثناء على الله عز وجل ، أو يتضمن مدح سيدنا رسول الله ﷺ بالنهج المشروع ، ويؤثر أن يكون المنشدون والسامعون على حالة من التأدب مع الله عز وجل ، والأدب مع رسوله ، لا أن يهتاجوا هياج من يبحثون عن الطرب بالأنغام والألحان .

---

(١) أقول : لو أن أرباب النحلة الوهابية فصلوا هذا التفصيل في بيان حكم المولد والتداعي إليه ، لأيّدناهم في ذلك . ولكن العجيب أنهم ينكرون أصل التلاقي على تلاوة سيرة رسول الله والصلاة عليه والمدح له ، مهما كان المجلس خالياً من المنكرات ، ومهما شاع فيه معنى ذكر الله عز وجل .. والغريب أنهم لا يرون في التداعي إلى دراسة سيرة محمد بن عبد الوهاب بمناسبة مرور كذا عام على ولادته أو وفاته ، في ظل ندوات ومؤتمرات ينفق عليها المال الوفير ، بدعة محرمة .. فإذا تحول العمل ذاته إلى دراسة حياة رسول الله ﷺ والثناء والصلاة عليه ، تحول العمل كله عندئذ إلى بدعة محرمة ، واتجه الهجوم عليه من كل صوب .. ترى لماذا تصبح البدعة عملاً مشروعاً عندما تكون لصالح محمد بن عبد الوهاب ، وتبقى بدعة محرمة عندما تكون لصالح سيدنا محمد رسول الله ؟!!..

وربما رأى فيهم من يصفّق بيديه ، لطرب استخفه ، فينكر بشدة ، وربما أخذه الغضب . إذ المجلس مجلس ذكر وثناء على الله وصلاة على رسوله ، والتصفيق رعونة أنكرها جمهور الفقهاء ، فما ينبغي أن يشوب المجلس المبرور والمبارك شيء يخالف الشرع أو لا يتفق مع آدابه .

وأذكر أنه حضر حفلاً كبيراً مع بعض علماء دمشق في بعض المساجد ، ولما دخل العلماء المسجد ، وكان والدي معهم ، اصطف جمع من الناس المستقبلين لهم ، عن يمين المدخل ويساره ، وأخذوا يهزجون ، ويصفقون . فاشتدّ غضب والدي رحمه الله . والتفت ينكر عليهم التصفيق ، بل أخذ ينكر على العلماء الذين كانوا معه سكوتهم على ذلك المنكر .

وصفوة القول أنه رحمه الله كان يمسك بجانبين من أهم مكملات الدين ، قلما اجتمعا معاً لغيره في هذا العصر ، هما شدة تمسكه بالتصوف النقي وآدابه ، وشدة تجنبه للبدع والمنكرات المألوفة والشائعة .

صلته بعلماء دمشق

عزلته .. ثم نشاطه .. ثم عزلته

كان فيما حدثني به والدي رحمه الله ، أن أول من تعرف عليه من علماء دمشق ـ عدا العلماء الأكراد الذين سبق الحديث عن صلته بهم ـ الشيخ أبو الخير الميداني رحمه الله . وكان ذلك بعد وصوله إلى دمشق بأشهر قليلة .

قال : وكانت مناسبة ذلك أن الشيخ أبا الخير كان قد دعي إلى نزهة من قبل رجال من حيّ الأكراد ، في بستان لواحد منهم ، ويبدو أن بعض الحاضرين سأله رحمه الله عن حكم مسألة في مذهب الإمام الشافعي ، وكان الشيخ أبو الخير حنفي المذهب ، فتردد في الجواب ولم يجزم . فقيل له عن عالم بفقه الإمام الشافعي من الأكراد ، قد هاجر حديثاً إلى دمشق ، فرغب الشيخ أبو الخير رحمه الله في أن يراه ويتعرف عليه .

قال رحمه الله : فجاء إليّ من يخبرني بالأمر ، ويحدثني عن عالم جليل اسمه الشيخ أبو الخير الميداني ، وعن رغبته الشديدة في أن يتعرف عليّ .. وكان البستان قريباً ، فذهبت وتعرفت عليه وجلست مع القوم بقية النهار ، وطُرِحَتْ المسألة الفقهية التي كانوا يتباحثون فيها ، وذكرت لهم رأي السادة الشافعية فيها[١] .

ثم إنه سمع بعد ذلك عن العلامة الشيخ بدر الدين رحمه الله ، وعن مجالس دروسه ، في دار الحديث وغيرها . فقصد دار الحديث وتعرف عليه ، وحضر بعض دروسه ، وكان معجباً بمزاياه النادرة التي لم تكن مجتمعة إلا في شخصه .

(١) كان قد ذكر لي أبي رحمه الله ، هذه المسألة الفقهية ، التي عقدت رباط الحب بين أبي والشيخ أبي الخير رحمه الله . ولكني أجدني قد نسيتها الآن ولا أستطيع أن أتذكرها .

ولا أدري أتعرف على الشيخ أمين سويد والشيخ محمود العطار والشيخ عبد الحكيم الأفغاني أيضاً ، وأغلب الظن أنه لم يرهم ولم يتعرّف عليهم . ولا أذكر أنه حدثني عن شيء من علاقته بهم .

ولعلّ السبب في ذلك أنه كان في السنوات العشر الأولى من هجرته إلى دمشق ميالاً إلى العزلة ، منصرفاً إلى تدريسه لطلاب العلم في حي الأكراد ، ثم إلى أسفاره التي كان يكدح من خلالها . وكان اختلاطه مقتصراً على أصحابه الذين يألفهم ويركن إليهم ، من العلماء الأكراد الذين كان يجمعه معهم حيّ واحد .

ولعل أهم الأسباب التي أخذت تلفت نظر أبي إلى بعض من علماء دمشق ، اتجاه بعض الطلبة العرب ، من أحياء متعددة في دمشق إليه ابتغاء الدراسة عليه .. كان أكثر أولئك الطلاب ينتسبون إلى معاهد ، ويتلقون على علماء وشيوخ معروفين .. فكانوا يحدثونه عن شيوخهم وأساتذتهم .

وقد حدثني رحمه الله أن بعضاً من هؤلاء الطلبة انقطعوا عنه فجأة بعد دوام منتظم ومستمر .. ثم عادوا إليه بعد حين معتذرين بأن أساتذتهم علموا بالدروس التي يتلقونها خارج دروس المعهد ، عليه ، فعاقبوهم على ذلك عقاباً أليماً ، وأخذوا منهم العهود أن لا يعودوا إلى هذا الجنوح مرة أخرى !..

وممن تعرف عليه والدي مصادفة في وقت مبكر الشيخ إبراهيم الغلاييني رحمه الله ، وكان مقيماً في قطنا ، وكان مفتياً لها ، فكان يزوره بين الحين والآخر في قريته تلك ، وربما استبقاه الشيخ عنده فبات عنده في منزله الليلة والليلتين .. وكان والدي شديد الإعجاب بورعه وكثرة ذكره وتعبّده ، وكانت بينهما مودة شديدة ، وكان آخر عهد أبي به أن زاره الشيخ إبراهيم رحمه الله قبيل وفاته ، أي قبل وفاة الشيخ ، بأيام .

يلي في هذا الترتيب ، فيما أعتقد ، شيخنا الشيخ حسن حبنكة رحمه الله . فقد تعرف عليه والدي ورآه مصادفة في مكتبة أحمد عبيد التي كان كل منهما يغشاها بين

الحين والآخر ، كما سبق أن ذكرت ، ثم ازدادت المعرفة وتوثقت العلاقة بينهما ، عندما أدخلني أبي طالباً في معهده الشرعي الذي أسمي فيما بعد ، معهد التوجيه الإسلامي .

الركون إلى العزلة :

بقيت هذه العلاقات مجرد معرفة ، وفي حدود التلاقي بين الحين والآخر ، دون أن تتطور إلى ما يمكن أن يسمى تعاوناً أو أنشطة اجتماعية أو دينية .

ذلك أنه رحمه الله ، كان ، منذ أن حطت به الرحال في دمشق واستقر به المقام فيها ، ميالاً إلى العزلة ، عازفاً عن الأنشطة والدخول في القضايا الاجتماعية أو الأمور الدينية العامة .

وإني لأذكر يوم كانت أنشطة رابطة العلماء الدينية في أوجها ، وذلك عام ١٩٥٠ و ١٩٥١ وما بعد ... وكنت أتتبع حفلاتها أو مهرجاناتها الخطابية الأسبوعية المتنقلة في المساجد ، كطالب علم صغير ، دون أن يكون لوالدي أي اشتراك أو حضور فيها قط . بل لم تكن له أي عضوية في تلك الرابطة .

وربما حدثته أحياناً عن بعض تلك الحفلات الخطابية ، وأخبرته عن الخطباء والمتكلمين فيها ، وأعتقد أنني كنت أبدي سروري وحماستي للأحاديث والكلمات .. ولكنه كان يبدو غير معنيّ بشيء مما أقول ، وكان يصرفني عن ذلك الحديث دون أي تعليق .

بقي والدي على هذا النهج من العزلة ، يعرف نخبة من العلماء ، دون أن يخالطهم إلا بمقدار ، ويقصر نشاطاته على تدريس بعض الطلاب الذين يترددون عليه ، وعلى بعض الأسفار التي يقوم بها ابتغاء الرزق ، ثم يصرف همه وبقية وقته للمطالعات وأنواع العبادة على النحو الذي أسلفت في فصل سابق .

وكان بدء تعييني مدرساً ، في مدينة حمص ، حيث بقيت فيها من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٠ وخلال هذه المدة تعرف أبي على ثلة كبيرة من علماء حمص ، فأحبهم وحمد فيهم صفات نادرة كان يذكرهم بها كلما ذُكروا ، فكان يزور هذه البلدة بين الحين والآخر لزيارة خالد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز ، وزيارة علمائها ، ولصلة الرحم التي له فيها .. والحق الذي لا شك فيه أنه كان يجد فيها أنس قلبه وانشراح صدره .

ولما عُيِّنت معيداً في كلية الشريعة في نهاية عام ١٩٦٠ ازداد أبي سماعاً لأخبار بعض أساتذتها والقائمين عليها ، وفي مقدمتهم الدكتور مصطفى السباعي ، والأستاذ محمد المبارك ، والدكتور أمين المصري ، دون أن يرى منهم إلا الدكتور أمين المصري الذي كان يتردد على والدي ويحبه من خلال مشربه وتطلعاته الصوفية .

كان الدكتور مصطفى السباعي يعاني آنذاك من شلل جزئي عاقه عن معظم نشاطاته ، ووضعه أمام فرصة ، لم تكن تتاح له من قبل ، لتنمية مشاعره الروحانية وتعميق صلاته الوجدانية بالله عز وجل .. وكان أبي قد علم بمرضه وبأحواله الجديدة هذه ، فرغب في أن يعوده ، ولم يكن قد رآه من قبل .

كنت معه في تلك الزيارة التي رآه فيها لأول مرة .. ولم يستطع الأستاذ السباعي رحمه الله أن يخفي سعادته الكبرى بتلك الزيارة . ولما دعا له والدي بالشفاء ، قال له السباعي : أشهدك يا سيدي أن شفائي إن كان يعني زوال هذه الحال التي أنا فيها مع ربي ، فلا حاجة لي إلى ذلك الشفاء ، فتأثر والدي بكلامه هذا ، وقال له : بل أرجو الله أن يشفيك مع بقاء هذه الحال التي أكرمك الله بها .

إذن ، فقد كانت هذه هي حدود صلات والدي بعلماء الشام وأهلها .. لم تكن تتجاوز العلاقات والمعارف الشخصية المحدودة ، إلى أي نوع أو مظهر من الأنشطة الدينية أو الاجتماعية التعاونية ، بقطع النظر عن الأسباب والعوامل الكامنة وراء ذلك .

وقد ظل على هذه الحال إلى أوائل الستينات .. حيث بدأ يدخل في منعطف جديد من نظام حياته الاجتماعية وعلاقاته مع العلماء والناس .

بدء اشتراكه في بعض الأنشطة الدينية :

كان ذلك عندما رشح الشيخ حسن حبنكة رحمه الله نفسه للفتوى العامة في القطر العربي السوري ، وقام علماء دمشق بأنشطتهم الانتخابية في هذا الصدد . وكان قد اقتنع أبي بأن الوصول إلى قرار يرضي الله تعالى في هذا الأمر ، ثم العمل على تنفيذه ، مسؤولية دينية ملقاة بشكل مباشر على كواهل العلماء ، وهو منهم . ولذا فلا مناص له من التحرك في هذا المجال .

كان يرى رحمه الله ، أن وظيفة الإفتاء العام في القطر العربي السوري قائمة على رعاية المذهب الحنفي ، لذا فينبغي أن يكون العالم المرشح لها من المتقنين لفقه هذا المذهب .. كان اقتراحه الأول ، رعاية لهذا السبب ، أن يرشح لهذه الوظيفة الشيخ عبد الوهاب الحافظ ، المشهور بدبس وزيت ، الحنفي المذهب ،والذي كان والدي يحبه ويجله لزهده وورعه وصلاحه .

ولكن الشيخ عبد الوهاب رفض بإصرار أن يرشح نفسه للإفتاء .. كان البديل الذي ارتضاه والدي وقبله ، بالاتفاق مع سائر العلماء ، هو الشيخ حسن حبنكة ، لقد كان شافعي المذهب ولكن له من سعة الاطلاع ومتانة الملكة الفقهية والتحرق لمصالح الإسلام ما يجعله أهلاً للقيام بهذه الوظيفة .

كان على والدي أن يتحرك مع بقية العلماء للاتصال بعلماء المحافظات ، للتشاور في هذا الأمر ، ابتغاء الوصول إلى اتفاق وقرار موحد فيه .

لست معنياً ، في هذا الصدد ، ببيان المساعي التي نهض العلماء آنذاك بها ، وتفصيل المشاورات ، التي تمت فيا بينهم ، والنتائج التي حدثت أو ظهرت فيا بعد ،

وإنما المقصود أن ألفت النظر إلى أن القيام بهذا الواجب الديني كان فاتحة اشتراك والدي في بعض الأنشطة الدينية والاجتماعية ، مع إخوانه من العلماء .

كان من آثار هذا التعاون ، الذي لم يثمر فيما بعد إلا نهوضاً بواجب ديني لا بدّ أن يقوم العلماء به معذرين لأنفسهم أمام الله عز وجل ، أن التأم شمل عدد من أبرز علماء دمشق آنذاك واتفقوا على لقاء علمي أسبوعي يتدارسون فيه كتاباً جامعاً في فقه الإمام الشافعي رحمه الله . وكان والدي واحداً منهم ، وكان من أبرز من شارك في هذا اللقاء العلمي البحت : الشيخ حسن حبنكة الذي كانت الدروس في بيته ، والشيخ أحمد الدقر ، والشيخ عبد الكريم الرفاعي ، والشيخ الدكتور أمين المصري . رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فراديس جنانه .

لا أعلم شيئاً عن المدة التي استمر فيها اجتماع هؤلاء العلماء على هذا الدرس العلمي الذي يبدو أنه كان مفيداً للغاية . فقد كنت آنذاك في القاهرة موفداً من جامعة دمشق ، للحصول على المؤهل الجامعي . وإنما علمت بكل هذا الذي تم ، بإخبار من والدي رحمه الله .. وعندما انتهيت من دراستي وعدت إلى دمشق ، كان هذا اللقاء الدوري لأولئك العلماء في رمقه الأخير .

كان من أهم الأسباب التي قضت على هذا التلاقي العلمي الدوري ، بعض الهياجات الغوغائية . التي تبرز فجأة كعمل ثوري جادّ وخارق ، ثم ما يلبث أن يضمحل زاهقاً ليودي ويزهق معه تلك الجهود التعاونية الراسخة والمفيدة .

كان أول هذه التصرفات الهياجية ، سلسلة حفلات هائجة صاخبة ، تمت في جامع المرابط بالمهاجرين : لا تدري كيف نظمت وكيف تم التداعي إليها ، ثم أعقبها لقاء غوغائي كبير في جامع الأموي ، تداعى له عامة الناس والسذج الأغرار من الشباب ، بدافع من التحميس والتهييج ، دون أن يستبين أحد اليد المحركة أو الفكر المنظم ..

وهنا أيضاً ، لست بصدد الحديث عما أفرزته سلسلة المهرجانات الخطابية الثورية في المرابط ، أو عما أثمرته الهياجات العاطفية التي تلاقت في الجامع الأُموي ، ولكن المهم هو أن ألفت النظر إلى أن تلك اللقاءات العلمية الدورية الراسخة والمفيدة ، ذهبت ، ككثير من الجهود الأخرى ضحية تلك الهياجات الغوغائية التي استدرج إليها ولا ريب بعض العلماء الذين أدركتهم الصحوة المريرة فيما بعد ، دون أن تفيدهم شيئاً .

إذن ، فقد تناثر الشمل بعد التئامه ، وضاعت الجهود بعد توظيفها ، وانقطعت دروس العلم في كتاب (المجموع) للإمام النووي بعد استمرار وازدهار .. وسافر الدكتور أمين المصري الذي كان واحداً من أقطاب ذلك الدرس ، إلى السعودية ، دون أي حاجة أو ضرورة ، بعد استشارة شكلية ، لزملاء ذلك الدرس ، كانت كما قلت استشارة مُعْلِمَة لا ملزمة .

كان والدي واحداً ممن أنكر عليه السفر ، ونصحه بعدم التحول عن الشام بل عن دمشق . ولكنها كانت ، كما قلت ، استشارة معلمة لا ملزمة .. وقد علمت أنه رحمه الله ندم فيما بعد على السفر وتمنى لو لم يفعل ، كما تمنى لو لم يتورط في بعض تلك الهياجات الغوغائية التي لم يكن لها رصيد تأسيسي سابق ، كما لم يكن لها أي آثار إيجابية لاحقة .

قلت : إن ذلك الشمل قد تناثر بعد التئامه .. ولكني أعود فأقول : غير أن صلة أبي رحمه الله بالحفلات واللقاءات والأنشطة الدينية الأخرى ظلت مستمرة . فكان يظهر مع جمهرة العلماء في المناسبات المتنوعة ، دون أن يكون هنالك عمل تعاوني محدد ينهض به معهم .

موقفه من محنة الشيخ حسن حبنكة :

ليس فينا من لا يعلم خبر المحنة التي أصابت شيخنا الشيخ حسن حبنكة رحمه الله ، والمقدمات التي كانت بين يديها ، والأسباب التي اختلقت من أجلها .

وليس المهم ، على كل حال ، سرد أحداث تلك المحنة وبيان أسبابها ، فلسنا بصدد شيء من ذلك الآن . إنما الذي يتصل ببحثنا هذا ، هو بيان مدى تأثير تلك المحنة ، على والدي رحمه الله ، عندما أحيط علماً بها ، وبيان الموقف الذي بادر إلى اتخاذه .

جاءه الخبر ، على ما أذكر ، وهو في مصلاه في المسجد ، يقرأ ورده كعادته بين المغرب والعشاء[1] وكان أول أثر ظهر عليه من جراء تلقيه لذلك الخبر ، أن قنت في الركعة الأخيرة من صلاة العشاء ، قنوتاً خاصاً يتضمن الدعاء للشيخ والالتجاء إلى الله أن يكرم المسلمين بتفريج الكرب الذي حاق به .. ولا شك أن هذا القنوت فاجأ المصلين بما بعث في نفوسهم تأثراً عارماً لهذا الذي لم يبلغهم علمه إلا في الصلاة .

وبعد الصلاة عاد مستعجلاً إلى الدار ، فجدد وضوءه ، ولبس ثيابه ، وحمل عصاه وأخبر أهل البيت أنه ذاهب إلى دار الشيخ حسن ، لمعالجة هذه المشكلة ، ولا يدري متى يعود .

وجلس فور وصوله إلى الدار في الغرفة الخارجية (البراني) يستوضح تفاصيل الخبر .. ثم ارتأى مع من حوله من الأقارب وأهل الدار ، بَعْثَ رسل إلى نخبة من أهل العلم ووجهاء الناس ، يطلبون منهم باسمه ، أي باسم والدي ، أن يأتوا إلى بيت الشيخ للتداول في هذا الأمر . وتمت المحاولة ولكن لم يأت أحد .

وبقي أبي طوال تلك الليلة لا يبارح منزل الشيخ حسن ، ولم تغمض له عين إلى الصباح . أمضى الليل كله بين مداولة وتشاور ، وعبادة والتجاء وصلاة ..

وفي الصباح ، كان الرأي ، هو أن يتجه بنفسه إلى بيوت السادة العلماء للتشاور في الأمر ، ولكن هذه المحاولة الثانية أيضاً لم تنجح ، ولم يتح لوالدي ولا لأحد ممن كانوا معه أن يدخلوا أياً من تلك البيوت أو أن يقابلوا أياً من أولئك السّادة .. وعاد أبي ظهر اليوم الثاني إلى داره مرهق الجسم محطّم الأعصاب كئيب النفس ..

(١) كان من عادته أنه لا يبارح مصلاه بعد صلاة المغرب ، إلى العشاء ، ولا يكلم أحداً إلا لضرورة قصوى .

وسارت الأمور بعد ذلك على النحو الذي كتب لها أن تسير فيه ، وأحيل الأمر إلى لطف الله الذي هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، دون أن يخطر في البال شيء عن هذا الواجب الذي يُحمِّله أرحم الراحمين عبادَهُ المسلمين ، ودون أن يخطر في البال أن رسول الله قد قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » متفق عليه .

عاد أبي إلى الدار محملاً من معاناته الفاشلة ، كما كان يسميها ، بثقل لا يتناهى من الدروس والعبر ، كان يستعيدها ويتدبرها في كل مناسبة .. ولعلّها من أهم العوامل التي أعادته إلى عزلته التي انطلق منها ، ثم لم يبارحها ولم يتحول عنها حتى وافاه الأجل المحتوم .

رعاية وحدة المسلمين واجب مقدس :

تلك هي عقيدته التي كان ينافح عنها بقوة ، ولا يبالي في سبيلها بحظوظ النفس ورعاية الذات . وكان مستند عقيدته هذه أن وحدة المسلمين هي أولى ثمرات إسلام المسلمين في دار الدنيا ، وأنها من أهم ما امتن الله به على عباده من أنواع النعم ، وأنه عز وجل أوصى عباده بحراستها ، كما لم يوصهم بأي عزيز آخر .

وكان يؤكد أن رعاية وحدة المسلمين لا تتم إلا بتنمية مشاعر الأخوة الإسلامية فيما بينهم . ومن ثم فإن العلاج الذي يحقق وحدة المسلمين ، هو تطبيق قول الله عز وجل ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ٤٩/١٠] ولقد كان كثير التكرار في دروسه لحديث رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يُسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة »[1] وللحديث الآخر : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يَكْذِبُه ولا يخذله . كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه وماله ودمه ، التقوى هاهنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[2] .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

وكان إذا مرّ بهذا الحديث أو ذاك ، أفاض في شرحه وأطال ، وكشف عن الكثير من آلام نفسه بسبب غربة هذا الحديث بين المسلمين وبعدهِم عن الالتزام بمضمونه اليوم .

وكان يعلّم أهله وولده وأحفاده سلوك السبيل الأمثل والدائم إلى حماية الأخوة الإسلامية ورعاية وصية رسول الله في إخوانه المسلمين على أتم وجه . ومن أهم السبل إلى ذلك في نظره ويقينه :

١ ـ التوجه إلى أعمال الدعوة الإسلامية وإرشاد الناس إلى الحق ، من خلال دائرة الأخوة الإسلامية العامة والشاملة لكل الفئات وسائر المستويات ، لا من خلال تقسيم هذه الدائرة إلى شرائح من الجماعات والفئات الإسلامية المختلفة والمتخالفة .

٢ ـ إبعاد سلطان المشاعر والخصوصيات الفئوية والقومية ، عن هذه الأخوة المقدسة الشاملة ، كي لا تعكر صفوها ولا تضيق من مداها .

ولا بدّ من عرض تفصيلي لموقفه من كلٍ من هاتين الآفتين اللتين تشكلان الخطر الأكبر على سلطان الأخوة الإسلامية التي رسخها كتاب الله ، ثم أوصى بيانه عز وجل برعايتها والاهتمام بها وعدم الانتقاص منها .

أولاً ـ موقفه من السبل الرامية إلى تمزيق الأخوة الإسلامية الشاملة وتحويلها إلى جماعات إسلامية شتى :

كان يرى رحمه الله أن أي نشاط إسلامي يرمي إلى اصطفاء فئة من المسلمين من الجماعة الإسلامية الكبرى التي سماها رسول الله (جماعة المسلمين) ، وتمتين الصلة بها من دون بقية المسلمين ، ويرمي إلى تغذية شبكة العلاقة فيما بين أفرادها على حساب الأخوة الإسلامية التي عقد الله رباطها وأوصى بتغذيتها ورعايتها : لا يكون في حقيقة دوافعه إلا استجابة للأثرة المقيتة ، ولكن في مظهرها الجماعي لا الفردي .

وكان يرى في شعارين تتعامل معها كبرى الجماعات أو الأحزاب الإسلامية ، أكبر شاهد على ما يقول : أحدهما الشّعار القائل « من لم يكن معنا فهو علينا » والآخر الشعار القائل « من لم يكن منا فهو مسلم في الدرجة الثانية » .

وكان قد سمع أنَّ من دأب أبرز هذه الأحزاب أو الجماعات ، أن تقتنص الشباب بل الأطفال من أسرهم ، وتُهَوِّنَ من واجب الانصياع لآبائهم والبرّ بهم ، كي يتيسر إقناعهم بالانتماء إليهم والعمل معهم خفية عن آبائهم ، أو بالتمرد على وصاياهم وأوامرهم !.. فكان يخشى أشدّ الخشية من أن يتسرب هذا الأمر إلى بيته ، وأن يُقْتَنَصَ ابنُه أو أحفاده من دائرة حكمه ونهج تربيته بمثل هذا السبيل . فكان يوصيني ويحذرني وينصحني في كل مناسبة أن أكون مع جماعة المسلمين العامة ، وأن لا أستبدل بهذا الانتماء الذي أمر الله به أي انتماء أضيق . حتى إذا وثق بالتزامي بوصاياه واقتناعي بنصحه ، أمرني بعد ذلك أن أكون رقيباً على أولادي الثلاثة ، فأتعقبهم وأفتش في أوراقهم وأنظر ما في أدراجهم ، خوفاً من أن يتسربوا أو يتسرب واحد منهم خفية ، تحت سلطان هذا الأسلوب الذي يتبعه رواد تلك الجماعات بل الأحزاب . فينتمي إليهم ويتعاون معهم ، ويتمرد أخيراً على أهله وأبويه .

ولقد كنت أفعل هذا الذي يوصيني ، بل يأمرني به أبي ، ولعل ذلك كان سبباً من أهم أسباب حماية الله لي ولهم من اتباع تلك السبل المتعرجة ، التي تقصي الإنسان عن ولائه وحبه لجماعة المسلمين عامة ، ومما لا ريب فيه أن تلك الحماية الربانية التي أكرمنا الله بها بتربية والدي الدائبة لنا ، هي التي فتحت قلوبنا لمحبة سائر المسلمين على اختلاف فئاتهم وجماعاتهم ومشاربهم . ذلك لأن الابتعاد عن الانتماء إلى جماعة بخصوصها هي الضمانة لأن يكون المسلم على صلة طيبة معها ومع سائر الجماعات الإسلامية الأخرى .

ولقد تجمعت في حياة والدي رحمه الله تجارب كثيرة في تلك الحقبة ، زادته يقيناً بالخطر الذي كان يحذرنا منه ، وكثيراً ما كان يعرض لنا من تجاربه هذه ما يضعنا منه

أمام البرهان القاطع على أن مـا ينصحنـا بـه هو الحق ، وهو الأقرب إلى الالتزام بصراط الله وشرعه .

من تلك التجارب التي كان يكرر الحديث عنها في المناسبات ، ما ذكره لي من أنّ شاباً صغيراً استوقفه في الطريق وهو خارج من المسجد ، بعد أداء صلاة الجمعة ، وكان والدي هو الخطيب آنذاك . وأخذ يجادله في بعض ما قاله في خطبته ، ثم قال له : ألست كنت تعرّض فيما قد ذكرته بفلان وفلان ؟..

قال : فقلت له : عندما رُبيّ طفل مثلك على أن يستوقف شيخاً مثلي في الطريق ، ليجادله ويحقق معه ، كما تفعل ، مُنيَ المسلمون بهذا التشرذم الذي أصابهم ، والرزايا التي حاقت بهم .

وكان يروي لنا أن شاباً من العاملين في حقل أكبر جماعة إسلامية ، زاره مرة ، وقال له في عنجهية ناقدة : إلى متى يا شيخنا تظلون تدعون الناس إلى الصلاة وأداء العبادات ؟

قال له : إلى أن نرى أن الناس جميعاً قد استقاموا على ذلك كله !.. ثم قال له : إن العبادات التي تستهين بها ، وتتبرم من استمرارنا في التذكير بها والدعوة إليها ، هي المرقاة الوحيدة إلى سائر الخيرات ، وهي المفتاح الأوحد لحلّ سائر المشكلات . وتلك هي وظيفتنا التي أقامنا الله عليها وخلقنا من أجلها . فلا نزال نقوم على أدائها ونذكر الناس بها ، حتى يأتينا يقين الموت .

وبوسعك أن تتصور مدى اشمئزاز أبي من هذا النقد المتعالي ، إذا علمت أنه الرجل الأول بين علماء دمشق ، في كثرة التعبد والتبتل ، وتذكير الناس جميعاً بالإقبال على الله تعالى من هذا الطريق ، ومعالجة مشكلاتهم من خلال هذا الباب .. ثم إنه كان يعلم أنه ليس نقداً شخصياً آتياً من تصور خاطئ لشخص ، وإنما كان يجزم بأنه تعبير عن رؤية الجماعة ومنهجها .

☆ ☆ ☆

ثانياً ـ اهتمامه بإبعاد سلطان المشاعر والخصوصيات الفئوية والقومية عن طريق الأخوة الإسلامية المقدسة الشاملة .

كان أبي كردياً كما هو معلوم . وكانت اللغة الكردية هي لغته الأم ، ولقد ظلت آثار العجمة بادية على لسانه وحديثه أثناء كلامه العربي . ولكنه كان يحاذر أن يجعل من انتمائه هذا مصدر رعاية لعلاقات قومية ، من شأنها أن تضعف اندماجه في دائرة الأخوة الإسلامية ، أو تعكر صفو انتمائه إليها .. فالأخوة الإسلامية ـ في نظره ـ هي الدرع الأول للوجود الإسلامي على مرّ العصور كلها . وأخطر ما يتربص بها من الآفات ، أن تستيقظ فتتنامى فيما بينها حواجز القوميات ، فتحل فيما بعد محلّها . وينظر المسلمون وإذا بدرع تلك القوة قد ذاب وتهلهل ، واستقرت في مكانه بذور هذا التناقض الذي لا يلبث أن تتقاوم محاوره ليقضي بعضها على بعض .

وإنما السبيل ، في اعتقاده ، لاستبقاء درع هذه الأخوة الإسلامية المقدسة ، يعمل ويؤدي وظيفته بحيوية دائبة ، أن يرعى المسلم انتماءه إلى القوم أو الشعب الذي ينحدر منه ، ويحافظ على اللغة التي اختصه الله بها . على أن يكون كل ذلك مشمولاً بسلطان الأخوة الإسلامية خاضعاً لمصالحها سائراً وراء مقتضياتها .

كان يتردد عليه بين الفترة والأخرى بعض الأكراد القوميين ، وربما دخل معهم في عراك كبير ، حول هذا الموضوع ، دون أن ينتهي النقاش إلى وفاق .

قال له طبيب كردي مرموق ذات يوم : إن الذين كانوا ولا يزالون يحرموننا من فرص النجاح في قضيتنا الكردية ، أنتم يا رجال الدين الأكراد !..

قال له والدي : وكيف ؟ ماذا فعلوا ؟..

قال لأنكم تجعلون من الدين المسألة الأولى في حياة شعبنا الكردي .. وذلك من شأنه أن يزج الأكراد في خدمة العرب من أجل الدين ، وأن يجردهم من قدراتهم القومية ويحرمهم من حقوقهم الإنسانية والطبيعية .

قال : فما الذي ينبغي أن نفعله ؟

قال : ينبغي أن تتعاونوا معنا في جهودنا السياسية ، وتسخروا نفوذكم بين الأكراد ، علماء ورجال دين ، للانضمام إلى أنشطتنا ومسيرتنا القومية .

قال له والدي : حسناً ، تعاونوا معنا في الانضباط بأوامر الشرع وأحكام الدين ، نتعاون معكم في جهودكم السياسية والقومية المنسجمة معها .

أجابه الطبيب : أمهلونا .. وأرجئوا أنظمتكم وأوامركم الشرعية إلى ما بعد فراغنا من كفاحنا القومي وإلى ما بعد قيام الدولة الكردية ، نحقق لكم حينئذ ما تريدون .

ابتسم والدي لكلامه هذا ابتسامة السَّاخر ، وقال له : أنا عائد من الطريق الذي تعرِّفني عليه وتريد أن تسلِّكني فيه .. كان أتاتورك أسبق منك إلى هذا المكر ، وأقدر منك على هذه الحيلة !.. ستجعلوننا مطايا لكم إلى ما تريدون ، وفي النهاية ستتنكرون لكل شيء ، وستقولون : ما عرفناكم ولا شأن لنا بكم قط . وانقطع بينهما الجدل عند هذا الحد .

كانت الصورة التي في ذهن والدي للكردي المسلم ، والتركي المسلم ، والعربي المسلم ، والفارسي المسلم ، صورة أزاهير ذات ألوان شتى تلاقت وامتزجت في حديقة واحدة ، هي حديقة الإسلام ، التي تترجمها الأخوة الإسلامية ، التي تثمر بدورها الوحدة الإسلامية ، ذات الأثر الإنساني المسعد لسائر تلك الأصناف من الزهور .

والخلاصة أنه رحمه الله كان يرى العمل على حماية وحدة الأمة الإسلامية ، واجباً إسلامياً كبيراً منوطاً بعنق كل مسلم ، أياً كان القوم الذين ينحدر منهم . وإنما يتمثل عصب هذه الوحدة في رعاية الأخوة الإسلامية التي يجب أن تستوعب شتى فئات المسلمين ، على تفاوت مستوى التزامهم الإسلامي .

رأيه في الصلة بالحكام وكيفية النصح لهم :

كان رحمه الله مشبعاً في هذه المسألة ـ ككثير من المسائل الأخرى ـ بما يراه الإمام الغزالي في كتابه الإحياء . وخلاصة ذلك أن السعي إلى مواصلتهم ابتغاء الحصول على مغنم دنيوي أياً كان نوعه ممقوت ومذموم ، وإن جاء ذلك مقنعاً بصورة الدعوة إلى الله أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . أما الاتصال بهم لنصحهم وتذكيرهم بالله ، مع الزهد في دنياهم والترفع عن أعطياتهم ، فجائز ومبرور . وكان يستشهد في ذلك بحال كثير من العلماء الربانيين في العصر الأموي والعباسي .

وفي كل الأحوال ، فإن الإمام أو الحاكم إذا استدعى أياً من الناس إلى مجلسه أو ملاقاته ، وجبت الاستجابة ، وعليه أن يلتزم في استجابته بآداب الإسلام ونهجه .

وكان يقرر ما انعقد عليه اتفاق جماهير العلماء ، ودلّ عليه صريح الحديث الصحيح ، من أن الخروج على الإمام محرم في كل الأحوال ، إلا إن تلبس بكفر بواح ، أي صريح وقاطع .

وكان يؤكد أن فسق الإمام ، أو سلبه لأموال الناس ، وتورطه في ظلمهم والجور عليهم ، لا يبرر الخروج عليه . وكان يرى أن الحاكم مهما جار أو فسق ، فلن يبلغ في جوره وانحرافه إلى أبعد مما وصفه رسول الله إذ قال : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدايتي ولا يستنون بسنتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس » فهل تتصور أن يبلغ الانحراف والفسوق بحاكم إلى أكثر مما وصف رسول الله في هذا الحديث ؟ ومع ذلك فقد أجاب رسول الله حذيفة بن اليمان عندما سأله : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ فقال « تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك ، فاسمع وأطع »[١] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن اليمان .

ولما قامت في سورية الفتنة التي كانت نتيجة اجتهاد خاطئ لبعض الحركات الإسلامية ، أنكر عليها والدي رحمه الله عملها جملة وتفصيلاً .. وأنكر على قادتها اعتمادهم على التكفير الجماعي دون التزام ضوابط الشرع وحكمه .

ولما وقعت مجزرة مدرسة المدفعية بحلب ، واتصل بي مسؤولون من وزارة الإعلام ، يرغبون إليّ أن أعلن عن حكم الشريعة الإسلامية في ذلك ، استشرت أبي فيما طلب إليّ ، فأمرني بالاستجابة . ووجهني إلى الحكم الشرعي الذي يجب أن أقوله دون مواربة ولا حذر .. فاستجبت ، وتحدثت حديثاً تلفزيونياً مفصلاً عن حرمة هذا العمل الذي تم الإقدام عليه . وأنه لا يدخل في أي من أنواع القتل المشروع ، فلا هو داخل في قتل المرتدّ لأن الردّة لم تتحقق ولم تقم عليها أي بينة ، ولا هو داخل في القتل قصاصاً إذ لم تثبت على المقتولين أي مسؤولية جرمية ، ولا هو داخل في القتل بسبب الصيال أو الحرابة ، لأنهم لم يكونوا صائلين ولا محاربين .

والحقيقة أن كل الذي قلته حينئذ كان بتوجيه وإيعاز من والدي رحمه الله .

☆ ☆ ☆

وكان رحمه الله يرى ضرورة نصيحة الحاكم ما أمكن ، وكان يعتقد أنها من أجلّ القربات إلى الله . على أن تكون صافية عن شوائب الطمع في مغنم أو الفرار من مغرم ، وأن تكون في غاية الحكمة واللين .

عزم وزير الأوقاف السابق ، الدكتور محمد محمد الخطيب ، على تنظيم مهرجان خطابي كبير بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري ، وقرر إشراكي خطيباً في هذا المهرجان ، وأن ألقي أمام السيد الرئيس حافظ الأسد كلمةَ جامعةِ دمشق . وكانت حوادث الفتنة آنذاك على أشدها .

فاستعفيته عن الاشتراك في هذه المهمة التي بدت عسيرة عليّ لأسباب كثيرة .

ولمّا ألحّ عليّ ، أحلت الأمر على والدي ، واشترطت موافقته الصريحة على ذلك ، وكنت أتصور أنه لن يوافق على خوضي في هذا المجال الذي أُدعى إليه لأول مرة ؛ فقبل الدكتور الخطيب هذه الإحالة ، وزار والدي وعرض عليه مشروعه واقتراحه ، وأعلمه أن الحفل سيكون بحضور السيد الرئيس وتحت رعايته . وكانت المفاجأة الكبرى لي أنه رحب بالمشروع ، ووافق على أن تكون لي كلمة جامعة دمشق في ذلك المهرجان .

ولكنه اشترط أن لا يقيدني بنوع من الكلام ، وأن أمارس حريتي فيما أقول . فقبل السيد الوزير ذلك ...

جلست فيما بعد أسترشد برأيه فيما ينبغي أن أقول ، فحدثني عن الأجر الرباني الكبير على نصيحة الحاكم ، إن جاءت خالصة لوجه الله صافية عن الشوائب كلها . وأوصاني أن أجعل من حديث رسول الله ﷺ « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .. » المحور الجامع لكلمتي كلها وأن أنبه إلى أن كل فئات الأمة تتقاسم المسؤولية وتتعاون في النهوض بمهامّها . وإنما يكون التعاون على هذا الطريق بالاعتماد على شبكة من حسن الظن المتبادل .. ونبهني إلى أنّ التكفير الكيفي للناس سلاح الحاقدين والمنتقمين ، وأن النصيحة القائمة على التعاون وحسن الظن هي سلاح المجاهدين .

وألقيت كلمتي في ذلك الحفل التاريخي ، وشاء الله أن يكون لها صدى كبير وبعيد .. وأكثر الناس لا يعلمون أن سرّ ذلك الصدى إنما يكمن في ذلك الأساس الخفي ، المتمثل في موقف أبي وتشجيعه وتوجيهه ، والتزامي جهد الاستطاعة بما قد أوصى ونصح به .

وفي أحد شهور رمضان من أواسط الثامنينات ، دعيت إلى حديث تلفزيوني ، وكان السيد الرئيس قد حقق بعض الإنجازات الإسلامية المفيدة ، منها رفع قيود رقابية إضافية كانت تمارس على الكتب الإسلامية ، ورفع قيود تتعلق بالحجاب ، في الدوائر ، كانت في الطريق إلى الاعتماد والتطبيق ، ومنها صبغ البرامج الإعلامية المرئية والمسموعة

بالمزيد من الضوابط الأخلاقية والإسلامية .. وكان أبي على علم بذلك ، فأوصاني أن أنوه بهذه الإنجازات وأن أشكر السيد الرئيس عليها ، وقال لي : ليكون ذلك تشجيعاً لفعل المزيد ، ثم أيد وصيته هذه بقول رسول الله ﷺ ، في الحديث الصحيح « لم يشكر الله ، من لم يشكر الناس » .

واستجبت للندوة التلفزيونية التي دعيت إليها ، وكانت كما قلت في شهر رمضان ، ونفذت الوصية التي أوصاني بها الوالد ، فشكرت من سميته صاحب اليد الخفيَّة ، وهو السيد الرئيس على إنجازاته تلك[1] .

ثم إنه رحمه الله كان يوصي بالدعاء للحاكم ، أن يهديه الله لمحابّه ـ على حد تعبيره ـ وأن يوفقه لما فيه خير الإسلام وصلاح المسلمين ، ويستشهد في ذلك بمواقف كثير من رجال السلف الصالح وأقوالهم .

الدعوة إلى الله ومحاورة العصاة واللطف بهم :

كان رحمه الله لا يفتأ يدعو إلى الله ناصحاً ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، كلما أمكنته الفرصة من ذلك . كان ذلك شأنه في المجالس التي قد يُدعا إليها ، وفي مجلسه الذي يغشاه الناس فيه ، بل في الطريق الذي يمشي فيه أيضاً إن اقتضت المناسبة وأمكنته الفرصة .

---

(١) ذاك هو منهج والدي رحمه الله في الصلة بالحاكم ، وطريقة النصح له .. وتلك هي وصيته لي رحمه الله . ولن أحيد عن هذا المنهج بتوفيق الله وعونه حتى ألقى الله عز وجل ، أوصي بالخير ، وأحسن الظن ، وأشكر على ما قد يتم إنجازه من الحق ، مبتعداً عن المغانم والمنافع الدنيوية التي قد تلوح من خلال ذلك . ولن أفتأ أدعو له ـ كما أوصانا ـ بمزيد من الاستقامة على الرشد ، ما حييت . فقارن ـ رحمك الله ـ بين هذا النهج الذي ربانا عليه ، من لا يشك أحد ممن عرفه في إخلاص سريرته وصفاء قصده ونزاهته عن الدنيا ومغرياتها ، وبين أولئك الذين بلغ بهم الأمر أن ضاقوا ذرعاً بوصفي لقطرنا العربي السوري ، بالمؤمن في بعض كتبي ، لأنه ـ ربما ـ يمتد بالسراية إلى رئيسه !! (راجع هذه مشكلاتهم . ص : ١٢) .

كان إذا مرّ بمنكر وتنبه إليه في طريقه ، وقف على أصحاب المنكر يعظهم ويرشدهم ويحذرهم .. ثم مضى فتابع سيره ، مرّ في طريقه من البيت إلى المسجد بمنزل سمع فيه أصوات لهو وقصف ، فوقف يقول : ياأهل القصور غداً تنزلون القبور !..

وجاء إلى المسجد مرة ، فوجد عند مدخله جمعاً من الناس يقفون في انتظار جنازة كانت في المسجد . كما هي عادة كثير من الناس ، فوقف يكلمهم وينكر عليهم هذه الوقفة الرعناء أمام باب المسجد ، دون أن يدخلوا ليصلوا مع الناس ، وقال لهم : أليس في حال هذا الميت الذي جئتم تشيعونه ، ما يذكركم بمصيركم القريب وما يدعوكم إلى التوبة والإنابة ؟ أم هي وقفة تكبر على الله واستنكار لما فعله بيتكم ؟!..

وربما مرّ بشباب يلهون بعمل أو لعب محرم في بعض المقاهي أو على قارعة طريق ، فوقف ينبههم إلى حرمة ما هم فيه ، ويذكرهم بالله ، ويدعوهم إلى الإقلاع عنه والتوبة والإنابة إلى الله عز وجل .

غير أنه لم يكن يندفع إلى شيء من ذلك إلا بسائق شفقة ورحمة .. بل كان يذكّرنا في مجالسنا الخاصة وفي دروسه العامة ، بأن المعصية ابتلاء ، وبأن على الطائع أن يحمد الله على العافية التي متعه بها ، وكان يؤكد لنا دائماً أن على المرشد أن يعالج حال الفاسق أو العاصي كما يعالج الطبيب مريضه : يعذره لمرضه ، ويعالجه في الوقت ذاته بالنصح والإرشاد لإنقاذه .

وكان يقول : إن النهوض بواجب الدعوة والإرشاد ليس أكثر من تنفيذ لحكم الشرع .. فربما آل حال الفاسق العاصي إلى خير من حال من يرشده وينصحه . وربما آل حال المرشد إلى شرٍّ من حال العاصي الذي يتقلب في فجوره وعصيانه . وإن على المرشدين والدعاة أن يعلموا هذه الحقيقة يقيناً يتعاملون معه ، لا تواضعاً شكلياً يتجملون به .

وكان يستشهد في هذا بحال رجل من كبار علماء التصوف في بلاد الأكراد ، فكان يحدثنا أنه إذا جلس بين مريديه قبيل بدء ختم الطريقة النقشبندية ، بدأ ينصحهم أولاً ، ثم كان يقول لهم في كثير من الأحيان : حُشِرْتُ محشر هامان وفرعون ، إن كنت أعتقد أو أظن أني خير عند الله من أي واحد منكم . ولكنها وظيفة وضعها الله في عنقي يجب أن أقوم بأدائها .

أقول : وتلك هي حال العلماء الربانيين ، وذلك هو شأنهم في النظر إلى أنفسهم ، وفي التعامل مع الناس .. ومنه ينبثق سر التأثير الساري من كلامهم إلى نفوس الآخرين وأفئدتهم .

ولعل في ذكر الحادثة التالية ما يؤكد هذه الحقيقة ويجسّدها .

زار والدي مرّة مسؤول كبير ، ذو مكانة مرموقة في الدولة ، لأول مرة ، دون سابق معرفة . وهو من هؤلاء الرجال الذين لا يقيدون أنفسهم بأي مظهر ، أو حتى التزام ديني ربما .

واستقبله أبي في غرفته الصغيرة المتواضعة ، كما يستقبل عامة من يزوره من الناس .. وجلس الرجل كمن يحب أن يتعرف على شيء غريب قد يتبدّى في حال إنسان مجهول ، بسائق مجرَّد الرغبة في حب الاطلاع .

وتكلم المسؤول الكبير ، فخاطبه بالكلمة التقليدية المعروفة ، التي يخاطب بها عادةً أمثالهُ ، أمثال أبي .. قال له : ادع الله لنا ياشيخي ، فنحن مقصّرون !..

فنظر إليه أبي قائلاً : أفجادّ أنت بقولك هذا ؟ أفموقن أنت حقاً بأنك مقصّر ؟ إن كنتَ كذلك فاطمئن بالاً إلى رحمة الله وسعة غفرانه .

ثم قال له : أتشكو تقصيرك إلي ؟.. من منا ليس مقصراً في جنب الله عز وجل ؟ لعلك سمعت عني يقولون : شيخ ملا .. شيخ ملا .!! ورأيت سجادتي أمامي ،

والسبحة في يدي ومظهري بهذه العمامة واللحية ، فغرّك ذلك مني فظننتني أحسن منك حالاً ، وجئت تشكو إلي تقصيرك .. من منا غير مقصر في حق إلهنا وولي أمرنا عز وجل ؟!..

إنّ شكواك هذه إن خرجت من مشاعر صدق ، ربما قربتك إلى الله وعرضتك لرحماته ، أكثر من عبادة يؤديها شيخ مثلي في مثل هذه الغرفة ، متصوراً أنه قد أدى بذلك كامل حقوق الله عليه .

ثم أخذ رحمه الله يتكلم عن عظيم حق الربوبية لله على عباده ، وعن ضعف الإنسان تجاه أداء أي من أجزاء هذه الحقوق ، وأن خير ما يقرب العبد إلى الرب هو التذلل الحقيقي على أعتابه ، والعزم على أن يخطو إلى الله بأداء أوامره وجهد استطاعته ، وأن ينظر إلى عباد الله بعين الشفقة والرحمة ، لا بعين التعالي والاستكبار .

ونظرت إلى الرجل وقد بدا عليه التأثر البالغ مما يسمع .. وفي الختام قال له :

ياسيدي ، هل لك أن تعطيني ورداً من الأذكار التي تصلحني وتقربني إلى الله ، على أن يكون يسيراً يتناسب مع حالي ووضعي ؟..

فاستجاب ، رحمه الله ، لرغبته ، وأعطاه بعض الأوراد اليسيرة من الأذكار المأثورة في الصباح والمساء ، وقام الرجل فودع وذهب .. وجلست أتأمل وأعجب : كيف دخل الرجل دخول المتسلّي المستطلع ، ثم خرج خروج المريد الصادق يودع شيخه !!..

وزاره قبل ذلك بأشهر ، أو بعام تقريباً مسؤول آخر ذو رتبة عليا ، دون سابق معرفة له هو الآخر .. وجلس في بادئ الأمر يطرح عليه أسئلة دينية يطلب معرفة الجواب عنها .. فأقبل إليه والدي يجيب عن أسئلته بصدر رحب ، ثم أخذ ينصح ويذكر بعظيم حق الله على عباده ، وبأعباء مسؤولية العبودية التي يرزح كل إنسان تحت ثقلها وآصارها . (وحديث عبودية الإنسان لله كان من أهم ما يشغل بال والدي

وينتشي بذكره) فما كان من المسؤول الكبير الذي كان يسمع إلا أن انفجر بالبكاء ، ثم إن البكاء لم يفلته إلى نهاية المجلس . واستأذن أثناء ذلك ، في أدب جم ، أن يخرج إلى ساحة الدار أو الغرفة المجاورة ، لينفخ دخينة (سيكارة) ولكن أبي رحمه الله طمأنه بأن الأمر أهون من ذلك ، وأكد له أن بوسعه أن يأخذ راحته في التدخين كما يشاء ، دون أن يبارح مكانه(١) .

لم يكن ، رحمه الله ، يضيق ذرعاً بشبهات الفاسقين أو المتشككين ، إذا رغبوا في معرفة الحق وكانوا جادين في معرفة السبيل إلى التخلص من تلك الشبهات ، أو في معرفة موقف العلم منها .

ولقد حدثني أن ثلاثة من الشباب دخلوا عليه ذات يوم ، وصارحوه بأنهم ملاحدة لا يؤمنون بوجود الله ، وأنهم يودون أن يثبت لهم خلاف معتقدهم هذا بالدليل العلمي المقنع .

فرحب بهم والدي وأصغى إلى شبهاتهم ، بصدر رحب ، ثم كلمهم عن حقيقة تلك الشبهات وكشف لهم عن بطلانها . ثم بدأ يحدثهم عن الأدلة المتنوعة على وجود الصانع جل جلاله وخالقيته للكون ، وأطال الجلوس معهم تاركاً أعماله ووظائفه الأخرى ، في سبيل القيام بهذا الواجب الفذّ .

---

(١) ياقارئي ، أليس من الطبيعي أن أتساءل في مرارة : أين الدعاة إلى الله عز وجل ، يخاطبون الناس بهذه الروح ، ويجذبونهم إلى رحاب الله بحرارة عبوديتهم لله ، وبسموّ استغنائهم عن الدنيا بكل صورها ومعانيها ؛ أليس من الحق ، كل الحق أن أتساءل : فيم تحولت محاريب الدعوة والإرشاد إلى ساحات بطش وانتقام ؟ لماذا اختفت القلوب التي يجب أن تفيض شفقة على عباد الله ، لتبرز في مكانها قلوب تفيض بالشحناء والبغضاء ؟ ترى إلامَ كان يؤول حال الناس لو أن الذين يتقلبون في هم إقامة المجتمع الإسلامي ، سلكوا طريق هؤلاء الربانيين في محاورتهم ودعوتهم إلى الله ؟.. إذن لفتحوا والله مغاليق الأفئدة بكلماتهم النورانية ، ولدانت لهم الرتب ، ولتعشقتهم النفوس !.. ألا.. إن الطريق إلى ذلك مفتوح ، ولن يتكلف السائر فيه إلا إخلاصاً لله وصفاء في القصد ، وعبودية واجفة لله ، وترفعاً فوق محبة الشهواء والأهواء والعصبيات .

قال : وكان أن أذعن في نهاية المجلس اثنان منهم بوجود الله ووحدانيته عن قناعة وفهم . وبقي الثالث يتطوح في ريبه وشكوكه .

وكان يأمل أن يعود هذا الثالث إليه مرة ثانية ليواصل معه البحث والنقاش ، راجياً له الهداية إلى الحق . والمهم أنه كان يرى أن الجلوس مع هؤلاء ابتغاء هدايتهم وانتشالهم من وهدة الضلال ، من الجهاد المبرور ، سواء تحقق القصد من الهداية أم لم يتحقق .

ولما اتصل بي مسؤول من وزارة الإعلام ، يعرض علي فكرة الاشتراك مع الدكتور الطيب التيزيني في ندوة تلفزيونية حول التراث وما يتعلق به ، استشرت أبي في ذلك ، وكان مريضاً ، فرحب بالفكرة وطلب مني أن أوافق على الاشتراك !..

وكان أن اشتركت فعلاً مع الدكتور التيزيني في ندوتين دام مجموعها ثلاث ساعات . وكان النقاش في مجمله يدور حول الفلسفة المادية ونظرتها إلى الدين والتراث ، ومن المعلوم أن الدكتور التيزيني لا يزال يتبنى الفلسفة المادية الديالكتيكية .

وقام بعض علماء دمشق ينكرون عليّ هذا اللقاء ، ويرون في ذلك انتقاصاً لقداسة الدين وحرمته . وكان الرأي عندهم هو ضرورة الترفع عن مثل هذا اللقاء .

وسمع أبي رحمه الله بإنكار أولئك البعض .. فقال ، وهو متكئ في فراشه : لسنا خيراً من رسول الله ﷺ الذي كان يغشى أندية المشركين لمحاورتهم ودعوتهم ، وليس التيزيني شراً من أولئك المشركين الذين كان رسول الله يجلس إليهم .

ولما بلغه أن في أولئك المنتقدين من قال ، معترضاً على اكتفائي باستشارة أبي وحده في هذا الأمر ؛ إن الشيخ ملا ليس في وضع يمكنه من معرفة ما ينبغي فعله ، لم يزد على أن أصغى ساكتاً ، ثم استمر في سكوته .

نشاطاته العلمية :

عرف أبي رحمه الله بالبراعة في فقه الإمام الشافعي ، وبالاطلاع الواسع على فقه الحنفية ، وقد درّس كثيراً في كليهما ، كما كان واسع الاطلاع على كثير من علوم الآلة كالمنطق وعلوم النحو والصرف . والأهم من ذلك تحقيقه في المسائل العلمية ، لا سيما الفقهية . فقد كان يسبر غورها ويتتبعها في مراجعاته وتأمله .. وكثيراً ما كان يبقى في تحقيق مسألة فقهية واحدة يومين وثلاثة أيام .. وكانت تصبح شغله الشاغل حتى ينتهي إلى قرار جازم بها .

وكان يأخذ على كثير من طلاب العلم وأساتذتهم سطحية النظر والبحث ، وعدم التنقيب والتحقيق في النصوص ومدلولاتها .

ولم يكن يردّ طالب علم جاء يبغي أن يأخذ عليه درساً في فن من الفنون .. وقد كان الطالب هو المقترح ، في الغالب ، للعلم الذي يريد أن يدرسه عليه . وأكثر ما كانوا يدرسون عليه ، الفقه ، والتفسير ، وعلوم الآلة من منطق ونحو وصرف وبلاغة .. هذا بالإضافة إلى التصوف والرقائق ، وقد درّس طائفة من الطلاب كتاب الرسالة القشيرية أكثر من مرة ، ودرّسهم الحكم العطائية وبعضاً من شروحها ، وقواعد التصوف للشيخ زرُّوق .

غير أنه اتجه في السنوات العشر الأخيرة من حياته إلى الاشتغال بالتصوف ، ودراسة تراجم الربانيين من العلماء ، فكان يشير إلى من يأتيه ليدرس عليه شيئاً من تلك العلوم الأخرى ، أن يذهب فيبحث عن بغيته عند غيره ..

وكان آخر عهده بالتدريس ، عكوفه على تدريس كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، وكان يزدحم عليه في أخذ الدرس عنه جمع كبير من الناس من مختلف المستويات والمشارب ، تغص بهم الدار في الغالب . وكان ذلك في يومي الإثنين ،

والثلاثاء ، من كل أسبوع .. ولما ختم الكتاب طاب لوالدي رحمه الله وللجمع الذي كانوا يتلقونه عليه أن يعودوا فيقرؤوه عليه من جديد .. والذي أذكره أنه استمر في تدريسه على هذه الحال قرابة ثماني سنوات .

☆ ☆ ☆

لم يكن أبي رحمه الله ممن يعنى بالكتابة والتأليف ، فلم يترك وراءه أي أثر من تأليف أو كتابات علمية ، باستثناء تلك الرسالة التي كان قد كتبها وصية لابنه الوحيد ، يوم خشي على نفسه عادية الموت بعد أن أفلت بحمد الله من مرض عضال .

غير أن ظاهرة فريدة برزت في تفكيره ونظام نشاطه العلمي على حين غرة ، دفعته إلى كتابة مقالين ونشرهما . ما عُهِدَ فيه ذلك من قبل ولا عاد إليه من بعد .

أما قصة المقال الأول فتبدأ بمقال كان قد وصل إلى مجلة نهج الإسلام التي تصدرها وزارة الأوقاف ، عندما كان الدكتور محمد محمد الخطيب وزيراً لها ، يتضمن نقداً لكلام كنت قد ذكرته عن اجتهاد سيدنا رسول الله ﷺ وعن إمكان الخطأ في اجتهاده ، في كتابي فقه السيرة النبوية .

حدثت والدي عن هذا المقال ، وأريته كلامي الذي كنت قد كتبته ، وأخبرته عن نقد هؤلاء الذين يجهلون أو يتجاهلون قواعد العلم وكلام الأئمة ، فينكرون .. ويتهمون .. وربما بلغ بهم الاتهام إلى ما يقارب التكفير أو التفسيق !!..

فأيدني والدي فيما كنت قد كتبته ، واستأذنته في أن أعقب على هذا الناقد بما يزيد الحق جلاء ووضوحاً ، فأذن لي ، بل شجعني ، ولفت نظري إلى المنهج الأمثل في تحقيق هذا البحث من أطرافه .

ولما جلست إليه في صباح اليوم الثاني ، قال لي : لقد رأيت الليلة رؤيا عجيبة ، لم أر مثلها في حياتي قط !. قلت له : خيراً رأيت ، ورجوته أن يقصها عليّ . فبدأ يقول ، والدهشة بادية عليه : رأيت رب العزة جل جلاله ....

ثم إنه سكت ، ولم يتابع ، ولم يقص عليّ ولا على أحد غيري رؤياه ، رغم الرجاء والإلحاح ..

ولكنه أمرني بعد قليل أن أحضر قلماً وورقاً ، ثم قال لي اكتب[1] .. وأخذ يملي عليّ كلاماً في منتهى التحقيق والدقة عن مسألة اجتهاد رسول الله ﷺ ، وإمكان أو عدم إمكان خطئه في الاجتهاد ، لم يبلغ مجموع ما أملاه عليّ أكثر من ثلاث صفحات كبار . ثم قال : هذه هي حصيلة الرؤيا العجيبة التي رأيتها . ثم أمرني أن أتوجه بهذا الذي أملاه عليّ إلى الدكتور محمد محمد الخطيب رئيس تحرير مجلة نهج الإسلام حينذاك . لينشره في مجلته . وقد نشر المقال فعلاً .

وكانت أعجوبة كبرى لدى الذين عرفوا أبي ، وشأنه ، وطبعه ؛ أن يروا أو يسمعوا أن الشيخ ملا رمضان قد نشر مقالاً له في مجلة سيارة !!..

وبوسع القارئ أن يرى نص هذا المقال في نهاية هذا الكتاب .

وأما قصة المقال الثاني فترجع إلى أن أحد شيوخ الطريقة في دمشق ، اختلق من لدنه ما قد يَلْفِتُ الأنظار إليه ، فدعا مريديه ومن حولهم إلى أن يزيدوا في الصيغة الواردة في الصحاح للصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ كلمة « ووالديه » فتصبح الصيغة ، بعد التعديل : « اللهم صل على محمد ووالديه .. » ثم أخذ يقودهم وراءه إلى تنفيذ ذلك في كل مناسبة وبكل مجلس .. وكان يؤيد ابتداعه هذا ويدافع عنه ، بما هو

(١) أصيب والدي رحمه الله في السنوات الأخيرة من عمره ، بضعف في بصره ، فلم يكن يقوى على القراءة من كتاب إلا إن استعان بمجهر .

مقرر عند كثير من العلماء والمحققين من نجاة أبوي رسول الله ﷺ . فكان يربط بين هذا وبين بدعته التي اختلقها .

بلغ سمع والدي ما قد فعله ذلك الشيخ ، فتأثر وتألم جداً .

تألم من البدعة التي اختلقها الشيخ ثم روّجها بين العامة مرة .. وتألم من تغطية الشيخ لهذه البدعة المنكرة ، بما لا نخاصم ولا نجادل فيه ، وهو أرجحية القول بنجاة أبويه ﷺ ، أضعاف ذلك . إذ إنه خيل بذلك أمام السذج والجاهلين أنه يملك دليلاً علمياً على هذا التعديل الذي أقدم عليه . وهو القول بنجاة أبوي رسول الله ﷺ .

دعاني رحمه الله للمرة الثانية ، وأمرني أن أحضر قلماً وورقاً ، ثم أملى عليّ كلاماً علمياً في غاية الدقة ، موضحاً أن نجاة والدَيْ رسول الله التي نرجح القول بها ، لا تبرر اختلاق هذه البدعة وإدخال تعديل على صيغة الصلاة على رسول الله التي علمنا إياها الله ذاته . وبوسع القارئ أن يجد هذا المقال الموجز أيضاً في نهاية هذا الكتاب .

وقد نُشِرَ هو الآخر في مجلة نهج الإسلام ، بعد أشهر من المقال الأول .

تلك هي الكتابات التي ألّفها أو أملاها والدي رحمه الله وبقيت أثراً من بعده .

العود إلى العزلة بعد النشاط :

إذن ، فقد كانت لأبي نشاطات دينية اجتماعية بالاشتراك مع جمهرة من علماء دمشق ، بدأت منذ أوائل الستينات واستمرت إلى أوائل الثمانينات أو نهاية السبعينات . ولا داعي لاستعراض وجوه هذه النشاطات أو أكثرها .

والمهم هو أن أوضح بأنه ، رحمه الله ، بدأ في نهاية السبعينات ينكمش عن الظهور في الحفلات والاجتماعات واللقاءات التي كان يدعى إليها ، وأصبح ميالاً إلى العزلة عن الناس ، مؤثراً الرجوع إلى ما كان عليه في السنوات الأولى من مجيئه إلى دمشق واستقراره فيها .

لم يكن ميله إلى العزلة آتياً - كما قد يخيل إلى البعض - من شيخوخة دبت إليه فأوهنت نشاطه ، أو أضعفت ، ربما ، ذاكرته أو محاكمته العقلية . فلقد استمرت ملكاته الفكرية وطاقته الذهنية ونشاطه الحركي في أعلى مستوياتها التي كان يتمتع بها إلى الأيام الأخيرة من حياته .

بل لقد كان وعيه الاجتماعي وأدب العلاقات مع الناس ، عنده ، في تزايد .

رُشِّحْتُ من قبل الحكومة الجزائرية لمنصب المدير العلمي لجامعة الأمير عبد القادر في قسنطينة بالجزائر ، وذلك قبل وفاة والدي بعام ونصف تقريباً ، وعرضت الأمر على والدي فنصحني بالرفض ، وأعاد لي نصحه المتكرر السابق بأن لا أرحل من سورية إلى أي بلد آخر مهما كانت الأسباب ، إلا أن تكون أسفاراً موقوتة عارضة . فاعتذرت وعززت اعتذاري ، باعتذار رسمي من الجهات الرسمية المعنية بالأمر في دمشق .

وفي نهاية ذلك العام دعيت إلى الجزائر لحضور الملتقى الفكري الذي كان ينعقد فيها في صيف كل عام . وكنت أحضر هذا الملتقى في كل عام تقريباً .

فعزمت على أن أعتذر عن الاشتراك في ذلك الملتقى لذلك العام ، بسبب حالة والدي الصحية التي تستدعي بقائي إلى جانبه .

واستأذنته ، كعادتي دائماً ، في أن أبلغ الجزائر اعتذاري هذا .

فلم يوافق رحمه الله على ذلك ، وأصرّ على أن أستجيب للدعوة ، وأكد لي أن المصلحة في ذلك . ولما استفسرت عن المصلحة التي يعنيها قال لي : إنك لو اعتذرت عن الاستجابة لمؤتمرهم هذا ، بعد اعتذارك عن قبولك للوظيفة التي رشحوك لها ، فلسوف يظنون أن الأمر يعود إلى موقف سلبي تتخذه من الحكومة الجزائرية ذاتها ، بل ربما

سرى ذلك إلى تصور منهم أنه موقف سلبي من الحكومة السورية تجاه الجزائر .. والمصلحة أن لا نكون سبباً لمثل هذا الظن أو الإيقاع بين الدولتين[١] .

وهكذا ، فقد نبهني أبي إلى رعاية أدق مقاييس العلاقات الحساسة السارية ، لا بين الأشخاص بل بين الحكومات ، والتي قلما يتبينها أولو الفكر الثاقب ، ممن قد يعنون بهذه الأمور ، وإن بينه وبين الوفاة ما لا يزيد على عام واحد ، وعمره قد ناهز - في قناعته واعتقاده - الثالثة بعد المئة !!..

وسأتحدث في الفصل الختامي الآتي عن مزيد من الدلائل على دقة أحاسيسه ، ويقظته البالغة في مراقبة القضايا المختلفة وتقديرها حق قدرها ، في السنوات بل الأشهر الأخيرة من حياته .

إذن لم يكن سبب ركونه إلى العزلة وابتعاده عن المجتمع وأنشطته ، ضموراً في وعيه الاجتماعي أو ضعفاً في ذاكرته وفكره .. فإن شيئاً من ذلك لم يظهر في الفترة التي جنح فيها إلى الاعتزال عن الناس .

إذن فما السبب ؟

كنت قد قلت : إن خيبة أمله ، رحمه الله ، في معالجة المحنة التي وقع فيها شيخنا الشيخ حسن حبنكة رحمه الله ، تلك الخيبة التي جعلته يرجع إلى داره كسِيفَ البال كئيب النفس ، هي التي كونت عنده أول عوامل الاشمئزاز من التلاقي والتعاون على

(١) عاد فأكد لي نصيحته هذه لي على الهاتف وكنت في دمشق وكان هو في بلودان يمضي فترة استجمام فيها ، وقد علم أن سبب ترددي في السفر هو قلقي على صحته . قال لي : لماذا تخاف ؟ ألست تقرأ بعد كل صلاة ما أوصيتك به : حسبي الله لديني ، حسبي الله لدنياي ، حسبي الله لما أهمني ، حسبي الله لمن بغى عليّ ، حسبي الله لمن حسدني . حسبي الله لمن كادني بسوء ، حسبي الله عند الموت ، حسبي الله عند السؤال ، حسبي الله على الصراط ؟.. قلت بلى . قال : اذهب ، فلن يقع في غيابك أي مكروه !!. اللهم ارحمه واجزه عني خير ما يجزى والد عن أولاده وذريته .

صعيد معالجة المشكلات والانتصار للحق .. فأي قيمة تبقى للتلاقي والأنشطة الاجتماعية ، إذا لم يتحقق شيء من جدوى ذلك كله في معالجة تلك المحنة الكبرى ولم يظهر أي تعاون نحو إذابتها أو القضاء عليها .

ثم إن هذه المشاعر أخذت تزداد انتشاراً في نفسه مع الأيام ، ومع إطلاعه على المزيد من عوامل الاشمئزاز .. كان رحمه الله يضيق ذرعاً بالمجاملات التي لا تحمل في طيها أيّ رصيد ، وهي شيء يتقنه مع الأسف كثير من أهل العلم . وكان يحس ، بمشاعره المرهفة ، أن كثيراً من هؤلاء الناس يكيلون له عبارات الثناء والتعظيم والإعجاب بالصلاح والعلم جزافاً .. حتى إذا خرجوا من مجلسه ، وضعوه من تقديراتهم وحساباتهم في ميزان آخر .

وكثيراً ما كان يواجه هؤلاء المداحين له والمثنين عليه ، بالتعبير عن تقديره لحقيقة مدحهم بعبارات صريحة وربما قاسية .

كان مما يقوله لهم مراراً : تقولون أمامي وفي مجلسي : شيخ ملا .. شيخ ملا .. جئنا لنتبارك .. وأنا أعلم أن كلام الشيخ ملا ليست له قيمة حقيقية في نفوسكم .. إنني على ألسنتكم قطب زمانه وولي الله على أرضه ، وفي نفوسكم درويش يجامل بكلمتين[1] .

وكثيراً ما كان يردد كلمة قالها له مرة الشيخ محمد زين العابدين رحمه الله ، لقد اسكروني بالمديح والثناء ، ثم ما هو إلا أن جعلوني جسرا لمصالحهم وأغراضهم .

(١) إنني لأرى الصورة ذاتها اليوم ، ولكني لا أقوى على العزلة التي جنح إليها أبي رحمه الله : أسمع عند اللقاء والمواجهة إطراء ومديحاً ، يعجز عن صياغة مثله أولو الدبلوماسيات العالمية ، فإذا انتهى اللقاء وحلّت الغَيْبَةُ محلّها ، جاء دور النقيض .. وحلّ محل ذلك الإطراء النقد الجارح بألسنة حداد ، والاتهامات التي تكال بدون معيار .

وكانت له على ذلك دلائل من مجالس كثيرة كانت تطرح فيها قضايا للمناقشة ، ثم يتم الوصول فيها إلى اتفاق بحسب الظاهر ، فما ينفض المجلس حتى تظهر المحاور المتناقضة ، وإذا بالمجلس الذي تم الاتفاق فيه ظاهراً ، قد توازعته تلك المحاور المتناقضة باطناً ، وإذا بساعات البحث والنقاش ذهبت كلها أدراج الرياح !..

وكان من أخص طبائع والدي ، رحمه الله ، كراهية المجاملات الزائدة والتفنُّن في عبارات المديح والإطراء ، حتى ولو كانت نابعة عن مشاعر داخلية صادقة ، فكيف إذا أحسّ ، أكثر من مرة ، أنها مجرد ألفاظ مزوقة لبعث الحرارة اللازمة في المجالس واللقاءات ؟

فهذا هو السبب الذي بعث في نفسه رحمه الله ، مشاعر التبرم والاشمئزاز من تلك اللقاءات والأنشطة الاجتماعية ، التي تقوم على رصيد لا حدّ له من المجاملات والمدائح « الدبلوماسية » الفارغة .. وعذره الذي كان يقنعه بالانقطاع عن تلك الاجتماعات ، أنه إما أن يجاري القوم فيها فيبادلهم الكلمات بمثلها ، وذلك في نظره انحدار إلى تمثيل مهين وركون إلى لون من المداهنة والنفاق ، وإما أن يخرق تلك الأقنعة التمثيلية ويواجههم بما وراءها ، وقد يجرّ ذلك إلى فتنة أو كراهية لا خير ولا جدوى من ورائها .. وإنما الحلّ الوحيد في هذه الحالة هو أن يعتزل كل تلك اللقاءات والاجتماعات مستغنياً عن الأنشطة التي تدعو إليها أو تأتي نتيجة لها .



غير أن هذه العزلة التي فرضها أبي على نفسه ، كانت من طرف واحد ، فلا جرم أنه لم يكن يغلق بابه دون زيارة زائر أو حاجة قادم . إلا إن يكون ذلك في الأوقات التي يكون مشغولاً فيها بشأن نفسه ، كفترة ما بين المغرب والعشاء ، فإنه لم يكن يكلم فيها أحداً ، ولم يكن يسمح لأحد أن يشغله بأي حديث ، وكساعة ما بعد العشاء ، إلا لضرورات أو حاجات دينية .

فأما فيما عدا هذين الوقتين من أوقات راحته وجلوسه ، فكان يستقبل أي زائر . ولكنه كان يلجأ في أكثر أحيانه إلى السكوت ويكتفي بالإصغاء ، لا سيما عندما يخوض الجالسون في القضايا الدُّنيويَّة .. كان يتشاغل عن الحديث عندئذ بما هو في صدده من ذكر وتسبيح ؛ وربما أطالوا الحديث في شؤونهم تلك ، أو خاضوا في غيبة أو نحوها ، وعندئذ يقاطعهم ، ويبدأ حديثاً حاراً من النصح والتذكير بالمصير ، والتنبيه إلى عظيم قيمة الوقت الذي ينقضي من عمر الإنسان ، وأنه رأس ماله الأوحد في هذه الحياة .

وعلى كل حال ، فإنه لم يكن يسمح لأحد أن يزجه في حديث عن مشكلة اجتماعية ، أو أن يستدرجه ليقول رأيه في معالجة مسألة استشرى فيها خلاف بين فئات أو أقران ؛ فإن حاول ذلك محاول ، قال له ، وقد بدا عليه الانزعاج والامتعاض :

يا هذا ، إن عقلي لا يكفيني لحلّ مشكلاتي ، وللنظر في شأني وما أنا مقبل عليه . فدعني - يرحمك الله - وما أنا فيه ، وابحث لحلّ هذه المعضلات عن رجل غيري .

وإذا حُدِّثَ بمسألةٍ علمية ثار من ورائها جدل وشقاق بين الناس ، استعفى عن الخوض فيها ، مهما كان فيها للخلاف والاجتهاد مجال ، محافظةً منه على عزلته أن لا تُخْتَرقَ وابتعاداً عن مشكلات القال والقيل .

وأذكر أن صديقنا الراحل الدكتور محمود النحلاوي رحمه الله - وكان شديد القرب من والدي عظيم الحب له - عزم على إقامة حفل متميز في داره ابتهاجاً بمولد سيدنا رسول الله ﷺ ، ورغب أن تلقى في الحفل محاضرة مؤثرة جامعة . وجال في خاطره أن يسجل الحفل كله على (الفيديو) ليستفيد أكبر عدد ممكن من خير ذلك الحفل ، فطلب مني أن أستأذن والدي في ذلك . وكان يمرّ رحمه الله بهذه الفترة التي أتحدث عنها . ولما استأذنته قال لي:

يا بني : هذا الذي تحدثني عنه شيء جديد لا علم لي به ، وأنا أسمع من حقيقته وآثاره ، ما يجعلني في حيرة من أمره ، ويمنعني من إصدار حكم جازم فيه .. والحلّ لمثل

هذه المشكلة أن يتعاون جمع من الفقهاء المتمكنين المتبصرين بحقيقة هذا الجهاز وعمله ، فينظروا في الأمر ويجتهدوا فيه ، ثم يدلوا بالقرار الذي يهديهم الله إليه ؛ أما أنا فدعني وما أنا فيه من النظر في شأن نفسي .

أما الأحكام التي لا مجال للنظر والاجتهاد فيها ، فلم يكن يسمح لأحد أن يخوض فيها مخاضة تلاعب أو تدليس ، بل كان يبذل كل ما يملكه من جهد لبيان الحق ، والوقوف في وجه التلاعب والعبث به ، وإن اقتضاه الأمر أن يخرج عن عزلته وخلوته .

وإن في قصة المقالين السابق ذكرهما لمثالاً على ذلك . وقد كانت كتابته لهما ودفعهما إلى النشر في هذه المرحلة ذاتها .

وكان يتحدث ، بين الحين والآخر ، عن ندمه الشديد على تلك السنوات التي قضاها فيما لا طائل منه ، من القيل والقال وشقاشق الكلام . وكان يرى فيها أيام ضياع ذهبت من عمره سدى .

وكنا نقول له : بل كانت إن شاء الله تجربة سير إلى الله على طريق من طرق الجهاد . وإنما مآل الأعمال حسب النيات الدافعة إليها .

مراحل المرض .. ثم الوفاة

كانت حياة والدي ، في سائر المراحل التي مرّ ذكرها ، مليئة بـالحيويـة ، مكلوءة بالعافية والصحة ، باستثناء الفترة الأولى التي تلت مجيئه إلى دمشق . فقد كان يعـاوده أثناءها ، كما سبق أن ذكرت ، فتور في صحته مع ألم في رأسه يعاني منه ثلاثة أو أربعة أيـام ، مرة في كل شهر . وكان مردّ ذلـك إلى نوع من رومـاتـزم الأعصاب كما قـال لـه بعض الأطباء . وقد دامت هذه الحال معه عشرين سنة تقريباً من تـاريخ مجيئـه إلى دمشق .

وعلى الرغم من أن القرار الجازم الذي أدلى به واحـد من أولئـك الأطبـاء ، هو أن مرضه ذاك يستعصي على الشفاء ، ولا بدّ أن يؤدي به إلى الموت ،فقـد اختفى وانقطع عنه فجأة ، ولم يعد يجد له أثراً من بعد .

☆ ☆ ☆

بدء مرضه :

وفي أواسط عام ١٩٨٢ وبعد قضاء ليلة لم تكن على ما يرام ، عـانى فيهـا من برداء مجهولة السبب ، استيقـظ صبـاحـاً ، وهبّ من فراشـه كالعـادة ليقوم فيمشي ، وإذا هو يترنح وقـد فقـد كامل قـدرتـه على التوازن واقفاً ، وجـالـد ليخطو بضع خطـوات ، ولكنه سقط في (الصالون) المؤدي إلى الحمام .

تبين لنا فيما بعد ، أن المرض الذي انتـابـه ، كان أبسـط من أن يتحكم بـه إلى هـذه الدرجة ، لولا تقدّمه في السن . فقد أربى عمره حينـذاك على التسعين ، حسب مـا كان يؤكد لنا مدلياً بالأدلة التي يعتمد عليها .. فقد أوضح لنا الأطباء يومها أن الحالـة التي

فاجأته إنما كانت من تـأثير نوع شـديـد من (الكريب) ألمّ بـه . ولكنـه صـادف فيـه شيخوخة متقدمـة ، صـاحبهـا ضعف في المنـاعـة ، فكان أن طوّح بـه ، وزجـه خلال ساعات فيما يشبه منتهى العجز .

ومما زاده عجزاً وضعفاً في المنـاعـة ، فقـده للشهيـة وقـابليـة الطعـام ، ولعل هـذا الوضع صاحبه لبضعة أيام .

بقي أبي رحمه الله ، طريح الفراش ، بسبب هـذا المرض شهراً كاملاً ، أكرمني الله خلال ذلك بالتوفيق لملازمته ليلاً ونهاراً .. وبعد ذلك أخذ يتماثل للشفـاء ، ولما خرج إلى المسجد لأول مرة بعد غيـابـه الطويل عن المسجـد وروّاده من أهل الحي ، اجتـاح المصلين تأثر عارم ، واهتاجت أصواتهم بين بكاء وصياح ودعاء .

ولعل من الخير أن أقص على القارئ الخبر التـالي ، الـذي جـاء ملابساً لأحـداث هذا المرض .

كنت حديث عهد بالسكن في منزلي القريب من دار والدي ، وشرح الله صـدري وألهمني أن أعبر عن شكري له عز وجل بحفل أجمع النـاس فيـه على تلاوة قصـة مولـد سيـدنـا محمـد ﷺ . وفعلت ذلـك بتوفيق من الله عز وجـل ، وفـاضت داري الصغيرة بجموع مبـاركـة من النـاس ، وشـاع في المجلس الثنـاء على سيـدنـا رسول الله والصلاة والسلام عليـه ، وشرح الله صـدري فـاشتركت مع المنشـدين بتعطيرة قرأتهـا من مولـد الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله .

وصادف أن كانت تلك الليلة ، هي ذاتها الليلة التي فوجئ فيها والدي بالقشعريرة والبرداء ، وأنهكه في صباحها المرض الذي أطبق عليه .. ولما فوجئت منه بهـذه الحـال ، وقفت خالياً ألتجئ إلى الله وأدعوه أن يجعل الحفل الذي وفقني لإقامتـه في تلـك الليلـة ابتهاجاً بمولـد سيـد المرسلين عليـه الصلاة والسلام ، إن تفضل فقبلـه مني ، زلفى إليـه لشفاء والدي من المرض الذي ألمّ به .



الشيخ ملا رمضان البوطي

قبل وفاته بثلاثة أيام

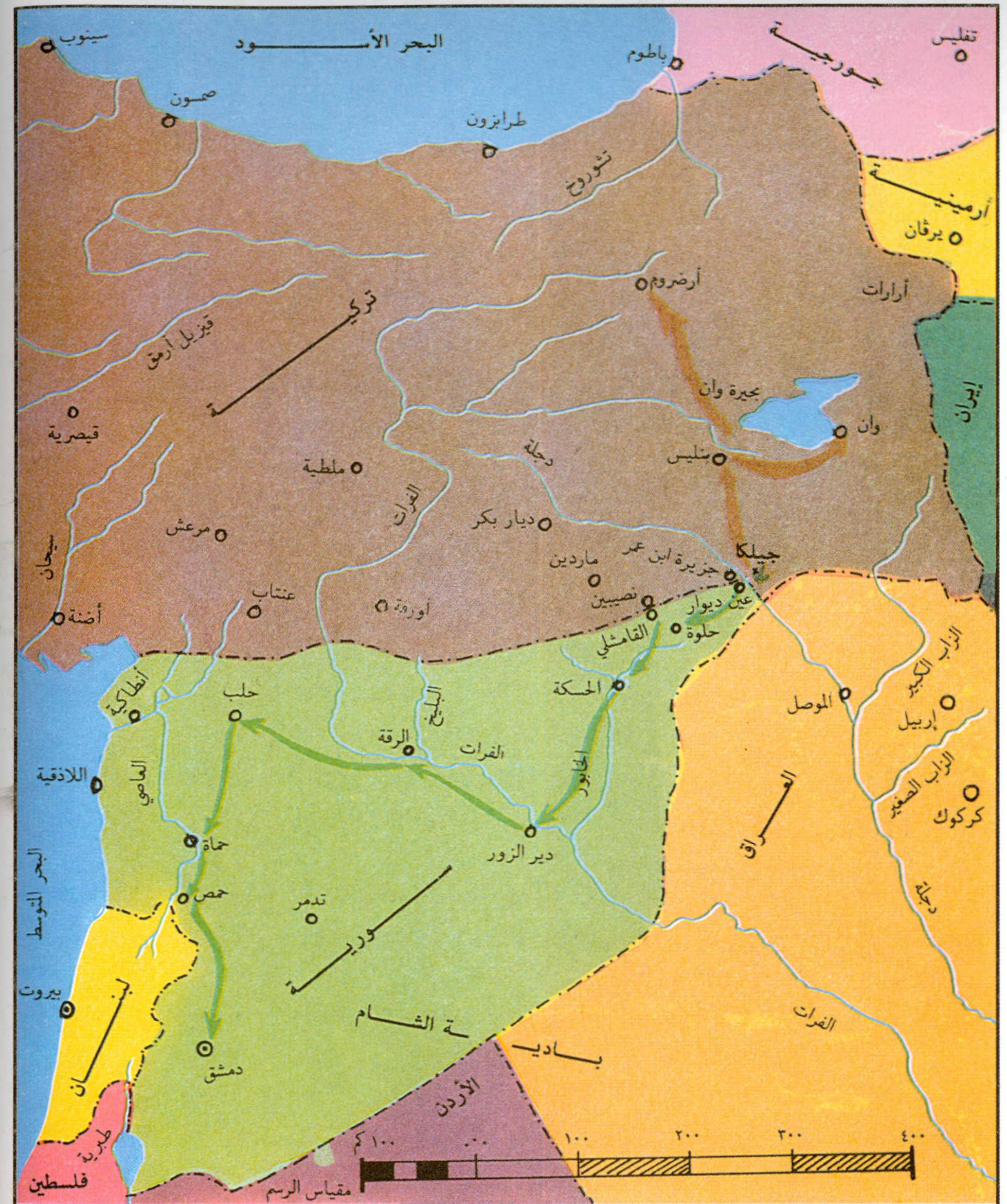
وعلمت فيما بعد أن ابني محمد توفيق تقرب إلى الله ببعض الصدقات برجاء شفائه ، وأن أختي زينب - وهي من زوجته الثانية - نذرت صيام أيام إن شفاه الله عز وجل .. وأن آخرين من أفراد الأسرة تقربوا إلى الله بقربات بقصد شفائه رحمه الله .

فأخبرنا والدي في أيام مرضه ذاك أنه رأى في منامه علباً جميلة مصفوفة أمامه وعلم أن فيها أدوية لمعالجته ، وجاء من يقول له : هذه أهديت إليك من توفيق ، وهذه من ابنتك زينب .. وهذه من .. ثم قال ، وأشار إلى أكبر وأجمل واحدة بينها : وهذه أهديت إليك من ابنك محمد سعيد :

كان اغتباطي كبيراً جداً بهذه الرؤيا التي رآها أبي رحمه الله ، لعدة أسباب ، من أهمها أنها زادتني يقيناً وطمأنينة بأن الاجتماع على ذكرى مولد سيدنا رسول الله ﷺ ، وما يتبعه من صلاة عليه ومديح له ، عمل مبرور عند الله عز وجل ومثاب عليه ، إن خلصت النية وصفا القصد ، وخلا العمل والحفل من المحرمات . وحسبك من فوائده أن من شأنه أن يدفع من في المجلس إلى مزيد من محبة الله عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وهكذا امتن الله عز وجل علينا ، فشفي والدي مما به ، وعاد ثانية إلى غرفته الصغيرة التي كان يخلو فيها للعبادة ويستقبل فيها الزائرين ، وعاد إلى دروسه في كتاب الإحياء للغزالي .

وشاء الله تعالى أن يهتدي في تلك الفترة ثلة من الشباب ، من أهل الحي ، وأن يستقيموا على الالتزام بأوامر الله بعد طول شرود . فعُقدَ لهم مجلس في دار والدي وتبعهم فلحق بهم جمع كبير من بقية أهل الحي ، وابتهج الجميع بنعمتين اثنتين : شفاء والدي ، وهداية أولئك الشباب وتليت قصة المولد النبوي الشريف ، وغرد المنشدون بقصائد فيها الثناء على الله ، ومدح سيدنا رسول الله ، ثم توج المجلس بنصيحة صافية توجه بها والدي إلى الحاضرين جميعاً كانت ذات تأثير كبير .



البلدان التي مرَّ ذكرها في كتاب :

هذا والدي

المصطلحات :

- طريق جهاده إلى بتليس ووان .
- طريق هجرته من جيلكا إلى دمشق .

واستمر رحمه الله على هذه الحال إلى أوائل عام ١٩٨٩ أو ربما إلى أواخر عام ١٩٨٨ ، معافى نشيطاً يؤدي صلواته مع الجماعة في المسجد ، ويواصل دروسه الأسبوعية في المنزل .

في شهر رمضان المبارك من نهاية هذا التاريخ ، أصيب رحمه الله بتجفاف كبير بسبب الصيام الذي صادف على ماأذكر حراً شديداً . أعقبه مرض لازم الفراش بسببه مدة من الزمن .

وما إن تحسن قليلاً حتى أصيب بالتهاب في المعدة ، من جراء الأدوية وآثارها المتناقضة . وأخذت سلسلة الأوجاع ، منذ ذلك الحين تأخذه وتردّه ، تعود إليه العافية أياماً فيخرج إلى المسجد ، ويعود إلى دروسه ولقاآته ، ثم ماهو إلا أن تنتابه حال جديدة من الأمراض التي كان سببها الأول عارض تجفاف بسبب الصيام ، ثم توالدت أسباب أخرى بسبب طبيعة الأدوية وآثارها الجانبية .

تحسنت حاله في صيف ١٩٨٩ ، وقضى قرابة شهر في دار أحد الأصدقاء ببلودان ، يمضي مدة نقاهة ، كان خلالها يؤدي وظائفه الدينية ويحافظ على تلاوة أوراده ، بالإضافة إلى تلاوة الأجزاء التي تتيسر له تلاوتها من القرآن . كان يخشى أن ينسى بعضاً من محفوظاته من القرآن في غمار تلك الأحوال المرضية التي تنتابه .

وفي صيف ذلك العام أصرّ على أن أستجيب لدعوة الجزائريين في حضور ملتقى الفكر الإسلامي ، بعد اعتذاري عن تسلّم الوظيفة التي عرضت عليّ ، وقد أوضحت ذلك من قبل .

ولكن سلسلة الأوجاع مالبثت أن عاودته .. واستمر يعاني منها مابين مدّ وجزر ، إلى أن وافته المنية صباح يوم الثلاثاء ٢٠ شوال ١٤١٠ هـ .

غير أنه لم يلازم الفراش ملازمة عجز عن الحركة إلى صباح وفاته .. وفي فجر ذلك اليوم قام كعادته قبل الفجر فتوضأ وعاد إلى غرفته فصلى ما شاء الله له أن يصلي ، وأدى صلاة الفجر كشأنه كل يوم .

☆ ☆ ☆

وعيه المتألق أثناء مرضه :

كان قد بلغ أبي من العمر في السنة الأخيرة من حياته مئة وأربعة أعوام ، حسب ما كان قد انتهى إليه تحقيقه في ذلك . وكان بحمد الله عز وجل في أعلى درجات الوعي والقدرة على المحاكمة العقلية والدقة في تقدير الأمور ، وقد ذكرت فيما مضى نماذج من ذلك كله في حياته ، بل في هذه المرحلة الأخيرة منها . ولم يغير المرض الذي لازمه قرابة عام وعشرين يوماً من حاله هذا شيئاً .

كانت تمرّ به مناسبات يخوض الجالسون من حوله بسببها في أمور فقهية يتذاكرون فيها على سمع منه أو يسألونه عنها ، فكان يجيبهم عنها معتمداً على ذاكرة ممتازة ومحاكمة دقيقة .

وربما بلغته مواقف من بعضهم ، لا تتفق في قناعته مع موازين الشريعة وأحكامها ، كموقف أولئك الذين استنكروا اشتراكي مع الدكتور التيزيني في ندوة حول الفلسفة المادية والتراث ، فردّ عليهم بأدق برهان وأبلغ بيان ، وقد سبق أن ذكرت كلامه الذي قاله في ذلك .

كان يتذكر أثناء مرضه ذاك أدق آداب السنة النبوية ، في الوقت الذي كنا من حوله نشرد ونتيه عنها .. وعلى سبيل المثال كان أحد أفراد الأسرة : أنا ، أو ابني توفيق يجلس إليه ليلبسه الجورب ، فيذهل عن آداب السُّنَّة ويقدم اليسرى على اليمنى ، فيصيح والدي : اليمين .. اليمين .. وربما قالها مغضباً إذا تكرر الذهول .

في إحدى المرات بادر الدكتور محمود النحلاوي رحمه الله ، وكان شديد الملازمة لأبي في هذه المدّة كلها وكان واحداً من أخص الملازمين لدروسه ، ليعينه على القيام ، قائلاً : يا رسول الله .

فقال له أبي : قل يا الله !..

وبهذه المناسبة ألفت النظر إلى أنه رحمه الله كان يفضل التوسل برسول الله على الاستغاثة به . إذ التوسل خطاب لله ودعاء موجه إليه . أما الاستغاثة فالخطاب فيه موجه إلى رسول الله ، وصيغة الدعاء موجهة أيضاً إليه ، وفي ذلك شيء من سوء الأدب مع الله ، وصورةٌ تخالف وجوب السؤال من الله وحده . وهو لم يكن يحرم الاستغاثة ولكنه كان يفضل صيغة التوسل عليها .

لقد جالت بذهنه هذه المحاكمة كلها في اللحظة التي بادر الدكتور النحلاوي لينهضه قائلاً : يا رسول الله .

وصلى الدكتور النحلاوي مرة إماماً بأبي - ولم يكن يصلي إماماً في السنوات الأخيرة - فلما انتهى من صلاته ، أخذ رحمه الله ينبهه إلى أدق آداب الصلاة ويعتب عليه إهماله أو نسيانه لبعض منها .

انصرافه الوجداني إلى الله :

الشيء الوحيد الذي تسبب عن هذا المرض الطويل الذي انتابه ، وتجلّى في طبعه وكيانه ، انصرافه الكلي ، من حيث الفكر والشعور والتصرفات ، إلى الله عز وجل .. كانت هذه الحال تغالب مرضه وتتفوق تفوقاً كبيراً على مشاعر آلامه . فلم يكن يراه أحد من أهل البيت أو الزائرين ، إلا وهو في حالة تذكر أو فكر وشهود مع الله عز وجل .

وكثيراً ما كان يكلمه أحدنا ، بسائق المناسبة وبمقتضى الحال ، في بعض شؤون الدنيا ، فيعتب عليه قائلاً : إنني قضيت حياتي الماضية كلها محاولاً ومجاهداً أن أكون مع الله متجرداً عن الأغيار في هذه الساعات الأخيرة ، لهذه الساعات الأخيرة قضيت ، فيما قضيت به ، شبابي وأيام عمري ، فلماذا تشغلونني عن الله في ساعاتي الأخيرة هذه ؟

كان من أمتع الساعات التي تمرّ به بعد أن يؤدي وظائفه وأوراده من الأذكار وتلاوة القرآن ، تلك التي يصغي فيها من جهاز تسجيل إلى صوت عبد الرؤوف الحلاق رحمه الله ، أو محمد أديب الدايخ ، وهو ينشد بعض القصائد الوجدانية التي كان يطيب له سماعها ، بل كان ينتشي ويؤخذ بها .

وكم كان يتأثر إلى درجة الجذب في بعض الأحيان بصوت الحلاق وهو يشدو هذه الأبيات :

سعدُ إن جئت ثنيّات اللِّوَىّ ... حيّ عني الحيَّ من آلِ لُؤَيّ
واجْرِ ذكْري فإذا أصْغَوْا لَهُ ... صِفْ لَهُمْ ما قد جَرى من مقْلَتَيّ
وبشرح الحال فانشُر ما انطوى ... من سَقَامٍ قد طواني أيَّ طيّ
أخَذُوا عقلي ، وصبْري نهبُوا ... واسْتَباحُوا سَلْبَ كَوْني من يديّ
أطْلَقوا دَمْعِي ولكن قيَّدوا ... بِهَواهُمْ عن سواهم أسْوَديّ

فإذا وصل الحلاق في شدوه إلى قوله :

إنّ عِيدِي يوم آتي دَارَهُم ... وأمرّغْ في ثَراهُم وجنتيّ

نال منه الوجد كل منال ، وذهل عن كل ما حوله .

ولم يكن هذا شأنه في أيام مرضه فقط ، بل كان دائماً ملتاع القلب بمزيج من حب الله والشوق إليه ، والتذلل والافتقار بين يديه ؛ ولكن لوعته هذه ازدادت اضطراماً بين جوانحه في السنوات الأخيرة من حياته .

زاره في هذه الفترة المنشد عبد الرؤوف الحلاق رحمه الله مع صحب له ، واستقبلهم في غرفته الصغيرة . وما إن استقروا جالسين ، حتى طلب منهم أن يسمعوه شيئاً . فأنشدوا أبياتاً مطلعها :

كنْ مع الله تَرَ اللهَ معكْ ... ودَعِ الكلَّ وحاذِرْ طَمَعَكْ
لا تُؤَمِّلْ أمَلاً من غيره ... إنما يَسْقِيكَ مَنْ قَدْ زَرَعَكْ
فإذا أعْطَاكَ مَن يَمْنَعُهُ ... ثم مَنْ يُعطي إذا ما مَنَعكْ

فاهتاج به الوجد ، وخرج عن طوره المألوف ، وانطلقت حنجرته تردد لفظ الجلالة ، في حركة رتيبة تنطلق من جمع كيانه . كان شيء يغلي وراء صدره فيفور ويصّاعد جسمه ، وهو جالس ، كالمرجل !..

ولما انتهوا من إنشادهم ، وهدأت نفسه ، وعادت إلى طبيعتها ، قال لهم والبكاء مسيطر عليه :

من هذا النوع أسمعوني !.. من هذا النوع أسمعوني !..

لم يكن يشك من يراه في تلك المرحلة الأخيرة من حياته ، أن مشاعره كلها مشدودة إلى الله من خلال مزيج من الحب والشوق وذل العبودية له . وربما هاجت به تلك المشاعر فنطق بمكنون أحواله المسيطرة عليه ، وهو غائب عن موازين الدنيا منصرف عن شؤون الناس ومعايشهم .

دخل عليه توفيق صباحَ يومٍ ، فرأى وجهه يتألق نضارة وضياء ، فاستبشر قائلاً له : إن وجهك يبدو اليوم في غاية النضرة ولله الحمد .

فنظر إليه قائلاً : أتتعجب من نضارة وجهي !؟.. بل ما أقبحه بالنظر إلى قلبي !..

إنها كلمة عظيمة ، ذات مدلول عميق الغور بعيد المدى ، بالنظر لمن كان يدرك الحال التي يمرّ بها والدي آنذاك .

ولكن هذا الشعور لم يكن ينسيه في وقت من الأوقات بالغ افتقاره إلى الله ، ومنتهى ما يتصف به من ذل العبودية له .. بل كانت هذه هي الحال الغالبة عليه ، بل الملازمة له . أوصانا أن نكتب على مقدمة نعشه إذا توفي بخط كبير :

أتيتك بالفقر ياذا الغنى   وأنت الذي لم تزل محسنا

وقد حققنا له ماطلب ، فكتب هذا البيت بخط كبير على لوحة عريضة وعلقت في مقدمة النعش الذي يحمله إلى مقره الأخير .

غرائب قبل الوفاة :

لست ممن يعنى بتتبع الغرائب والتقاطها ، فضلاً عن اختلاقها أو تكلف تضخيم الأحداث المألوفة وإضفاء عنصر الغرابة عليها .

ولكني أيضاً لا أحب أن أقفز فوق حادثة من الحوادث التي جرت لأبي لمجرد أنها غريبة عن المألوف بين الناس ، بعد أن تعهدت بأن أذكر كل ما أعرف من حياته من أولها إلى آخرها .

أعتقد أن ذلك يتنافى مع الأمانة التي ألزمت بها نفسي في كتابة هذه الصفحات .

كنت أتناوب مع ابني توفيق المبيت مع أبي في غرفته ، أيام مرضه . وذات ليلة ، أحسب أنها كانت قبل وفاته بشهر تقريباً ، - وكنت نائماً عنده - استيقظت في جوف الليل على صوته ، فقمت مسرعاً ظاناً أنه يكلمني يريد شيئاً ما ؛ ولكني تأملت في حاله وإذا هو نائم مستغرق ، بيد أنه مستمر في الحديث . وأخذت أصغي إلى ما يقول ، وإذا بي أسمع لأول مرة في حياتي كلاماً مترابطاً منسجماً يستمر قرابة ثلاث دقائق يخرج من فم إنسان مستغرق في الرقاد . وكم تمنيت لو أتيح لي أن أسجل كل ما سمعت .

كان يقول - وهذا ما حفظته من كلامه - : يارجل ، أنت عبد من عباد الله ، وأنا مثلك ، وكلانا مكلف بأداء حق العبودية لله ، وبرعاية أهلنا وتربية أولادنا ، فماذا تستفيد من إيذائي .. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥/٣] . بالأمس زارني أناس من حلب ، وأسمعوني بعض الإنشاد ، فأخذني الحال .... ثم إنه سكت وواصل رقاده .

هذا ما بقي في ذاكرتي من كلامه .. وكان ينفعل بما يقول من خلال لهجته ، ويشير بيده كأنه مستيقظ . ولقد زاره فعلاً قبل يوم أو يومين منشدون فيهم المرحوم عبد الرؤوف الحلاق .

ولما استيقظ لصلاته قبل الفجر ، أخبرته بما سمعت ورأيت ، فأخبرني عن رؤيا رآها ، وأنه كان ينصح شخصاً ظهر أمامه بعض النصائح .

وقبل وفاته بعشرة أيام ، أو أقل ، أصبح يسمع أصواتاً لا نسمعها نحن !..

كان إذا استيقظ لصلاته قبل الفجر ، وحان وقت السحر ، قال لنا : إنه لعجيب حال هؤلاء الذين يغنون ويقرعون طبولهم في هذا الوقت ، دون أن يقدّروا حال النائمين من حولهم !!..

قلت له - وأرهفت السمع جيداً - ولكني لا أسمع شيئاً . فنظر إليّ متعجباً ، وقال : ألا تسمع صوت هذه التي تغني ؟ قلت لا أسمع .. ماذا تقول ياترى ؟.. وأصغى قليلاً ثم قال لي : لا أفهم كلامها .

وناديت توفيق وآخرين من أهل البيت ، وسألتهم هل يسمعون شيئاً في هدأة ذلك الوقت ؟ ولكن أياً منا لم يكن يسمع أي شيء ، اللهم إلا والدي ، فقد كان يعجب من عدم سماعنا ، ويؤكد لنا أنه يسمع غناء مصحوباً بدفّ .

وكان هذا يتكرر في مثل ذلك الوقت من السحر ، لعدة أيام .. ينبئنا عما يسمع ، وهو مستيقظ يتمتع بكامل وعيه ، دون أن نسمع نحن شيئاً .. وكما قلت : فإن أبي لم يفقد شيئاً من وعيه وعميق إدراكه بل وقدرتـه الـذاتيـة على التحرك لأعمال الوضوء والصلاة ونحو ذلك إلى ساعة وفاته !..

أما قبل وفاته بأقل من أسبوع فيما أذكر ، فقـد دخلت غرفتـه وقت صلاة الفجر ، أسأله عن حاله ، ونظرت ، فإذا وجهه يفيض ابتهاجاً وسروراً .

قال لي : لقد رأيت الليلة رؤيا ، إذا صدَقَتْ ، وكان الأمر كما رأيت حقاً ، فإنها أثمن من كل كنوز الدنيا والآخرة . قلت له : خيراً رأيت إن شاء الله .

قـال لي : رأيت نفسي في عرصـات القيـامـة ، والكـون من حـولي مليء بنـاس لا أعرفهم ... وأوقفت بين يـدي الله عز وجـل . فقـال لي : كنت تعظمني في الـدنيـا ، فاليوم أكرمك وذريتك ..

من الواضح أن هذه الرؤيا العجيبـة ، كانت من نوع البشرى التي وعـد الله عبـاده الصالحين أن يكرمهم بها في الحياة الدنيا قبيل رحيلهم منهـا ، وذلـك في قولـه عز وجل ﴿ لَهُمُ البُشْرى فِي الحَيَـاةِ الـدُّنْيـا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [يونس : ١٠/٦٤] وقـد صح عن رسول الله ﷺ قوله : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

☆ ☆ ☆

وفي يوم الاحد الموافق لـ ١٨ شوال ١٤١٠ عـانى رحمـه الله من نزف هضمي حـاد .. وفي مساء اليوم التالي زاره جَمْعٌ من الأطباء أذكر منهم الدكتور عبد الملك الكزبري ، والـدكتور محمود النحلاوي والـدكتور هشـام الحوراني ، وأحْـدَقُوا بـه ، وهـو جـالس في فراشـه ، يسمعون منـه ، مـا لم أعـد أذكره من أحـاديث المشـاعر والـوجـدان .. واقترح الدكتور عبد الملك أن يُغَذّى تلك الليلة عن طريق السيروم ، واستأذنه في أن يعلق لـه السيروم ويوصله بـالوريـد . فقـال لـه أبي : أرجو أن تنتظروني وتتركوني وشـأني هـذه

الليلة فقط !.. ولكن الدكتور الكزبري رجاه بلطفه المعهود أن يـأذن لهم بـذلـك . وتم ذلك فعلاً .

وقـام والـدي فجر يوم الثلاثـاء ، بـل قبيـل الفجر ، كعـادتـه ، فخرج إلى الحمام والميضـأة فـأسبغ الوضوء ، وصلى صـلاة الصبـح . وقرأ مـا تيسر لـه من أوراده التي كان يقرؤها .

ثم عاد إلى فراشه في وقت الضُّحى ، فنام كعادته في ذلك الوقت .

خرجت مع الإخوة الأطباء عندئذ إلى الغرفة الكبرى المقابلـة للغرفـة الصغيرة التي كان ينـام فيهـا والـدي . أذكر منهم الـدكتور هشـام الحـوراني ، والـدكتـور النحـلاوي والدكتور عيسى المرزوقي فيما أتصور .

وإنّا لكذلـك ، ولم يمض على نومـه أكثر من نصف سـاعـة ، إذ سمعت نـداءً بصوت عال يقول : سعيد !.

فهرعت إلى غرفته وتبعني من كان موجوداً آنذاك ..

كان جالساً في منتصف السرير ، وقـد تـدلّى جزء من رجليـه نحو أرض الغرفـة ، ونظر إليّ وهو يحرك شفتيـه بكـلام لم أفهمـه .. ظننت أنـه يريـد الخروج إلى الحمام ، وحاولنا مساعدته ، ولكنه ما لبث أن عـاد فتمـدد في فراشـه ، وفي اللحظـة ذاتهـا أصبح يغرغر ، وراحت عيناه تجحظان إلى الأعلى .. ومـا هي إلا دقيقـة واحـدة .. وأسلم من بعدها الروح .

لقد كان يقيني الذي لم أشك فيه للحظة واحدة . أنه رحمه الله عاين ملـك الموت ، وعلم أن قد حـان الفراق الموقوت ، فنـاداني بـأعلى صوتـه من الغرفـة المقـابلـة كي أشهـد لحظات الوداع ، ولا أفاجأ به ميتـاً دون نظرات مودعـة . وربمـا كان ذلـكِ بـإيعـاز أو بإذن من ملك الموت ذاته .

ولا ريب أن الكلمات التي كان يتمتم بها عندما رآني ، كانت تتضمن الإخبار عما يرى ، وإعلامي بأن قد حان التوجه إلى لقاء الله .. ولكنها رهبةُ الموت ، شلت قوة حباله الصوتية ، وأحالت الكلمات إلى تمتمة على الشفتين .

☆ ☆ ☆

كانت وفاة والدي ضحى يوم الثلاثاء الواقع في ٢٠ شوال عام ١٤١٠ هـ الموافق لـ ١٥ أيار عام ١٩٩٠ م .

وفي ظهر ذلك اليوم كانت جنازته تخترق شوارع دمشق حملاً على الأعناق ، ليدفن في مثواه في باب الصغير ، في المدفن الصغير الذي يرقد فيه بعض رجال العلم من أعيان دمشق وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم الغلاييني رحمهم الله جميعاً .

كانت جموع الناس على أطراف الشوارع تنظر في تأثر فريد من نوعه ، إلى النعش المعرّى من كل شيء إلا عن رداء أبيض سجّي به ، واللوحة البيضاء التي أثبتت في مقدمته وكتب عليها بوصية ملحّة ممن يرقد في داخل النعش :

أتيتك بالفقر يا ذا الغنى   وأنت الذي لم تزل محسنا

توفي ، وترك من ورائه وصية عامة خاطب بها أولاده ، ومن يمكن أن يبلغهم كلامه : هذا هو نصها :

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه الكرام ، وكل مؤمن اتبع سنته . أما بعد ، فأوصي أولادي وكلَّ من يسمع كلامي ، أن لا يتخذوا من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ولا حاكماً أو قديراً . وأسأل الله تعالى أن يفهمهم معنى كلامي وأن يدبّر أمرهم تدبيراً » .

نموذج من تحقيقاته العلمية
ووصاياه الدّينية

تمهيد :

بوسع القارئ الكريم أن يلاحظ أنني ، في الفصول السابقة كلها ، لم أزد على أن وصفت الواقع من حياة والدي رحمه الله ، دون أن أضفي عليه أي تقويم من عندي . أي إن حديثي عنه كان حديثاً وصفياً ، ولم أقحم نفسي في أي أحكام معيارية .

وإنما تركت للقارئ فرصة التأمل في الأحداث والوقائع التي أخبرت عنها ، بأقصى ما أستطيع من دقة ، ليضفي عليها من عنده الأحكام أو التصورات المعيارية التي يقتنع بها .

ويدخل في عموم هذا الذي أقول ، المستوى العلمي الذي كان يتمتع به أبي رحمه الله . فإن القارئ يذكر أنني لم أتحدث عن أكثر من مراحل حياته متعلماً ، ثم معلماً ، ومدرساً ، وعن المعارف والعلوم التي كان يوليها اهتمامه ، ولقد أوضحت أن جلّ اهتمامه كان منصرفاً إلى الفقه ، وأنه برع في فقه الإمام الشافعي ، وكان مشاركاً مشاركة واسعة في فقه الإمام أبي حنيفة . ولكني لم أتحدث قط عن مستوى علمه ومعارفه محققاً ، وسابراً غور المسائل . إذ الحديث عن ذلك يخرج عن حدود البيان الوصفي إلى القرار المعياري .

ولكني أضع الآن بين يدي القارئ نموذجين من تحقيقاته ومناقشاته العلمية ، من إنشائه وإملائه ، وإن لم يكن بخط يده ، لأنه عندما أملاهما ، كان في وضع لا يمكنه من القراءة والكتابة بسبب ضعف عينيه بعد إجراء عمليتين فيهما .

ولا شك أن القارئ يستطيع ، لدى تأمله فيهما وتتبعه لكيفية محاكمته العلمية وكيفية تجاوزه السطح الظاهري إلى جذور المسائل ودخائلها وعمق مراميها ، أن ينتهي إلى قرار منبثق من قناعته الذاتية في هذا الجانب .

إذن ، فقد انتهى دوري الآن ، واصفاً حياة أبي مخبراً عما تضمنته من وقائع وأحداث ، وإنما الحديث في هذا الفصل الأخير لأبي ، وليس لي فيه إلا دور المقدّم والمعرّف بالمناسبة التي انبثق عنها كل من هذه الأحاديث أو البحوث الثلاثة التالية :

الاجتهاد من الرسول الكريم سيدنا محمد عليه وعلى آله أزكى الصلاة والتسليم (١)

رأيت صباح هذا اليوم رؤيا عجيبة ، لا أجرؤ أن أذكر تفاصيلها . ولكنها تتضمن في مجملها دعوة إلى كتابة هذه الكلمات :

يستعظم بعض الناس القول بإمكان صدور الخطأ في الاجتهاد من رسول الله ﷺ ، ويفهمونه على غير المراد . لذا حرصنا على بيان مراد القائلين بذلك ، وهم جمهور علماء الشريعة الإسلامية . فنقول :

بسم الله الرحمن الرحيم الموفق للصواب ، حمداً لله وكفى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه الأوفياء الشرفاء .

اعلم أنه لا بدّ لنا قبل البيان والجواب ، من عرض مقدمة ، وهي أن الأنبياء والرسل معصومون عن ارتكاب المعاصي ، منزهون عن أن ينسب إليهم الخطأ في أي أمر ، بحكم من قبل أي شخص من الناس .

كيف لا ، وقد قال الله تعالى عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم : ٥٣/٣] وقال ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [النساء : ٤/٦٤] فكيف يعصي رسول الله ربه مع أمر الله لنا بطاعته ؟ أم كيف يحقّ لنا أن نحكم بخطئه ، مع أننا مأمورون بطاعته ؟

(١) نشر في مجلة نهج الإسلام ، العدد السادس والعشرون ، جمادى الآخرة ١٤٠٧ شباط ١٩٨٧ م وانظر قصة هذا البحث وسببه في الصفحة ١٥٠ من هذا الكتاب .

ولكن إذا قلنا إن الحكم من قبل الناس بخطأ رسول الله ﷺ ، في أمر من الأمور باطل وغير جائز ، فذلك لا يعني أنه غير جائز إن صدر من الله عز وجل في حق نبيه . بل إن ذلك غير ممنوع من الله عز وجل في حق من شاء من رسله وأنبيائه . فإن الله يقضي بما شاء في حقهم ، ويوجههم أو يعتب عليهم أو يخطئهم كما يريد ، دون أن يثبت مثل ذلك الحق ولا شيء منه لعباده .

ومن هذا القبيل قول ابن حجر الهيتمي : يكره أن يقال عن سيدنا محمد ﷺ : الرسول . بل ينبغي أن يقال « رسول الله » ثم قال : فإن قلت : إن الله عز وجل قال ﴿ يا أيُّها الرَّسُولُ ﴾ [المائدة : ٤١/٥] قلنا إن الله له أن يقول لنبيه ما يريد .

ونظيره أيضاً قول الفقهاء : لا يجوز القسم بغير الله . ثم قالوا فإن قيل : ولكن الله عز وجل قد أقسم بالتين والزيتون ، وأشياء كثيرة أخرى ، قلنا إن الله له أن يقسم بأي شيء ، ولا يجوز أن نقيس أنفسنا عليه في ذلك .

حاصل الكلام إذن ، أننا مأمورون بتقديس رسول الله ﷺ ، وإثبات العصمة له ، وأن ننزهه عن الخطأ الذي يكون برأي الناس واجتهادهم . فإن ذلك يتنافى مع ما هو ثابت من أمر الله لنا بطاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويقضي فيه .

كيف لا ؟! وإن المجتهد من عامة الناس لا يجوز له الحكم بخطأ من يخالفه في اجتهاده إذا كان من أهل الاجتهاد ، فإذا كان المجتهد لا يملك تخطئة مجتهد مثله ، فكيف يجوز له أن يخطئ سيد المجتهدين رسول الله ﷺ . وقد علمنا أنه ﷺ بحر العلم وأنه يأخذ من ربه ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه . وعلومنا لا تبلغ قطرة من هذا البحر .

ولكن الله عز وجل ، وقد علّم رسوله وأدّبه ، له أن يخطئه وأن يعتب عليه وأن ينسب إليه ما يريد . فقد قال له عليه الصلاة والسلام ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ

أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧/٨] وقال له ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ؟ ﴾ [التحريم : ١/٦٦] وقال له ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣/٩] وقال له ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧/٣٣] وقد روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت : ما نزلت آية أشد على رسول الله من هذه الآية ، ولو كتم شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم هذه الآية .

واعلم أن هذه الآيات وما تضمنته من تخطئة أو عتب من الله عز وجل ، لا تلحق أي نقص بحق رسول الله ﷺ . بل هي تأييد لنبوته ورسالته ، لأنها لم تصدر إليه من البشر بل من الله عز وجل .

وبهذا الفهم يتم الجمع بين مذهبي الجمهور ومخالفيهم ، إذ يلتقيان عند القدر المشترك الذي يدلّ عليه قوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣/٥٣] ذلك لأنه ﷺ عندما يخطئ في اجتهاده ـ في علم الله وحكمه ، إنما يكون خطؤه ذاك ، بإلهام من الله لحكمة باهرة . ثم إن الوحي ينسخ ذلك الإلهام في الوقت المناسب ، أي بعد أن يحقق ذلك الإبهامُ الحكمة المرادة منه . فالكل ، إذن ، بأمر الله عز وجل وتوفيقه . وهذا معنى قول العلماء : إن الوحي لا يمكن أن يقر رسول الله على الخطأ .

وهو من قبيل قول الله عز وجل ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء : ٧٨/٢١] فقد أنبأنا الله أنه أطلع سيدنا سليمان وحده على الصواب في تلك الخصومة التي رفعت إلى سيدنا داود . ثم أنبأنا أنه آتى كلاً منهما حكماً وعلماً . أي فله عز وجل حكمة في أن يلهم داود الحكم الذي قضى به ، وأن يلهم سليمان الصواب

فيها ، أي في الخصومة ، ثم يوحي إلى داود أن يتحول إلى الحكم الذي قضى بـه سليمـان ، على نبينا وعليهما أزكى الصلاة والسلام .

ومن هنا يتبين لنا مراد جمهور العلماء في القول بإمكان صدور الخطأ الاجتهادي من رسول الله ﷺ . فحاشاهم أن يدّعوا أنه ﷺ قد يخطئ بموجب حكم الناس ونظرهم ، ولا ريب أنهم بريئون من الحكم من عند أنفسهم بذلك .

انظر إلى ابن حجر الهيتمي - وهو من المتأخرين - كيف تأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ إذ نبّه إلى كراهية النطق بكلمة (الرسول) بل نقول (رسول الله) مع العلم بأن الله قال له : ﴿ يأيها الرسول ﴾ إذ إن الله له بمقتضى ربوبيته أن يقول ذلك لرسوله . أما نحن فلا يجوز أن نقيس أنفسنا عليه .

وأخيراً ، فإن على المؤمن أن يحقق ويدقق في هذه المسألة وأمثالها ، طبق موازين العلم وأن لا يسرع فينسب الخطأ إلى العلماء فيها ، لا سيما وهم الجمهور . ذلك لأن التوفيق ممكن بين قولهم وبين قول القلة التي خالفتهم ، كما قد رأيت الآن .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مبحث نجاة والدَيْ رسول الله ﷺ والصلاة عليهما[1]

هذه موعظة ونصيحة من ملا رمضان لمن يقولون بالصلاة على والدَيْ رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ويتهمون المنكرين للصلاة عليهما بأنهم يحكمون بكفرهما .

وحاشا أن يقول رجل مؤمن بكفرهما . بل إن العلماء ذكروا أدلة على إسلامهما أو نجاتهما . منها - وهو أقواها - أنهما من أهل الفترة ، أي ممن عاشوا في المدة التي لم تدركها تعليمات النبي السابق ، ولم يدركوا بعثة النبي اللاحق . والدليل على نجاة أهل الفترة عموماً قول الله عز وجل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٧/٥٨] ومنها حديث عائشة أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي له أبويه ، فأحياهما له ، فآمنا به ثم أماتهما . إلا أنه حديث ضعيف لم يعول عليه علماء الحديث . ومنها ما رأيته في بعض كتب التفسير ، في تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦/٢١٩] أي تقلبك من بطن إلى بطن ومن ظهر إلى آخر في الساجدين . فهو إشارة واضحة إلى أن آباء رسول الله كلهم مؤمنون أو في حكم المؤمنين . ومنها أنه ﷺ أشرف المخلوقات . وينبغي أن لا يحلّ الشريف إلا في الشريف ، والحكم بكفرهما ينافي ذلك .

فثبت بهذه الأدلة أنهما ناجيان إن شاء الله ، ولا ينافيها حديث مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي . فإن ظاهر هذا الحديث لا يدلّ على أنها غير ناجيين ، إذ قد يكون النهي عن الاستغفار لسبب آخر ، الله أعلم به ، والدليل إذا دخله الاحتمال سقط به الاستدلال ، نظيره نهيه ﷺ عن الصلاة على الميت الذي عليه دين لم يوفَّ عنه دينه . فهو أعم من أن يدلّ على كفره .

(١) انظر قصة كتابته ونشره لهذا البحث في الصفحة ١٥١ من هذا الكتاب .

وكيف نحكم بكفر أبوي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقد كنت أقرأ سورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : ١/١١١] في بعض الأحيان ، فقرأت في بعض الكتب رواية عن بعض الصالحين ، أنه كان يكثر من قراءة هذه السورة ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الرؤيا ، وفي وجهه علائم التأثر والعتاب ، وقال له : أليس هو عمي ؟ يقصد أبا لهب . ومنذ ذلك الحين أمسكت عن قراءة هذه السورة إلا في الختم ، إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

☆ ☆ ☆

أما امتناعنا عن الصلاة على أبويه ، فإنما أثبتناه هو الآخر عن طريق العلم والاتباع . ولنوضح لك هذه الأدلة :

أولها وجوب امتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقد روى البخاري في صحيحه أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ ، بعد نزول قول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسْليماً ﴾ [الأحزاب : ٥٦/٣٣] . كيف نصلي عليك يا رسول الله ؟ فقال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وآله وذريته وأزواجه كما صليت على إبراهيم ... الحديث .

ثانيها : ضرورة اتباعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم في امتناعه عن الاستغفار لأمّه ، لمّا نهاه الله عز وجل عن ذلك . بل إنني ما وجدت في أدعية رسول الله كلها استغفاراً لأبويه أو لأحدهما ، مع كثرة صيغ الاستغفار الواردة عنه ، كقوله قبل النوم : رب اغفر لي ذنبي واخسأ شيطاني وفكَّ رهاني وثقل ميزاني ، وكقوله : رب اغفر لي ذنبي وتب عليّ إنكَ أنت التواب الرحيم .

ولا يُستدلُّ بهذا الامتناع منه عليه الصلاة والسلام ، على كفرهما ، إذ إن النهي الذي تلقاه عن ربه قد يكون لحكمة خفية عنا ، كما ذكرنا آنفاً .

ثالثاً : الصلاة على رسول الله ﷺ عبادة من أجلّ العبادات . والعبادات لا تصح إلا باتباع الوارد فيها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بحديث فعلي أو قولي صحيح . أو بإجماع الفقهاء . والثابت يقيناً ، أنه لا رسولُ الله أمر الصحابة بالصلاة على أبويه ، ولا أصحابه فعلوا ذلك ، ولا التابعون ولا من بعدهم .

وقد قرر العلماء أن الامتثال خير من الأدب بمعناه الظاهر عند التعارض .

ومن التطبيقات الاحتياطية لهذه القاعدة ، ما هو ملاحظ من أن الإمام الشافعي في كتابه الأم ، إذا ذكر اسم رسول الله لا يقول سيدنا محمد ، بل يقول محمد ﷺ .

كما ذكر في بعض حواشي التحفة لابن حجر أن بعض الناس اقترح زيادة (سيدنا) في الأذان والإقامة . فردّ الفقهاء جميعاً بأن ذلك غير وارد ، فلا رسول الله أمر به ، ولا الصحابة أو التابعون فعلوا ذلك . مع العلم بأن التساهل هنا أقرب - لو كان جائزاً - من التساهل في الصلاة على أبوي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ومع ذلك فقد رفضت هذه الزيادة بالإجماع .

وإذا لم تقتنع من هذه القاعدة التي ذكرها العلماء ، وهي أن الامتثال خير من الأدب ، فاذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتفق عليه : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ » وقال الله تعالى ﴿ أَمْ لَهُم شُركاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدين مَا لَمْ يَأْذن بِهِ اللهُ .. ﴾ [الشورى : ٢١/٤٢] .

وقديماً قال العلماء أيضاً :

كل خير في اتباع من سلف ... كل شر في ابتداع من خلف

والنتيجة أنه لا يجوز الإقدام على أي عمل تديّناً إلا بعد معرفة حكم الله فيه ، كما نص على ذلك الفقهاء جميعاً . فما هو مرجعنا النقلي في الإقدام على هذه البدعة .

والذي يدعي أنه بهذا الابتداع يثبت محبته لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ليس له شاهد على ما يقول . فإن الله جل جلاله قال ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ [آل عمران : ٣/٣١] . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبوني لحب الله إياي » فقد علق رسول الله محبتنا له كما ترى بمحبة الله لا بأي شيء آخر . وإنما أساس ذلك الاتباع .

بل إنني أرى أن إقحام كلمة (ووالديه) في الصلاة يبطلها .

بل لقد رأيت في بعض الكتب الفقهية أن المصلي لو قال : سمع الله لمن حمد ، بدون هاء الضمير ، بطلت صلاته ، وقد علمتُ أن وجه البطلان هو أن سقوط الضمير يجعل الجملة كلاماً أجنبياً غير المأمور به وهو (حمده) بهاء الضمير ، فكيف بزيادة كلمة فيها مخالفة صريحة لأمر رسول الله ؟

ومن هذا القبيل ما يروى من أن رجلاً صالحاً رأى رسول الله في منامه ، وقال له يا رسول الله هل قلت : الحيا من الإيمان ؟ (أي بدون همزة) فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا وكررها مراراً . ثم قال له : إنما قلت : الحياء من الإيمان .

يتبين من هذه الشواهد كلها أن الواجب علينا اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا أن نخترع من عندنا ما نشاء بدعوى حبنا له . بل علينا ـ إن كنا صادقين في هذه الدعوى ـ أن نصغي إلى مثل قول رسول الله في الحديث الصحيح « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » وعقد بين إصبعه الوسطى والسَّبابة ، ثم نسعى وراء تطبيق معناه بإتلاف المال وإتعاب البدن ، فذلك هو الدليل فعلاً على حبنا له ، لا أن نخترع البدع التي لم يأذن الله بها فندعو إليها ونستثير الفتن والشقاق من جرائها . فإن هذا فساد في الأرض والله لا يحب المفسدين ، وإنما يحب من عباده اتباع أوامره ، واجتناب البدع التي تسوق إليها الأهواء وحظوظ النفس .

فإن أردت طريقاً أيسر إلى مرضاة الله والتقرب من رسوله ، لا يكلفك إنفاق مال ولا جهد بدن ، فتتبَّع الصِّيَغ المأثورةَ في الصلاة على رسول الله ، والتي نوه رسول الله بالأجر الكبير عليها باستمرار وداوم عليها .

من ذلك ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، أن من قال دبر كل فرض : اللهم آت محمداً الوسيلة واجعل في المصطفين محبته وفي العالمين درجته ، وفي المقربين ذكره ، حلت له شفاعتي .

وأخيراً فإن من أراد الاعتصام بدينه وتحقيق إيمانه والتقرب الحقيقي إلى رسول الله ﷺ ، فليتدبر هذا الكلام وليعمل به ، فإني ما أردت به إلا وجه الله عز وجل .

اللهم ألهمنا رشدنا وأعذنا من شرور أنفسنا ، وارزقنا نعمة الإخلاص لوجهك الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

خلاصة الوصية التي كتبها في شبابه لطفله الوحيد[1]

أيها الولد : أوصيك بالتفكر في نفسك بأنك مُحدَث ، خلقت من ماء مهين بواسطة الوالدين ، كما خلقا أيضاً كذلك ، وهلم جراً ، إلى أبينا آدم . وهو قد خلقه الله عز وجل بقدرته من تراب ، كما أنزل في كتابه المبين ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣/٥٩] وقوله ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ .. ﴾ [ص : ٣٨/٧١] . فإذا علمت بأنك مُحدَث علمتَ حدوث غيرك أيضاً من السماوات والأرض وما فيهما ، لأنه لا فرق بينك وبينه في ذلك . غير العزيز الحكيم القديم ، فإنه خالق غير مخلوق ، مُحدِثٌ غير مُحدَث ، ليس له أول ولا آخر ، ولا شيء من صفات المحدَثات فإنه لو كان فيه شيء من ذلك لما صلح للألوهية ، كما لا يخفى على ذوي الألباب .

فإذا علمت حدوثك وحدوث سائر العالم ، عرفت بأن للعالم خالقاً محدِثاً أوجده من العدم من غير مادة . وهو الله الرزاق المحيي المميت الفعال لما يريد . لا شريك له في ذاته ، أي ليس متعدداً ، لا في ذاته ولا في صفاته بأن يماثله فيها أو في بعضها غيره .

(١) هذا التلخيص لا يعني أي تدخل في الصياغة . فكل ما تقرؤه هو نص ما كتبه أبي ، ولكن نظراً لطول الرسالة حذفت ما قد يمكن الاستغناء عنه ، واكتفيت بإيراد الأهم من كلامه ، وإذا لاحظت فرقاً في الصياغة بين هذه الوصية والمقالين السابقين ، فذلك لأن أبي رحمه الله كان عند كتابته لهذه الوصية حديث عهد باللغة العربية واستعمالها . وارجع إلى ص من هذا الكتاب لتقف على قصة كتابته رحمه الله لهذه الوصية .

فحينئذ تعلم أن إلهك هو الله الواحد الأزلي الأبدي الذي ليس له نظير ولا أوّل ولا آخر المنزه عن الكم والكيف وأين ومتى ، الذي خلق جميع الأشياء ودبرها ، كما خلقك . وأنه لا بدّ أن يكون لذلك الإيجاد من حكمة ، فإن الله عز وجل منزه عن أن يعبث بفعله ، كما قال تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١١٥] ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/١٦] .

وتلك الحكمة لا بدّ أن تكون الابتلاء والامتحان لأمثالك من المكلفين ، لقوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : ٦٧/٢] . فمن آمن به وعمل صالحاً يدخله بفضله جنات تجري من تحتها الأنهار كما وعد في كتابه المبين . والكريم إذا وعد وفى ، بل قد يزيد . ومن كفر به - أعاذنا الله وسائر الإخوان - يدخله ناراً خالداً فيها .

فإذا تفكرت حق التفكر في نفسك وغيرك من الآيات ، علمت أن كل ما سوى الله آيات دالآت على وجود واجب الوجود ، وأن الدنيا ليست مستقلة بالذات . بل إنما هي واسطة . والمقصود بالذات إنما هو الآخرة ، وعلمت بأن الآخرة هي السعادة الأبدية للمؤمنين والشقاوة الأبدية للكافرين ، وهي نتيجة الدنيا بحسب الظاهر . وعندئذ تشمر عن ساعد الجد لإرضاء ربك وامتثال أمره ، ولا تعمل للدنيا إلا من حيث هي واسطة ، على طريق الشرع .

فيا أيها الولد : إذا وعيت ما ذكرنا ، فألق السمع للكلام الآتي وأنت شهيد ، وتأمل فيه حق التأمل أيها السعيد ، واعمل به فإنه هو السبب للحياة الأبدية والأمر السديد . وهو هذا الذي أقوله لك :

اعلم أن الله خلق الجنة والنار ، وخلق أشياء كثيرة أخرى لا يعلمها غيره من الملائكة والإنس والجان وسائر الحيوانات والجمادات . ولم يكلف نوعاً من هذه الأنواع غير الإنس والجن ، كما قال عز وجل ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

[الذاريات : ٥١/٥٦] . فخلق الإنسان وركب فيه الشهوات النفسية من الميل إلى الطعام والملابس ، والتكلم بكلام الدنيا والنظر إلى المحرمات ، وشهوة الفرج ، وحب الجاه والمال ، والكبر والحقد والحسد ، والنميمة والغيبة ، وفراغ النفس من الطاعات والمشاق ، ومع ذلك سلط عليه الشيطان الإنسي والجني .. ثم كلفهم بترك تلك الشهوات النفسانية إلا أن تكون عن طريق الشرع ، وبعدم اتباع الهوى وعدم امتثال نصائح الشيطان الإنسي والجني ، حيث قال تعالى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ [فاطر : ٣٥/٦] ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى ﴾ [النساء : ٤/١٣٥] . ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩١/١٠] . فصار الإنسان إذن مكلفاً بتزكية النفس والامتثال للأوامر واجتناب النواهي . فلا بدّ لك أن تشمر عن الساعد وتجاهد حق المجاهدة كلاً من الشيطان والنفس بتوفيق الرحمن .

ولا يخفى أن هذه المجاهدة يلزم لها العلم . فإن البَطَل الذي يبرز للعدو ، إذا لم يكن ماهراً في أصول المحاربة ومكائدها من الكر والفر ، يُغلب في أول مرة .

فالآن إذا أردنا أن نرجع إلى ديننا ونطيع مولانا ونكون من أشرف الأمم ، فاللازم علينا التفقه في الدين والنظر إلى الدنيا بتحقيقها ودناءتها ، وأن نتأمل في هذا الحديث الصحيح الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ منكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . زاد الترمذي : « وعدّ نفسك من أهل القبور » .

فإذا عرفت حكمة خلقك ، وحقيقتك ، وأنك عبد مأمور بتقوى سيدك وبالعمل لآخرتك ، وبأن الدنيا آلة لعمل الآخرة ، وأنك مكلف بالأحكام الشرعية في جميع أحوالك وأفعالك الاختيارية ، حتى إن كل خطوة من خطواتك وقول من أقوالك ، لا بدّ له من قصد مصلحة ، وإلا فهو من الإثم إن قصدت به الإثم أو مما لا يعني إن لم تقصد شيئاً ، فأقبل عندئذ إلى الله بقلبك وإخلاص نيتك ، واجعل مقصودك رضاه

وحب من يحبه ، واترك النفس والشيطان ، فإنها يريدان إخراجك من النور إلى الظلمات ، ويريد الله إخراجك من الظلمات إلى النور . فقد قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٧] .

فإذا أقبلت على الله صدقاً ، ينبغي أولاً أن تتعلم العلم ، فإنه روي « ما اتخذ الله من ولي جاهل ، ولو اتخذه لعلّمه » . والمراد بالجاهل الجاهل بالعلوم الوهبية ، أما الجاهل بمبادئ العلوم الظاهرة مما يجب عليه تعلمه ، فهو واجب على عامة الناس ، وليس من ضرورات تعلمه أن يصبح المتعلم ولياً ، قال رسول الله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

وأما العلوم التي أوصيك بالبعد عنها ، فثلاثة : حرام ، ومكروه ، ومباح . أما الأول فالفلسفة[1] والشعبذة والسحر والتنجيم والرمل وعلوم الطّبائعيين ، وأما الثاني فكأشعار المولدين المشتملة على الغزل والبطالة ، وأما الثالث فكالعلوم التي لا سخف فيها ولا شيء مما يكره ، أو ينشط لشر أو لخير .

وإذا أردت أن تتعلم ، فكن في أيام تعلمك متيقظاً زاجراً لنفسك عن المعاصي ، ولا تكن مثل بعض طلبة الزمان ، حيث لا يلتفت إلى ما لا بدّ له منه ، ولا يسأله في هذه الحالة ، من لا يعلم ، وينبذ العلم وراء ظهره من يعلم . ويتبعون الشهوات أيام التعطيل مثل يوم الجمعة وليلتها ، ولا يعلمون أنهم يحرمون من ثواب الوقت وفضيلته ،

---

(١) اعتمد والدي فيما بعد ، ما ذهب إليه الجمهور من أن دراسة الفلسفة جائزة ، لذوي الملكة العلمية الواسعة ، والذين استقرت في عقولهم حقائق العقيدة الإسلامية . وعلى هذا الأساس فقد درّسني فيما بعد أهم مباحث الفلسفة وهو (المقولات العشر) . وفي هذا يقول صاحب السلّم :

« والقولة المشهورة الصحيحة   جوازه الكامل للقريحة
ممارس السُّنة والكتاب   ليهتدي به إلى الصواب »

والعوام يقتدون بهم ويتبعونهم في ذلك لحسن ظنهم بهم حيث يرون أنهم أهل علم ، فيَضلون ويُضلون ، مع أن ليلة الجمعة ويومها موسمان للطاعة والدعاء والصلوات ، فبسبب لهوهم يحرمون من فضيلتها العظيمة التي لا تدرك .

وحاصل الكلام أيها الولد أنني أوصيك باتباع الكتاب وسنة النبي ﷺ في جميع حركاتك وسكناتك ، وترك ابتداع عوام الزمان . فإن البدعة شَرَكُ الشِّرك . فحذار أن تتعلم أو تعلم أو تعمل شيئاً إلا بنية خالصة . وكن غريباً بين أظهر أصحابك ، فإن تلك الغربة محمودة لحديث : « الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » ولا تغفل عن الله في وقت من الأوقات .

وزكِّ نفسك من الرذائل والأمراض القلبية ، كالغضب والحقد والحسد والعجب والرياء والفخر والحرص على الدنيا والطمع والبخل وحب الجاه . لأن من الفروض العينية معرفتها ومعرفة أسبابها وعلاجها .

ويا أيها الولد : عليك بالرياضات والدعاء من الله بالتوفيق ، ولا تلتفت إلى ثقل الأمر على نفسك . فإن غالب الفواكه قبل الإدراك طعمها حامض أو مر ، ثم يدرك . وإن الدنيا وإن كانت لذيذة عند أهلها وفي الوهلة الأولى ، لكنها طعام فيه سم عند ذوي البصائر وبعد تدقيق النظر . وإن طاعة الرحمان وإن كانت ثقيلة في البداية وعلى النفس الأمارة ، لكنها خفيفة لذيذة ، بل ليس شيء أحلى منها ، في النهاية وعلى النفس المطمئنة ، وإن ترك الدنيا يكون سبباً لاستراحة البدن في الدارين ، وأما حبها وازديادها فيكون سبباً لوقوع صاحبها في الأحزان دائماً .

وإياك وحب الجاه ، وهو سعي الإنسان إلى أن يكون معظَّماً في القلوب .

وعلاجه بأن تعلم أن إرضاء قلوب الناس عن نفسك لا ينفعك لأنه غير باق . أما تنظر إلى فرعون كيف عظموه حتى عبدوه ، ثم إلى ماذا صار وصاروا ؟.. فلو عَظَّمتَ أيها الولد في قلوب الناس ما تصل إلى عشر معشاره . ولكن إن جاهدت نفسك في

تقوى الله تعالى وإرضائه عنك ، تحصل لك الحياة الأبدية إن شاء الله تعالى ، ويكون رضاه عنك سبباً لرضاهم عنك . فإن القلوب كلها بيده يقلبها كيف يشاء .

إن الجاه يكون سبباً للكمال الوهمي لا الحقيقي . فإن شرفك عند الناس أمرٌ وهمي لا حقيقة له ، كالزبد الذي على وجه البحر ينقلب بسرعة . كما أن العلم بالمعلومات المتغيرة كمال وهمي ينقلب جهلاً . كأن تعلم مثلاً أن زيداً في الدار ، ثم يخرج ، فينقلب علمك جهلاً ، وأما علمك بالمعلومات الثابتة كالعلم بوجود الله ، وبأنه متصف بكل صفات الكمال ، ومنزه عن كل صفات النقصان ، فهو كمال حقيقي لا يزول لا في الحياة ولا في الممات .

ثم أيها الولد : إذا علمت حقائق الأمراض القلبية وأسبابها وعلاجها ، وأن العلم بذلك فرض عين على كل مؤمن ، علمت حينئذ أنه يلزمك الاجتهاد في تصفية قلبك عنها وعن وسوسة الشيطان .

☆ ☆ ☆

ثم عليك بالصمت أيها الولد ، سيما عن المحرمات والمكروهات فإن رسول الله ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[(١)] .

ويا أيها الولد : إن أردتِ سلوك طريق السلف ولا تكون لإبليس هدفاً ، فعليك بتزكية القلب من الآثام ، وتقليل الكلام ما استطعت ، لا سيا في الغيبة والنميمة ، حيث يصعب الاحتراز عنها في هذا الزمان ، بل صارتا فاكهة المجالس والضيفان ، كلما اجتمعوا اشتغلوا بعيب غائب أو بنقل كلامه إلى الغير على وجه الإفساد . وقد قال الله تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ وَلا فَسَاداً ﴾

---

(١) متفق عليه .

[القصص : ٨٣/٢٨] وقال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠/٤٩] وقال تعالى في ذم الغيبة ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : ١٢/٤٩] والوعيد في ذلك كثير جداً .

ثم أحثك على أن لا تعلق قلبك بغير الله ، إلا أن يكون رسولاً له أو نبياً أو ولياً . بل كن محباً لله لا غير ، إلا حب من يقربك حبه إلى الله عز وجل . فإنه وحده الباقي في كل وقت ، قدير على كل ما يريد مما ينفعك أو يضرك . وكل ما سواه مقهور تحت قدرته كيف يشاء لا يقدر على جلب نفع لك ولا ضر . فإذا آثرت سواه عليه تعالى صار هذا الإيثار حماقة بل جنوناً .

ولا تقل إني محب لله وتارك للدنيا ، وأنت مخالف لما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن دليل حب الله تعالى الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ، لا مجرد الميل النفساني .

ثم كن ما استطعت خائفاً من الله تعالى ، فإنك لا تدري على أي النهايتين يختم عمرك . وإنك لو أطعت الله تعالى دوام عمرك لا تعلم أنه يقبل منك طاعتك أو يردّها عليك . ومع ذلك فقد قال الله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : ٩١/٦] . فلا تصير مستحقاً للجنة بطاعتك ولو بلغت نهاية طاعة الإنسان . وإنك لا تعلم أن غضبه تعالى بأي ذنب يحصل ، أعاذنا الله منه . ولكن أكثر خوفك من سوء الخاتمة أعاذنا الله وجميع المؤمنين منه ، حتى يكون ذلك سبباً ليقظتك وتهيئك في كل وقت للموت .

ثم عليك بإقامة الصلوات المفروضة بأركانها وشرائطها ، ذا خشوع وتضرع وحياء من الله ، حاسباً نفسك بين يدي الله وأنت تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وخائفاً منه عدم قبوله لها . بل يحتمل أن يغضب عليك بسبب إساءتك ، واستشعر منته عليك حيث أذن لك ، عبداً عاصياً ، بمناجاته . ثم عليك بالسنن الراتبة ، فإن من واظب على تركها صار مردود الشهادة .

ثم أوصيك بملازمة الجماعة ، فإنه قد اختلف فيها على ثلاثة أقوال : فرض كفاية ، وسنة مؤكدة ، وفرض عين . فلا تتركها ما استطعت أي ما لم تكن معذوراً بأعذارها المذكورة في كتب الفقه .

ولا تكن إماماً ما استطعت ، بأن وجد من يصلح للإمامة غيرك ، لا إن لم يصلح ، وأنت تصلح ، فلا تتركها له حينئذ ، ولكن أتقن معرفة شروطها وآدابها فإن الإمامة ضمان .

وخلاصة ما نوصيك به أن تكون عاملاً بالسنة في جميع حركاتك وسكناتك ، ولا تعمل بالبدع التي ابتدعها أهل الزمان فإن البدع شَرَك الشِرْك كما قلنا ، والشَرَك حبالة الصيد التي يصيد بها الصياد . فالبدع مثل تلك الحبالة في جلب الشِرْكِ . فلتكن أعمالك البدنية والمالية كلها بالسنة .

☆ ☆ ☆

ثم أيها الولد : لا يفيد التطويل في الكلام ، بل لا يفيد الأَجْلافَ ذكرُ ألف شاهد ومثال ، ويكفي لمن ألقى السمع وهو شهيد مثال واحد ، فيتأمل فيه ويخرج به من الضلال . فلنخرج لك زبدة الكلام ، وعليك بالإصغاء والفكر التام إلى الختام ، لتنال به أعلى المقام وتعمل به على الدوام ، وهي أن الله تعالى خلق حياتين : حياة أبدية وهي حياة المؤمن في الجنة ، والكافر في النار ، وحياة فانية تزول قريباً وهي الحياة الدنيا ، عبارة عن اللهو واللعب والتكاثر في الأموال والأولاد .

فانظر إلى الحياتين وتفكر فيهما أيها أبقى وألذ . فإن أوصاف الجنة لا تعدّ ، والنعمة العظمى رؤية الباري تعالى وسيد الكونين محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام . وأما هذه الحياة فهي كما ترى ، لا تخلو - ولو لمن كملت له كفرعون ونمرود وأمثالهما - عن نقص وحزن وألم . فكيف بغيرهم ؟ ومع هذا

سيدخلون جهنم داخرين وإلى الأبد معذبين ، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها .

فخذ لنفسك الحياة الأبدية ولو كانت مؤجلة . فإن التاجر ربما يبيع متاعه نسيئة لكون الفائدة فيها ، أكثر مما في الحال . واترك الحياة العاجلة الفانية . ولا تقل : آخذ كلتا الحياتين ، فإنها لا تجتمعان ، لأن العاجلة تحصل باتباع الشهوات ، والآجلة تحصل بتركها والمحافظة على الإيمان . وقد مرّ أن العمل جزء من الإيمان . وقد قال العلماء الكبار والأولياء الخيار : من ابتُلي بترك الآداب وقع في ترك السنن ، ومن وقع في ترك السنن وقع في ترك الواجبات ، ومن وقع في ترك الواجبات وقع في ارتكاب المحرمات ، ومن وقع في ارتكاب المحرمات وقع في ترك الفرائض ، ومن ابتلي بترك الفرائض وقع في احتقار الشريعة ، ومن ابتلي بذلك فقد وقع في الكفر نعوذ بالله تعالى . فينبغي للإنسان أن يحفظ الآداب دائماً في جميع الأمور كلها بقدر وسعه ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . فانظر أيها الولد كيف يصير ترك العمل القليل سبباً لزوال الإيمان الجليل . أعاذنا الله وإياكم والإخوان من سلب الإيمان .

ثم لا يكفي في حبك مجرد الطاعة ، كما قد تتوهم مما قلناه آنفاً ، بل يلزمك أن تحبه حباً شديداً حتى لا ينفك القلب عن مراقبته وملاحظته وشهوده ، حباً ذاتياً ، لا بحيث إذا أعطاك تحبه وإذا منعك تترك الطاعة ، فيصدق عليك قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١/٢٢] فإن كان حبك له ذاتياً وتعبده لذاته فلن تتغير عن حالك وإن قلبك إلى ألف حال . فليكن حبك من هذا القبيل بحيث لو تعلم أنه يعذبك بالنار أبداً مع طاعتك إياه ، تطيعه وتحبه ولا تعصيه .. ذلك لأنك لو علقت حبك لله بحصول نفع من الله لك أو دفع ضرر عنك ، يحتمل أن لا يوجد شرطك ، فيسلو حبك ويذهب . بل كن محباً لله بلا شرط ، كي لا يزول أبداً . هذا هو

رأس مال كل خير ودفع كل ضرّ ، كما قيل : أخرج عن قلبك الغير ، وليكن إلى الله السير ، يدفعْ عنكَ كل ضير وترى منه كل خير .

ثم كن حارساً على باب قلبك ، كي لا يدخله شيء آخر . ثم كن ذاكراً بقلبك ولسانك لله ذكراً كثيراً ، واستغث وتوسل برسول الله ﷺ[1] وكن محباً له ومصلياً عليه ، كثيراً ، امتثالاً لأمره تعالى وإجلالاً للنبي وتوقيراً . وكن مجتهداً في طاعة ربك بالبدن والمال ، وكن متضرعاً إليه في أوقات الابتهال مثل جوف الليل والسحر ، وبعد الفرائض وعند الفطر من الصوم والعشر الأواخر من رمضان ، والعشر الأوائل من شهر ذي الحجة لا سيما يوم عرفة ، وأول ليلة من رجب وليلة النصف من شعبان ، وليلة المعراج ، وليلتي العيدين ، ويومهما ، وأيام التشريق ولياليها واحرص على صوم أيام بعض منها ، وإحياء لياليها بالطاعة والدعاء ، راجياً من الله حسن الخاتمة ، والتوفيق للأعمال المقرِّبة .

وعليك بركعتي الضحى أو أكثر إن وفقت .. وعليك بالتهجد شاغلاً قلبك بالله لا بالدنيا ، وإلا فالنوم خير منه ، وعليك بصوم أيّام البيض ، لكن بالتدرج لئلا يثقل عليك الأمر . بل افعل شيئاً من الصوم مثلاً ، وقم إلى بعض التهجد ، وداوم ، حتى تصير متطبعاً به ، وكذلك الوظائف الأخرى أقبل إليها شيئاً فشيئاً .

لا تزل كذلك وكما أوصيتك ، إلى أن تموت . فإن الله كريم لا يخيب السائلين .

وكن مواظباً على قراءة الآيات والأذكار التي تصير سبباً لحسن الختام ، وعلى الأذكار الواردة في الصباح والمساء .

والحمد لله على الإيمان والإتمام . وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) مرّ أنه رحمه الله نبه من قال : يا رسول الله ، أن يقول يا الله . وقد يتنافي مع ذلك التنبيه قوله هنا : واستغث برسول الله . ولعل قصده بالأمر بالاستغاثة هنا أن يقول : اللهم إني أستغيث برسولك فاجعله غياثاً لي .

وأخيراً

أما بعد ، فتلك هي قصة حياة والدي ، كتبتها بروح حيادية ، وصُغْتُها بأدق ما أستطيع من العبارات التي تصور الواقع كما هو ، دون أي مبالغة أو تضخيم أو تفخيم .

ولم يكن دافعي إلى التزام هذا النهج ، خوفاً من عتب الناس ، وإنما كان الخوفَ من غضب والدي رحمه الله ، وأنا أدرى الناس بطبعه ، ومدى اشمئزازه من المبالغات والمجاملات التي لا تعتمد على رصيد .

قال لي بعضهم : ألا تكتب شيئاً عن كراماته ؟

قلت : مهمتي أن أدون تاريخ حياته وأسجل صورة سلوكه وأعماله التي علمتها ورأيتها . وبوسع القارئ أن يتفحّصها ويتبيّن فيها ما يريد .

إننا نعيش في عصر خفّ ثقل الكرامات فيه على الألسن ، وغدا الحديث عنها من مهمة الأخيلة التي تَنْسُجُ منها ماتشاء لمن تشاء !.. وتناسوا فيه قيمة الاستقامة الحقيقية على أوامر الله ، والورع في تجنب المحرمات والترفع عن الشبهات والمال الحرام . وغدت التقوى مظاهرَ مما يُلبس ويخلع ، وعاد العلم بالدين طيلسانات تجمّل بها الظهور والأكتاف ، أما ذكر الله عز وجل فقد تحول إلى سبحة تُدار حول المعصم ، أو تتفرقع حباتها بين الأصابع . ويتناغم اللسان معها بالحديث عن الدنيا وعن الناس وفلان وفلان .. طبق ماتهوى الأنفس وتوحي به الغرائز والشهوات .

وأنا لم أكتب هذه الصفحات ، ترويجاً لاسم شخص ، ولا دعاية لأسرة ، ولكني كتبتها بعد طول تأمل وتردد ونظر ، لأودع فيها ما يمكن أن يكون عبرة لمعتبر أو درساً لمتدبر . ولو أني استنطقت هذه العبرة ببياني ، لجاءت مزيفة ومشوهة .. لقد كان

خيراً من ذلك إذن ، أن أقدمها للناس صامتة ساكتة عن أي فذلكة أو تعليق وتذييل ، وسيكون بيان الأفئدة والمشاعر المتدبرة أبلغ وأجدى من بيان الكاتبين والمترجمين .

على أني أوْلَى الناس بالدرس والاعتبار ، وأول من يجب عليه أن يجعل من هذه القصة ترجمة لحياته وعنواناً لسيرته وسلوكه ، سيما وأنا المعنيّ الأول بتلك الوصايا والنصائح التي أصغينا إليها ، والتي جاءت خاتمة هذه الطوفة في التعرف على حياة هذا الإنسان .

لقد كنت أتلمس رضاه ، رحمه الله ، جهد استطاعتي في كل تقلباتي وأنواع سلوكي ، طوال حياته . فلما توفي وحيل - في الظاهر - بيني وبين الاستفادة من توجيهاته ونصائحه ، داخلتني من ذلك وحشة كبيرة ، وأهمني الأمر .

فرأيته في المنام بعد مضي أسبوع تقريباً من وفاته . رأيته خارجاً من غرفته الصغيرة لابساً ثيابه التي كان يرتديها ، حاملاً عصاه في يمناه كعادته ، إلا أنه مستقيم الجذع ناهض الرأس والقامة ، فأقبلت إليه أقبل يده ، وأنا على علم بأنه متوفى ، وأخذت أمشي معه قائلاً : ليت أن صلتك بنا وإشرافك على شؤوننا ، ورعايتك لنا ، يبقى كل ذلك مستمراً كما كان . فالتفت قائلا : كيف ؟.. فأعدت له الكلام بطريقة أخرى لم أعد أذكرها . فأجابني مؤكداً : سيكون.. سيكون..

وإنني لعلى يقين بأن هذه الرعاية مستمرة إلى اليوم ، وآخر ما رأيت من دلائلها ، ما أعدّه إشارة واضحة منه إلى الإقدام على إخراج هذا الكتاب .



قارئي الكريم : لعلك تذكر مما قد وقفت عليه في هذا الكتاب أن أبي رحمه الله كان كثير التكرار لصيغة من الثناء على الله تعالى ، يرددها بنشوة وطرب في كل مناسبة ، بل بدون مناسبة أحياناً . كان يقول : الحمد لله الذي خلقني من أبوين مسلمين

مؤمنين ، علماني كتابه وشرعه ، ورزقني الهجرة إلى الأرض المقدسة التي مجدها الله ورسوله ، وأكرمني بالذرية الطيبة فرزقني بعد الولد الواحد الحفدة وأولاد الحفدة ، ورزقني ، مع الستر ، من حيث لا أحتسب .

فحق عليّ الآن أن أقول أنا الآخر :

الحمد لله الذي أولدني من أبوين مسلمين مؤمنين علماني كتابه وشرعه . والحمد لله الذي أكرمني بأبوة من كان ديدنه ودأبه في الدنيا تعظيم الله عز وجل ، آملاً أن يدخلني الله وأولادي برحمة منه في شفاعته بعد شفاعة سيدنا محمد ﷺ ، ببشرى من قوله عز وجل ﴿ .. أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : ٥٢/٢١] وبشرى ثانية مما قد رأى قبيل وفاته .. والحمد لله الذي نشأني على عين والدي هذا تعليماً وتربية وتهذيباً . والحمد لله الذي أكرمني بنصيب وافر من هجرته إلى هذه الأرض المقدسة ، فكان من آثار ذلك أن شرفني الله عز وجل بلغة القرآن وأكرمني بالتشبع بحب خير الأنام . ولو بقيت في تلك الديار النائية عن العلم وإشراقة هذا الدين ، لكنت اليوم راعياً في سفح أو فلاحاً في حقل ، أتقلب في أغشية من ظلمات الجهل .. والحمد لله الذي جعل من وصية والدي التي كتبها لي ، لساناً ناطقاً يخاطبني بها بعد وفاته آملاً من توفيقه وكرمه عز وجل أن أتمسك بها **ولا** أحيد عنها جهد الاستطاعة ما حييت .. وسائلاً الله عز وجل أن يطهر قلبي من رؤية الأغيار ، حتى لا أحجب بها عن السعي إلى مرضاة الله ، وحتى لا أحبس نفسي في دنيا أي فرد أو فئة من الناس بسائق رغبة فيهم أو رهبة منهم ، وحتى أصطبغ بالحال التي تجعلني أهلاً لترديد هذا البيت الذي كان يردده أبي :

إذا صحَّ منك الودُّ فالكل هيّن ... وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
• ولادته ونشأته وطلبه العلم :	١٣
مرحلة الطفولة	١٣
منهج الأكراد في دراسة العلوم الشرعية	١٦
مرض عضال ورؤية عجيبة	١٩
• اشتراكه في الحرب العالمية الأولى ، زواجه ، وحجه :	٢١
الحرب العالمية الأولى واشتراكه فيها	٢١
الانتقال إلى الحياة الزوجية	٢٢
رحلة الحج إلى بيت الله الحرام	٢٣
المرض الذي حمله على تأليف كتاب	٢٥
التوجه العارم إلى العبادة والتبتل	٢٦
• الهجرة إلى الشام :	٢٩
أسباب الهجرة	٢٩
التشاور والمعاهدة	٣٢
سيراً إلى الله بغير زاد	٣٤
الفتنة التي لا تعني أصحابها	٣٥
الاستقرار في دمشق والكدح من أجل الرزق	٣٧

الموضوع	الصفحة
الحياة الجديدة في دمشق :	٤٠
الشخصية المزدوجة	٤٠
أخيراً ، الارتباط بمسجد الرفاعي	٤٥
الانحراف ... وسبيل الإصلاح	٤٨
توفيق من الله ، لا مهارة من العبد	٥١
• أولاده ، ومسلكه في تربيتهم :	٥٥
مسلكه في التربية	٥٥
الشيخ حسن حبنكة ومعهد التوجيه الإسلامي	٥٨
فتن من نصائح الرفاق	٦٠
كيف تزوجت وأصبحت عديلاً لأبي	٦١
عود إلى معهد التوجيه الإسلامي	٦٢
كيف كان يأخذ الأهل والأولاد بتربية من ذكر الله	٦٤
الأثر الذي تركته فينا هذه التربية	٦٦
• عباداته ، زهده ، ورعه :	٦٩
صلاته وتهجده	٧٠
تلاوته وحفظه القرآن	٧٢
أذكاره وأوراده	٧٤
أدعيته ومناجاته	٧٨
مناسك الحج والعمرة والزيارة	٨٣
زياراته للصالحين أحياء وأمواتاً	٨٨
ورعه وزهده	٩٢

الموضوع	الصفحة
• موقفه من التصوف والبدع :	٩٩
التصوف النقي سلّم الوصول إلى ثمرات الإيمان	٩٩
علاقة التصوف بالطرق	١٠٠
الرابطة وأصلها	١٠٢
آداب الذكر وموقفه من التثني فيه	١٠٥
التصوف والعلم	١٠٦
شطحات الصوفية	١٠٨
وحدة الوجود ووحدة الشهود	١١٢
وأخيراً موقفه من البدع عموماً	١٢١
موقفه من الموالد	١٢٢
• صلته بعلماء دمشق ، عزلته ، ثم نشاطه ، ثم عزلته :	١٢٥
الرّكون إلى العزلة	١٢٧
بدء اشتراكه في بعض الأنشطة الدينية	١٢٩
موقفه من محنة الشيخ حسن حبنكه	١٣١
رعاية وحدة المسلمين واجب مقدس	١٣٣
رأيه في الصلة بالحكام وكيفية النصح لهم	١٣٩
الدعوة إلى الله ومحاورة العصاة واللطف بهم	١٤٢
نشاطاته العلمية	١٤٨
العود إلى العزلة بعد النشاط	١٥١
• مراحل المرض ثم الوفاة :	١٥٨
بدء مرضه	١٥٨
وعيه المتألق أثناء مرضه	١٦٢

الموضوع	الصفحة
انصرافه الوجداني إلى الله	١٦٣
غرائب من الأحداث قبل الوفاة	١٦٦
الوصية التي تركها بعد الوفاة	١٧٠
* **نموذج من تحقيقاته العلمية ووصاياه الدينية :**	١٧١
تمهيد	١٧٣
الاجتهاد من الرسول الكريم سيدنا محمد عليه وآله أزكى الصلاة والتسليم	١٧٥
مبحث نجاة والدَيْ رسول الله ﷺ والصلاة عليهما	١٧٩
خلاصة الوصية التي كتبها في شبابه لطفله الوحيد	١٨٤
وأخيراً	١٩٤
الفهرس	١٩٧